



التحذير من الذنوب



النفاق وصفات المنافقين (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله مصرف الأمور بأمره، ومعز الدين بنصره، ومذل الكفر بقهره، أحمده سبحانه وأشكره، أظهر دينه على الدين كله، وجعل العاقبة للمتقين بفضلته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى بحسن العبادة ربه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، جاء بالصدق، وتأييد بالحق، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله البررة الأطهار، وأصحابه الأئمة الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد:

فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى الذي ما من غائبة في السماء ولا في الأرض إلا ويعلمها ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فأصلحوا عباد الله بواطنكم كما تعتنون بصلاح ظواهركم، فإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأجسام، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال.

جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سأل حذيفة بن اليمان - وكان حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ - فقال: «أنشدك الله يا حذيفة هل ذكرني رسول الله مع المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدًا بعدك».

الله أكبر يا عمر، عمر يخاف على نفسه النفاق.. يخاف أن يكون من الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



من هو عمر؟ إنك لا تكاد تجد مسلماً على وجه الأرض لا يعرف عمر؛ فهو من أهم شخصيات أمة الإسلام، ومن أبرز الصحابة الأعلام، في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، ثم هو من أعظم زعماء التاريخ، جاء عن النبي ﷺ في وصفه: أنه من أهل الجنة، وأنه ما سلك فجاً إلا سلك الشيطان فجاً آخر، ويخاف الشيطان منه، وأنه شهيد، ولو كان بعده ﷺ نبي لكان عمر، وأنه مُحدِّثٌ مُلهمٌ، ومع ذلك يخاف عمر على نفسه النفاق، فمن ذا الذي يأمن على نفسه النفاق بعدك يا عمر؟!

أيها الأحبة: لقد كان عمر يلاحظ حذيفة عند الجنائز، فإن صلى حذيفة على الميت صلى عمر، وإن لم يصل لم يصل، ولم يكن عمر وحده يخاف النفاق على نفسه، بل قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ: قال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف على نفسه النفاق).

ويذكر عن الحسن أنه قال: (ما خافه إلا مؤمن، ولا آمنه إلا منافق). وروي عن الحسين أنه حلف: «ما مضى مؤمن قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن»، وكان يقول: «من لم يخف النفاق فهو منافق».

وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: ما تقول فيمن لا يخاف على نفسه النفاق؟ فقال: (ومن يأمن النفاق على نفسه؟!) وكان الحسن يسمي من ظهرت منه أوصاف النفاق العملي منافقاً، وروي نحوه عن حذيفة.

وإذا كان هذا البلاء بهذه الخطورة فما هي ماهيته وحقيقته كي نحذره، إذ لا بد من معرفة الشر للحد من الوقوع فيه، كما قيل:

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِّيهِ

ومن لا يعرف الشرَّ من الخير يقع فيه

إن النفاق هو مخالفة الباطن للظاهر، بأن يظهر صاحبه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله وباليوم الآخر، ويطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد النبي ﷺ، ونزل القرآن بدم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار، وهو النفاق الاعتقادي.



وثمة نوع آخر من النفاق، وهو النفاق العملي، وهو طريقٌ موصلٌ إلى الأول وأصوله مذكورةٌ في قوله ﷺ: «أربعٌ من كن فيه كان منافقاً، وإن كانت خصلةٌ منهن فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»^(١).

ولقد بين الله تعالى أوصاف المنافقين في كتابه أكمل التبيين حتى يتعرف المؤمنون على أهل هذه الأوصاف فيحذروهم، فمما وصفهم الله تعالى به بالأوصاف التالية:

أنهم لم يرتضوا الاسلام ديناً ولا الكفر الصريح مبدأً، فكانوا مذبذبين بين الكفار والمؤمنين غير أنهم يبغضون المؤمنين ويتولون الكافرين، وأنهم يأخذون من الدين ما سهل عليهم ويقبلون من الحق ما وافق هواهم، ثم هم ينكصون عما خالف أهواءهم ويتقاعسون عن تنفيذ ما يشق عليهم كشهود صلاة العشاء والفجر في المسجد، وإذا أرادوا شيئاً من العبادات فكأنما يستكروهون أنفسهم عليه فيؤدونه بكسل وثاقل، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، فيقولون الكلام المعسول بينما يضمرون الكيد والمكر، قلوبهم قاسية، وعقولهم قاصرة، فلا يتأثرون بالقيم الإنسانية النبيلة، والمثل العليا، ولا يقدرون مكارم الأخلاق، أفقهم ضيق، ونظرتهم محدودة، فصحاء شجعان في السلم، فإذا جد الجد وحصحص الحق استخفوا بأنفسهم ولاذوا بغيرهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، يخدمون الكفار ويتجسسون لهم ضد المؤمنين، يخذلون المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله، وإذا اشتروا معهم أحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفهم، وعملوا على تفكيك وحدتهم وفتتت قوتهم، يبأسون من رحمة الله، وينقطع أملهم في نصره، ويلجؤون في طلب النصر إلى الأعداء ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، ويعتمدون على القوى الحسية وحدها في وزن القوى المتقابلة في الميدان، ويسخرون من الاعتماد على الله عند عدم تكافؤ القوى، يستغلون الفرص المناسبة للطعن في دعاة الإسلام المخلصين وتشويه سمعتهم عن طريق الكذب وتغيير الحقائق، يبثون الشائعات وينشرون الشبهات حول الإسلام ليزعزعوا إيمان المؤمنين به ويصدوا الناس عن

(١) رواه البخاري (٢٤٥٩) ومسلم (٥٨).



الدخول فيه، يحاولون إفساد المجتمع الاسلامي عن طريق تيسير سبل الفساد التي تحطم الأخلاق وتقضي على الفضائل الإنسانية، يجارون الإسلام عن طريق التسمي به والدعوة إليه، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، يقبضون أيديهم عن إنفاق المال في حقه فهم بخلاء في الحقوق الواجبة.

عباد الله: هذا شيء من صفات المنافقين التي ذكرها الله تعالى في كتابه المبين، ليبين للمؤمنين حتى يجذروا من النفاق ومن صفات المنافقين وليعرفوا حقيقة أعداءهم، إن المنافقين شر على الإسلام والمسلمين من اليهود والنصارى والكافرين، وذلك لأن أولئك قد أعلنوا الكفر، فالمؤمنون جميعاً يدركون عداوتهم وتجتمع كلمتهم ضدهم، أما المنافق فإنه لا يدرك عداوته وخطره على الأمة إلا القليل من المسلمين، وهم أصحاب الوعي الكامل، ولا يتصدى لحربه إلا الذين جمعوا بين الوعي الكامل والإيمان القوي، وغالب المسلمين ينخدعون بالظاهر وتغرهم المظاهر، ويغريهم زخرف القول والوعود الكاذبة، والجري وراء الدعايات الجوفاء عن النظر والتأمل والنقد الهادف والاستشهاد بالماضي على الحاضر، ثم بين عشية وضحاها يصبح والأمر قد انفلت من أيدي المؤمنين وأخذ المنافقون حريتهم الكاملة في تنفيذ مخططاتهم للإفساد في الأرض، ومن هنا كان المنافقون أخطر على الأمة.

وإن مما حدث في هذا الزمان أن المنافقين تسموا بأسماء ظاهرها جمال براق، وباطنها مر المذاق، وتشر صورهم وتلمع أسماؤهم، وتؤخذ آراؤهم، ولكنهم ينكرون كل معنى في الدين أصيل، وكل مبدأ نبيل، ويتنكرون للدين واللغة والأخلاق الكريمة والآداب والقيم الفاضلة، ويصمون أهلها بالتخلف والرجعية، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ نَغْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ



الشَّيْطَانُ هُمُ الْخَائِرُونَ ﴿ [المجادلة: ١٤-١٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم،
وأستغفر الله العلي العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه
هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي تقدس في علاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولي من تولاها، وأشهد أن نبينا وحبينا وقدوتنا محمدٌ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، حذر أمته من النفاق وأوصاف المنافقين فجزاه الله عن أمته خير ما جازى نبياً عن أمته.

ثم أما بعد:

لقد حذر الله هذه الأمة من المنافقين وأمر رسوله بجهادهم فقال: ﴿يَتَّيِبُهَا لِنَبِيِّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَدَّوْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وإن الأمة الإسلامية أحوج ما تكون إلى تأمل آيات القرآن، لتحذر من الوقوع في صفات النفاق، وتسلم من شرور المنافقين، فإنهم لا يدخرون جهداً في المكر والكيد لهذه الأمة، ولذا حذر الله هذه الأمة تحذيراً بليغاً لكننا قد لا ندرکه أحياناً إلا بعد فوات الأوان: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ حَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ أَلْبَعَضُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءَ لِمُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا حَلَّوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعِیْظِكُمْ إِنَّا لَنَنصِرُكُمْ بِالْأَضْدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسَكُمُ حَسَنَةٌ سَوَّوْهُم وَإِن تُصِيبَكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن نَصَبَرُوا وَتَحَقُّوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّا لَنَنصِرُكُمْ بِالْأَضْدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

عباد الله: وإن على العبد أن يتفقد إخلاصه ويتعاهد إيمانه، ويحافظ على طاعة ربه، فإنه إذا أمن النفاق واستهان بالمعاصي والغفلة وركن إلى هوى النفس؛ قاده ذلك إلى الشر ومراتعه، فينسلُّ من الخير رويداً رويداً حتى يغلف قلبه الران، قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصر عوداً عوداً، فأی قلبٍ أشربها نُكنت في قلبه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكنت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السوات



والأرض، والآخر أسود مُرَبَّدًا كالكوز مُجَخَّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه»^(١).

فالحذر الحذر عباد الله من النفاق وخصال المنافقين، اصدقوا في الأقوال والأفعال، وبادروا الفتن بصالحات الأعمال، ووفوا بالعهود والمواثيق، والتزموا بالمواعيد على التحقيق، واعفوا واصفحوا عند المخاصمة، وأدُّوا الأمانة إلى العدو والصديق، وكونوا أشداء على أعداء الله من الكافرين والمنافقين، رحماء بالمسلمين أذلة على المؤمنين. هذا وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية...



(١) صحيح الجامع (٢٩٦٠).



خطورة التكفير وضوابطه^(١)

الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه، ونستغفره ونثني عليه الخير كله، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المعبود بحق سبحانه، لا ند له ولا شريك ولا ولد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خير من قام بحق ربه عليه، فعبد ربه حتى أتاه اليقين.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، الذين عرفوا ما لربهم من الحق، فقاموا به خير قيام، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عبادَ الله، العيشُ الوثير والخير الوفير والرزق الكثير ثمرة تقوى المولى اللطيف الخبير، فاتقوا الله رحمكم الله، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أيها المسلمون: لا يرتابُ الغيورون على أحوال الأمة أنها تعيش زمنَ طوفانِ الفتن، وأن واقعها المرير يُعجّ بفتنِ عمياء ودواهٍ ذهياء، قد انعقد غمؤها وادلهم ظلامها، غير أن هناك فتنةً فاقرة، وبليةً ظاهرة، فتنةٌ امتحن المسلمون بها عبر التاريخ، فتنة عانت منها الأمة طويلاً، وذافت مراتها وتجرعت غصصها ردحاً من الزمن، فتنة طال ليلها وأرخصى سدوله بشتى همومها وناءت بكلكلها وغمومها، كم نجم عنها من سفك الدماء، وحلّ جرائها من نكبات

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



خطورة التكفير وضوابطه

وأرزاء، وبالجملة فهي محيطٌ ملغوم ومركبٌ مثلوم، ومستنقعٌ محموم، وخطر محتوم، زلّت فيها أقدام، وضلّت فيها أفهام، وبالتالي فهي جديرةٌ بالتذكير، حفيةٌ بالتفكير، قَمِنَّةٌ بالتبصير، ما أحوجنا معها إلى صرخة نذير وصيحة تحذير، حتى لا تتجدّد فواجعُ الأمة في العنف والتدمير، الناتج عن فتنة التكفير.

إخوة الإسلام، المجازفةُ بالتكفير شرٌّ عظيم وخطر جسيم، كم أذاق الأمة من الويلات، وجرعهم وخيم العواقب وويل النهايات، لا يسارع فيه مَنْ عنده أدنى مَسْكَة من ورع وديانة، أو شذرة من علم أو ذرّة من رزانه؛ إذ هو أمر تتحرز من التسرع فيه العقول الرجيحة، والأفهام الصحيحة، أمر تتصدّع له القلوب، وتفزع منه النفوس، وترتعد من خطره الفرائص.

يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: (وها هنا تُسكَبُ العبرات ويُناح على الإسلام وأهلِهِ بما جناهُ التعصّبُ في الدين على غالبِ المسلمين من الترامي بالكُفر لا لِسِنَّةٍ ولا لقرآن، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لما غلّت به مراجلُ العصبيّة في الدين وتمكّن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين لِقَنَمِ إلزاماتٍ بعضهم لبعض بما هو شبيهُ الهباء في الهواء والسّراب بقيعةٍ، فيا لله والمسلمين من هذه الفارقة التي هي أعظمُ فواقِرِ الدين والرّزية التي ما رزىءَ بمثلها سبيلُ المؤمنين...) إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: (والأدلة الدالّة على وجوب صيانةِ عرض المسلم واحترامه تدلّ بفحوى الخطاب على تجنّب القدح في دينه بأيّ قادح، فكيف إخراجُه عن الملة الإسلامية إلى الملة الكفريّة؟! فإنّ هذه جنايةٌ لا يعدّها جناية وجرأةٌ لا تماثلها جرأة).

وأين هذا المجترى على تكفير أخيه من قولِ رسولِ الله ﷺ: «المسلمُ أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يُسلمه»^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «سبّابُ المسلم فسوقٌ وقتالُه كفر»^(٢)، وقوله ﷺ: «إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»^(٣) انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ^(٤).

(١) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر (٢٥٨٠) عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري في الإيذان (٤٨)، ومسلم في الإيذان (٦٤) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وثبت عن غيرم من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

(٤) السيل الجرار (٤/٥٨٤-٥٨٥).

إخوة الإيمان، لقد جاءت النصوص الزاجرة عن هذا المرتع الوخيم والمسلك المشين، يقول سبحانه: ﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبَتَّعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤]، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه»^(١)، وفيها من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حارَّ عليه»^(٢)، وعند الطبراني بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله»^(٣).

وعلى هذا المنهج الناصح الوضيء سار صحابة رسول الله ﷺ، خرَّج الإمام أحمد والطبراني وغيرهما عن أبي سفيان قال: سألت جابراً وهو مجاورٌ بمكة: «هل كنتم تزعمون أحداً من أهل القبلة مشركاً؟ فقال: معاذ الله، وفزع لذلك، فقال رجلٌ: هل كنتم تدعون أحداً منهم كافراً؟ قال: لا»^(٤).

وعلى هذا المسلك المشرق للألاء سار السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فوضعوا لهذا الحكم أصولاً وشروطاً وضوابط، ورسموا له حالاتٍ وموانع، لا بدَّ من مراعاتها والتثبت فيها، وما ذلك إلا لخطورته ودقته.

وأهمُّ هذه الضوابط يا عبادَ الله أنَّ التكفيرَ حكم شرعيٌّ ومحضٌ حقُّ الله سبحانه ورسوله ﷺ، يقول الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته:

الكفر حقُّ الله ثم رسوله بالنصِّ يثبت لا بقول فلان
من كان ربُّ العالمين وعبده قد كفراه فذاك ذو الكفران

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب (٦١٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان (٦٠).
(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب (٦٠٤٥)، ومسلم: كتاب الإيمان (٦١) واللفظ له.
(٣) رواه البخاري في الأدب (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) المعجم الأوسط للطبراني (٧٣٥٤)، ورواه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٢٣١٧)، قال الهيثمي في المجمع (١٠٧/١): (رجال الصالحين)، ولم يعزه لأحمد.



ويقول الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: (ولا نكفرَ أحدًا من أهل القبلة بذنْبٍ ما لم يستحلّه) (١)، قال ابن أبي العزِّ رَحِمَهُ اللهُ: (إنَّ بابَ التكفيرِ وعدمِ التكفيرِ بابٌ عظُمَتِ الفتنَةُ والمحنةُ فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتَّت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلُهم، فالناس فيه على طرفين ووسط) (٢)، ثم قال: (وإنه لمن أعظمِ البغي أن يُشهد على معيَّن أن الله لا يغفر له ولا يرحمه، بل يخلِّده في النار) (٣)، وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: (والذي ينبغي الاحترازُ منه التكفيرُ ما وجد إليه سبيلا، فإن استباحةَ الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلة المصحِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألفِ كافرٍ في الحياة أهونٌ من الخطأ في سفكِ دمٍ لمسلم) (٤)، وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: (اعلم أن مذهبَ أهل الحق أنه لا يكفرُ أحدٌ من أهل القبلة بذنْب، ولا يُكفرُ أهلُ الأهواء والبدع وغيرهم) (٥)، ويقول الإمام القرافي رَحِمَهُ اللهُ: (كونُ أمرٍ ما كُفراً أي أمرٍ كان ليس من الأمور العقلية، بل هو من الأمور الشرعية، فإذا قال الشارع في أمرٍ ما: هو كفر فهو كُفْر)، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فهذا كان أهل العلم والسنَّة لا يكفُّرون من خالفهم وإن كان ذلك المخالف يُكفِّرهم؛ إذ الكفر حكمٌ شرعيٌّ، فليس للإنسان أن يعاقبَ بمثله كمن كذب عليك وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه ولا تزني بأهله، لأنَّ الكذب والزنا حرامٌ لحقَّ الله تعالى، وكذلك التكفير حقُّ الله، فلا يُكفَّر إلا من كفره الله ورسوله) (٦)، وقال الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في الدرر السنية: (وبالجملة فيجب على كلِّ من نصَّح نفسه أن لا يتكلَّم في هذه المسألة إلا بعلم وبرهانٍ من الله، وليحدَّر من إخراج رجلٍ من الإسلام بمجرد فهمه واستحسان عقله، فإنَّ إخراج رجلٍ من الإسلام أو إدخاله من أعظمِ أمور الدِّين، وقد استزلَّ الشيطان أكثرَ الناس في هذه المسألة).

(١) العقيدة الطحاوية (ص ١٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣١٦).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣١٨).

(٤) التفرقة بين الإيذان والزندقة، انظر: انظر: فتح الباري (١٢/ ٣٠٠).

(٥) شرح صحيح مسلم (١/ ١٥٠).

(٦) الرد على البكري (٢/ ٤٩٢).

الله أكبر، هذا هو ورعُ السلف في هذا الباب، فكيف يسوغ بعدَ هذه النقول كلُّها لمن لم يبلغ في مقدار علمهم وفضلهم نقيراً ولا قطميراً أن يتجاسر على المسارعة إلى الحكم بالكفر الصَّراح في حقِّ إخوانه المسلمين جملةً وتفصيلاً عياداً بالله عياداً، أو ما عليم هؤلاء ما يترتب على التسرع في التكفير من أمورٍ خطيرةٍ من استحلال الدمِ والمالِ ومنع التواؤثِ وفسخ النكاحِ وتحريم الصلاةِ عليه وعدم دفينه في مقابر المسلمين، مع ما يستوجبه من الخلودِ في النار والعياد بالله، إلى غير ذلك مما هو مزبورٌ في مظانِّه؟! فلا جرَمَ بعد ذلك كله أن يقفَ الشرعُ منه موقفاً صارماً، يسدُّ الطريقَ على أحفادِ ذي الخويصرة وحرقوقِ بن زهير ومن خرج من ضئضئهم ممن يكفرون أهلَ الإسلام ويدعون أهلَ الأوثان، بل يوزعون صكوكَ جهنم على الخليقة وهم لا يشعرون، والله المستعان.

أمة الإسلام: ومن الضوابط المهمة في هذه المسألة الخطيرة أن المسلم لا يكفر بقولٍ أو فعلٍ إلا بعد أن تقام عليه الحجَّة وتزال عنه الشبهة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فليس لأحدٍ أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تُقام عليه الحجَّة ويبيِّن له المحجَّة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجَّة وإزالة الشبهة)^(١).

ومن الضوابط أنه يجب التفريق بين الفعل والفاعل والإطلاق والتعيين وتنزيل النصوص على الوقائع والأشخاص، جاء في مجموع الفتاوى ما نصَّه: «فإن نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حقَّ المعين إلا إذا وُجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع»^(٢).

ومنها أن الكفر نوعان: أكبر وأصغر، اعتقادي وعملي، وهذا مما التبس على كثير ممن يترشقون بالتكفير، فغفلوا عن الجمع بين النصوص والمنهج الصحيح فيما ظاهره التعارض.

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٤٦٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٧٢).



ولهذا ذهب جماهير العلماء سلفاً وخلفاً إلى التفصيل في قضية الحاكمية، وهو مذهب حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، وإنما هو كفرٌ دون كفر»^(١)، وإليه ذهب الطبري وابن كثير والقرطبي وعكرمة ومجاهد وعطاء وطاوس والزجاج والآجري وابن عبد البر والسمعاني والخصاص وأبو يعلى وأبو حيان وابن بطة وابن عطية وابن الجوزي وشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وأئمة الدعوة والمحققون قديماً وحديثاً.

وعدَّ أهل العلم أربع حالاتٍ في هذه المسألة على تفصيل نفيس يحقق الجمع بين النصوص، مما يؤكد الإجماع على براءة أهل السنة من تكفير عصاة الأمة، مع أنَّ وجوب الحكم بما أنزل الله لا يتماهى فيه مسلمان، وكلُّ مسلم للحكم بغير الشريعة من القالين، بيد أنَّ هذا الجرَم المستبين لا ينبغي أن يُخرجنا لحماسة مشبوهة وعاطفة جيّاشة عن قواعد أهل العلم والإيمان وأصول أهل السنة والقرآن ومنهج السلف في النظر والاستدلال، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!!

ومن الضوابط في هذه المسألة أنه لا يكفر باللوازم من الأقوال، ولا يُعتبر بما تؤول إليه من أفعال، يقول الإمام الشاطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مذهبُ المحققين من أهلِ الأصول أن الكفرَ بالمآل ليس بكفرٍ في الحال)، وقال الحافظ ابن حجر: (إنَّ الذي يُحكَّم عليه بالكفر من كان الكفرُ صريحاً قوله، وكذا من كان لازماً قوله وعرض عليه فالتزمه، أمّا من لم يلتزمه وناضل عنه فإنه لا يكون كافراً ولو كان اللازم كفراً)^(٢).

وأخيراً يراعكم الله فإنه لا يكفر إلا من أجمع أهل الإسلام على تكفيره أو قام على تكفيره دليلٌ لا معارض له، حكاه ابن عبد البر وابن بطال وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ يقول: (ولا نكفر إلا ما أجمع عليه العلماء كلُّهم)^(٣).

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣)، والطبري في

تفسيره (٢٥٦/٦)، والبيهقي في الكبرى (٢٠/٨)، وصححه الحاكم (٣٢١٩).

(٢) انظر: فتح المغيث (٦٩/٢).

(٣) انظر: الدرر السنية (٦٥/١).



مع أن من مسلمات هذه القضية العلم بأن هذا العمل كفر، فالجاهل لا يكفر حتى تقوم عليه الحجّة، يقول الإمام أحمد في الجهمية: (لو قلت قولكم لكفرت، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جهال)^(١)، ويقول شيخ الإسلام: (وهذا المتأول ينبغي إقامة الحجّة عليه أولاً وإظهار خطئه وإعلامه بالحق، كما ينبغي أن تعلم الموانع المانعة من التكفير، ومنها الجهل والخطأ والإكراه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ومنها التأويل السائغ، ولهذا اتفق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على عدم تكفير من استحلوا الخمر لوجود الشبهة لديهم، وهي تأويلهم قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣ الآية]^(٢).

وبعد:

أيها المسلمون: فإن الغير حينما يبينون خطورة المجازفة في التكفير ويذكرون شروط التكفير وضوابطه فإنهم يعلنون للعالم بأسره أن الإسلام بريء من هذا المعتقد الخاطيء، وأن ما جرى في بلادنا المحروسة ويجري في بعض بلاد المسلمين من سفك الدماء المعصومة وإزهاق الأنفس البريئة وأعمال التفجير والتدمير والتخريب والإفساد والإرهاب هُو من الأعمال الإجرامية المحرّمة، ولا يجوز أن يُحمّل الإسلام وأهله المعتدلون جريمة هذه الأحداث التي هي إفراز فكر تكفيريّ منحرف، ممّا تأباه الشريعة السمحة والفطر السليمة والعقول المستقيمة، والله المسؤول أن يصلح حال الأمة ويكشف عنها كل غمّة، وأن يوفّق الجميع لما يحبّه ويرضاه، ويهديهم لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

نفعي الله وإياكم بأي الكتاب وبسنة النبي الأواب، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنّه كان للأوابين غفوراً.

(١) قال نحوه ابن تيمية للجهمية من الحلولية والنفاء، انظر: الرد على البكري (٢/٤٩٤).

(٢) ينظر أين موضعه.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، يقول الحق وهو يهدي السبيل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو حسبنا ونعم الوكيل، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله المبعوث بكل خلق جميل وفعل نبيل، صلى الله عليه وعلى آله المثني عليهم بمحكم التنزيل، وصحبه ذوي المكانة والتفضيل، وسلّم يا ربّ تسليماً كثيراً.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وعليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار.

أيها الإخوة في الله: حينما يهبج الهوى في النفوس وتعرض عن نور الوحي والنصوص تُصاب بسُكرٍ أشدّ من سُكر الكؤوس. وإن ظاهرة الغلو في التكفير والاعتساف هي من أخطر ما بُليت به الأمة فحوّلها إلى إسرافٍ في أطراف.

لقد بدأت هذه الفتنة بحرب كلام، وانتهت إلى استحلال الدم الحرام، وزاد شططها حينما هُمّل السلاح في وجه الأمة، وأذكي أوارها حينما برزت في صورة فتاوى تكفيرية تحريضية، تلقفها حُذثاء الأسنان سفهاء الأحلام، فسلكوا مسالك أهل البغي والإجرام، فهل بعد هذا يسعُ السكوت من أهل الإسلام؟!

لقد كان الغيور على أبناء أمته يرى خلل الرماد وميض نارٍ وأن الحرب أول ما تكون فتيةً، واليوم نرى الأمر امرًا منكرًا، فما زال الفكر التكفيرى يسري بقوة في صفوف شباب الأمة الذين نظر بعضهم إلى المجتمعات نظرة سوداوية قائمة، وأنه لا مخرج من المحن والبلايا التي رُزئت بها الأمة إلا بالتكفير ثم التفجير والتدمير.

ومما يزيد في الأسى ما يرى من تسرب هذه اللوثة الخطيرة إلى بعض شباب الأمة، ويعظم الأمر حينما يكون الحكم بالتكفير جزاءً على ولاة أمر المسلمين ومن بايعهم على الكتاب والسنة من العلماء الربانيين، فرموا بالعمالة والمداهنة، بل لقد سرى الخطر إلى عوام المسلمين وناشئتهم.



ومما مدّ في أجل هذا الفكرِ المتهافِتِ وبسطِ رواجهِ هو التّقصيرُ في التّصدّي له وذكرِ أسبابه، والتي من أهمّها العجلة في الحكم وضحالةُ العِلْمِ وقلّةُ الفهمِ والخطأُ في منهجيّةِ الطّلبِ والتّحصيلِ، فلم يُؤخَذِ العِلْمُ من أهله المعروفين، بل زُهدَ فيهم، وأُفقدتِ الثّقةُ بهم، مع عدمِ الدرايةِ بمقاصِدِ الشريعةِ وقواعدِ الفقهِ ورعايةِ المصالحِ العليا في الأُمَّةِ والتعلُّقُ بشبّهِ ومتشابهاتِ، مع تركِ للنصوصِ المحكماتِ الواضحاتِ، إضافةً إلى ما يُعجُّ به واقعُ الأُمَّةِ من صُورٍ من الظلمِ والاضطهادِ، غيرَ أنّ ذلك ليس بمبرّرٍ ولا مُسوِّغٍ للخطأِ، فالعُنفُ لا يعالجُ بالعُنفِ، وإذا كان المصلِحون يرونَ الأُمَّةَ ممزّقةً والممتلكاتِ مغتصبةً والمقدّساتِ مستلبّةً فهل المخرُجُ من هذه الرزايا بالتكفيرِ والخروجِ على الجماعةِ وحملِ السلاحِ في وجهِ الأُمَّةِ؟! ألا يفتقِرُ هؤلاء؟! ألا يعتبرون بمن حوّلهم؟! ألم يقرؤوا التاريخَ ليدركوا كم أضرَّ هذا الفكرُ بالأُمَّةِ وصدّها عن دينها وخوَّفَ شبابها من التمسُّكِ بالسنةِ والتزامِ الشريعةِ؟! ماذا قدّمَ هذا الفكرُ الأحاديّ للأُمَّةِ؟! وماذا أثمرَ في مسيرةِ الدعوةِ والعملِ الخيريِّ والإصلاحِ؟! فاللهمَّ عُفراً عُفراً، أفلا يَسعُ هؤلاء ما وسعَ أنبياءُ الله ورسَلُهُ وصحابةُ رسولِ الله ﷺ والسلفُ الصالحِ ومن تبعهم بإحسان، فشغلوا أنفسهم تعلُّماً وتعليماً ودعوةً وإصلاحاً؟!!

أيها الإخوةُ في الله: أمّا العلاجُ فبالعِلْمِ العِلْمِ، وبالفهمِ الفهمِ، وبالحوارِ الحوارِ، مع التحريِّ والتدقيقِ، والتأنيِّ والتحقيقِ، حتى لا تخربَ الديارَ ويحلَّ الدمارَ ويلحقَ بالأُمَّةِ العارُ والشنارُ، وما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ، فلقد كَفَّرَ أسلافُ هؤلاء خيارَ هذه الأُمَّةِ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ، ورضيَ اللهُ عنهم وأرضاهم، وجازى من كَفَّرَهم وعاداهم بما يستحقُّ دنياً وأخرى. وهنا لا بدّ من التأكيدِ على أنّ الناسَ في هذه القضيةِ طرفانِ ووسط، فأهلُ السنةِ والجماعةِ وسطٌ بين الخوارجِ والمرجئةِ، وكما عانتِ الأُمَّةُ من فكرِ التكفيرِ عانت من الإرجاءِ والتأخيرِ، ولهذا وُضِعَ أهلُ العِلْمِ بابَ الرّدّةِ ونواقضِ الإسلامِ، غيرَ أنّهُ لا بدّ أن يتصدّى لذلك ذوو العِلْمِ الراسخِ والبصيرةِ النافذةِ.

وقد طالبَ بعضُ المنهزمينِ فكرياً ممن جهلَ حقيقةَ دينه، ومكائدِ عدوه، بتمييعِ الدينِ وذوبانِ الشريعةِ بدعاوى ضعيفةٍ، ومزاعمِ واهيةٍ، ونسبوا إلى دينِ الله ما ليس منه، وعمّموا النقدَ على كلِّ منتسبٍ للتدينِ، وكلِّ محتسبٍ للدعوةِ، وطالما كانت نظريةُ التعميمِ جائزةً ظالمةً لو كانوا يعقلون.



والدعوة موجَّهة بحرارةٍ إلى شباب الأمة باليقظة والانتباه وأخذ الحذر من كل انحرافٍ فكريٍّ يجانب منهجَ الوسطية والاعتدال، فليحذروا من أن يُستغلَّوا أو يستهدفوا ويستفزووا، في أفكارٍ دخيلةٍ أو مناهجٍ هزيلة.

وإلى المصطادين في الماء العكرِ المستغلِّين كلَّ هفوةٍ من بعض الأخيار والصالحين، أن يتقوا الله ويكفوا عن تعميم الأحكام، ونسبة أخطاء الجهال إلى دين الإسلام، فوالله إن هذا هو هدف أعدائكم ليحرفوكم عن دينكم، و لن تصلح حال الأمة إلا بالقيام بأمر الدين وإعلاء رايته ونصرة حملته والدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ بالحكمة والموعظة الحسنة.

وحسبنا محض النصيحة الموافقة للنصوص الصحيحة والنقولِ الصريحة، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ألا وصلِّوا وسلِّموا رحمكم الله على الرحمة المهداة والنعمة المسداة كما أمركم بذلك ربكم في علاه، فقال تعالى قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّد الأولين والآخرين نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحابته الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...



خطر السحر والشعوذة^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، أحمده تعالى حمداً يتجدد بالعشي والإبكار، وأشكره سبحانه على نعمه الغزار، وأسأله المزيد من فضله المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عالم الغيب والشهادة وكل شيء عنده بمقدار، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله المصطفى المختار، صلى الله وسلم عليه وعلى آله البررة الأطهار، وصحبه الأئمة الأبرار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، صلاة تترى آناء الليل وأطراف النهار، وسلم تسليماً كثيراً؛ أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله: فإن تقواه سبحانه جنة من النار، وسبب لدخول الجنة دار القرار، فاسلكوا رحمكم الله مسالك المتقين الأبرار، واحذروا مسالك الأشرار وطرائق الفجار.

أيها المسلمون: إن المستقرئ للتأريخ البشري والمتأمل للتراث الإنساني يجد أن ثمة حقيقة مراً مؤلمة، وهي أن العقول البشرية قد تعرضت لعمليات وأدٍ واغتيال خطيرة عبر حقبٍ طويلة، يتولى كبر أسلحتها خناجر الوهم والخرافة، وألغام الدجل والشعوذة، وتلك لعمر الله أعتى طعنة تسدد في خاصرة الإنسان العقلية وقواه الفكرية والمعنوية، ومن ثم فإن التحرر الحقيقي من أغلال الوهم والخرافة وآصار الدجل والشعوذة إنما يمثل السياج المحكم والدرع الواقي والحصن الحصين لحق من أهم حقوق الإنسان وهو تحصين عقله من الخيالات، وحفظ فكره من الخرافات. ومن هنا كانت أنبل معارك العقيدة تحرير العقول الإنسانية من كل ما يصادم الفطر، ويصادر الفكر، ويغتال المبادئ والقيم. وهيهات أن تُعمر الحياة وتُشاد الحضارات بالمشعوذين البله الذين لا يراعون للإنسان كرامة، ولا للعقول حصانة وصيانة.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



إخوة العقيدة: لقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، فأبطل الله به مسالك الجاهلية، وقضى على معالم الشرك والوثنية، فاستأصل شأفتها، واجتث جرثومتها. وفي طليعة ذلك الأوهام والخزعات لما تمثله من إزراء بالعقول، يعمد أحدهم إلى نُصْبٍ وحجارة فيعلق بها آماله وآلامه، فيبول عليها الثعلبان فيتركها، وآخر إلى مجموعة من تمر وطعام فيجوع فيأكلها، وثالث يتعلق بحروز وتمايم وخيوط وطلاسم، في انتشار لسوق التخرصات والشعوذات، وإلغاء للتفكير وسلب للعقول.

فلما جاء الإسلام بعقيدة التوحيد الخالصة لله، وأشرقت أنوارها في جميع أصقاع المعمورة، حررت القلوب من رق العبودية لغير الله، ورفعت النفوس إلى قمم العز والشرف والصفاء، وسمت بالعقول عن بؤر الوثنية ومستنقعات الخرافة والشقاء، كيف وعقيدة المسلم أعز شيء عليه، وأعلى شيء لديه، بها يواجه أعتى التحديات، وبها يصبر على مُرّ الابتلاءات، ويقاوم موجات القلق والأرق والاكئاب النفسي والاضطرابات، وبها يُقيم سداً منيعاً ودرعاً مكيناً أمام زحف الأباطيل والضلالات، وغزو الشعوذة والخرافات، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

إخوة الإيمان: لقد نأى الإسلام بأتباعه عن أوهام الجاهلية وأوضارها، وطهر نفوسهم من رجز الوثنية وأباطيلها، وابتعد بهم عن براثن الإسفاف وبؤر الاستخفاف في كل صوره وأنماطه، ويأتي في الطليعة منها مظاهر السحر والشعوذة والتجهيل، ومعالم الخرافة والدجل والتضليل، لما تمثله من طعنة نافذة في صميم العقيدة، وشرخ خطير في صرح التوحيد الشامخ، وانهيار مُزْرٍ يثلث القوة، ويذهب العزة، ويجلب الانتكاسة، ويلحق الهزائم، ويقضي على العزائم، ويشكك في الثواب واليقينيات، ويروج لبضاعة التخرصات والخزعات، فيقع الاضطراب في المجتمع، وتحصل الفوضى في الأمة، ويُحرق سياج أمنها العقدي، فتغرق سفينتها في مهاوي العدم وبؤر الفناء، وقد قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].



أمة الإسلام: إنه مع طول الأمد وحصول التخلف المشين لدى فئام كثيرة في الأمة، ووقوع أنواع من التغافل والتزييف للحقائق، مع غلبة الجهل الذريع عند كثير من الناس في أعقاب الزمن، صحب ذلك تلاعب بالألفاظ وتغيير للمصطلحات تحت ستار مسميات معسولة، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، نتج عن ذلك كله تمرير بعض الصور الشركية وتسويق بعض الطقوس البدعية. ولعل مظاهر السحر والشعوذة من أوضح النماذج على هذا التزييف الذي أصاب الأمة في أعز ما تملك من الثوابت والمسلمات، وأعلى ما لديها من المبادئ والمقومات، وهو تمسكها بعقيدتها الإسلامية الصافية من اللوثات الشركية والصور الخرافية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد ليقتذف كل يوم بجديد في عالم الخرافة والدجل، ونسج الأكاذيب والشعوذات، وبث الشائعات والخزعبلات، مما يؤكد أهمية حماية جانب الأمن العقدي في الأمة، حتى لا تؤثر سوس الأوهام وتنخر خلايا هذا الإجماع سلبيًا في جوانب شتى من حياة الأمة والمجتمع، وتلك عاقبة وخيمة المراتع، ونتيجة تجعل الديار بلاقع، فما حلت أعمال الشعوذة في قلوب إلا أظلمتها، ولا في مجتمعات إلا دمرتها. ويزداد ذهول أهل التوحيد حينما تجد هذه الأوهام رواجًا لدى جبل كثير من العامة ممن ينساقون وراء الشائعات، ويلغون عقولهم عند جديد الذائعات، ويتهافتون تهافت الفراش على النار على الأوهام، ويستسلمون للأباطيل والأحلام، حتى أضل سُرَادِقُ الشعوذة عقول كثير من أهل الملة والديانة.

ولا تسأل بعد ذلك عما تفعله هذه المسالك المزدولة في أوساط كثير من الدهماء، وما تحدثه في عقول كثير من السُدُج والبسطاء. فأين الإيمان عباد الله؟! وأين الحجى والعقول السليمة؟! أولسنا نتلو ونؤمن بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]؟! لكن العجب والعجائب جمّة حينما تُلغى العقول والأفكار أمام قول كل دعي مأفون.

إخوة الإسلام: إن تصديق أدعياء علم الغيب وإتيان السحرة والعرافين والكهنة والرمالين والمنجمين والمشعوذين الذين يزعمون وبئس ما زعموا الإخبار عن المغيبات أو أن لهم قوى خارقة يستطيعون من خلالها جلب شيء من السعد أو النحس أو الضر أو النفع لهو



ضلالاً عظيم وإثمٌ مبین، فعلم الغيب مما استأثر الله به وحده سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وإنا اليوم لفي زمانٍ كثر فيه هؤلاء الأعداء الدجاجة لا كثرهم الله، فهم داءٌ خطير، وشرٌ مستطير، يُقوِّض سعادة الأفراد واستقرار الأسر وأمن المجتمعات.

إن أعمال الشعوذة خصلة شيطانية، وُحْلَة إبليسية، ولوثةٌ كفرية، ودسيسة يهودية. لقد أمر أمرهم، وتعاضم خطرهم، وتطايير شرهم، واستفحل شرهم، فكم من بيوت هُدمت، وعلاقات زوجية تصرّمت، وحبال مودة تقطعت بسببهم حسيبهم الله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْئَسَ مَا شَكَّرُوا بِهِءِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١) وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿ [يونس: ٨١-٨٢].

معاشر المسلمين: في تعاطي السحر وإتيان السحرة جمعٌ بين الكفر بالله والإضرار بالناس والإفساد في الأرض، فكم في كثير من المجتمعات من محترفي هذا العفن ممن يعملون ليل نهار لإفساد عقائد الأمة، مُقابل مبلغ زهيد يتقاضونه من ضعاف النفوس وعديمي الضمائر الذين أكل الحسد قلوبهم، فيفرجون على إخوانهم المسلمين، ويتشفون برويتهم وهم يُعانون آثار السحر الوخيمة، فلا براحةٍ يهنؤون، ولا باستقرار يسعدون، حتى حقق هؤلاء المشعوذون رواجاً كثيراً، وانتشاراً كبيراً.

فتارة يأتون من باب العلاج الشعبي والتداوي، وأخرى من باب التأليف والمحبة بين الزوجين، وهو ما يُسمى بالتوّكّلة، وهي أشياء يزعمون أنها تُحبب الزوجين لبعضهما، وتارة من باب الانتقام بين الخصمين، ومنه الصرفُ والعطف، فاستشرى فسادهم حتى على كثيرٍ من المتعلمين والتعبدين، فكم من جنایاتٍ حصلت بسبب هؤلاء التّعساء، وعداوات زُرعت بسبب هؤلاء الأشقياء عليهم من الله ما يستحقون مُتظاهرين للناس بشيءٍ من الخوارق، موهمين السُدج بشيءٍ من القُدَر والعلائق. وخسى أعداء الله وإن طاروا في الهواء، ومشوا على



الماء، وزعموا تحضير الأرواح، والتنويم المغناطيسي، ولبسوا على العيون بما يسمونه بطريقة الكف والفتجان وغيرها من الأعمال البهلوانية. فهذا دعويٌّ مآفون يزعم أنه يجر المركبات الثقيلة بأسنانه، وآخر يستلقي فتمر المركبة على بطنه، وآخر يبدل العشرات مئينا، والآلاف ملايين، فتضيق عقول كثير من الناس ممن يصابون بالهوس المادي، وقد قال ﷺ: «من أتى عرفاً فسأله لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً» خرّجه مسلم في صحيحه^(١)، وأخرج الحاكم وأهل السنن من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى عرفاً أو كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(٢)، وقد عدّ المصطفى ﷺ السحر من السبع الموبقات أي المهلكات، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ^(٣).

ومن ذلكم يا عباد الله التعلق بالنجوم والمطالع والأبراج والكواكب، فيزعمون أن من وُلِدَ في برج كذا فهو السعيد في حياته، وسيحصل على ما يريد من مال أو جاهٍ أو حظوظ، ومن وُلِدَ في برج كذا فهو التعيس المنحوس، وسيحصل له كذا وكذا من الشرور والبلايا، في سرد مزعوم للفضائح وإعلان موهوم بالقبائح، لا يُقره شرع ولا عقل ولا منطق. وإنك لواجدٌ في بعض البلاد من ذلك شيئاً عجبياً.

ومن هنا يأتي الواجب العظيم في تكثيف الحصانة العقدية الإيمانية ضد هذه الأعمال الشيطانية، كما أن الواجب القضاء على هذه الفئة الضالة لما تمثله من خطر على الأمة وإخلال بأمن المجتمع وإفساد لعقائد الناس واستهانة بعقولهم وابتزاز لأموالهم.

إن واجب المسلمين جميعاً التكاثر في القضاء على هؤلاء المشعوذين والإبلاغ عنهم، والتعاون مع الجهات الرسمية في ذلك، ليرى الحاكم فيهم ما يوافق الشرع وتقتضيه المصلحة، حتى لا يُجُلُّوا عِقْدُ ثوابت الأمة، ويُشْتَتُوا لآلئ أمنها ونظامها واستقرارها، ويقضوا على البقية الباقية من تآلف الأُسُر وترابط المجتمعات، بزعم دفع الكره وجلب المحبات، وتحقيق الرغبات، فيفرون بين المرء وزوجه، وبيتزون ضعفاء النفوس وناقصات العقول ممن يلهث

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٣٠) عن بعض أزواج النبي ﷺ بلفظ: «أربعين ليلة».

(٢) صحيح الترغيب (٣٠٤٧).

(٣) رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٧)، ومسلم في الإيمان (٨٩).



وراء تُرّهاتهم وأباطيلهم مستجدياً مستنصراً وهو لا يعلم أنهم إنسا يُمنّونه زورا، ويعدونه غرورا، فهم لا يألونه خبالاً، ولا يزيدونه إلا وبالاً.

عن بجالة التميمي قال: كتب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة»، قال: فقتلنا ثلاث سواحر،^(١) وصح عن حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت»، رواه مالك في الموطأ^(٢)، وثبت قتل الساحر عن عدد من الصحابة والتابعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (أكثر العلماء على أنه يُقتل الساحر، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ومالك رَحِمَهُمُ اللهُ)^(٣)، قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا اشتهر فلم يُنكر، فكان إجماعاً)^(٤).

ومع أن العالم يعيش عصر المدينيات والتقانات التي يُفترض أنها تُنأى الخرافة، وتناقض الشعوذة، وتحارب الدجل، فإن الغيور ليأسى حينما تطورت الخرافة بتطور الزمن، ودخلت مجالات شتى في الاقتصاد والاجتماع والإعلام وغيرها طلباً للحظ بزعمهم، بل سُخرت بعض وسائل الإعلام وبعض القنوات الفضائية لبثها للتشويش والإثارة، مما يتطلب من أهل العلم والدعوة التركيز على الجانب العقدي في الأمة وإعزاز جانب الحسبة والإصلاح. ولئن بدت الصورة قائمة نتيجة الجرح العميق الذي نكأته الشعوذات والخرافات في عقول كثيرٍ من أبناء ونساء الأمة فإن الأمل كبير في أن يسترجع المسلمون ما فرطوا فيه من أمر عقيدتهم، ويجدّوا في إنقاذ التائهين في دروب الباطل والأوهام إلى شاطئ النجاة وساحل الأمان بإذن الله، وكان الله في عون العاملين المخلصين لعقيدتهم ومجتمعاتهم وأمتهم، إنه خير مسؤول، وأكرم مأمول.

أقول قولي هذا، وأسأل الله أن يبارك لي ولكم في القرآن، وينفعنا بما فيه من الآيات والهدى والبيان، وأن يرزقنا السير على سنة المصطفى من ولد عدنان.
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إنك أنت الغفور الرحيم.

(١) صحيح أبي داود (٢٦٢٤).

(٢) صححه ابن باز في مجموع فتاويه (٧/٧٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣٤٦/٢٨).

(٤) المغني (٣٠٣/١٢).



الخطبة الثانية:

الحمد لله خلق فأمر، وملك فقهر، وكل شيء عنده بقضاء وقدر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغامًا لمن جحد به وكفر، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله الشافع المشفع في المحشر، القائل فيما صح عنه: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»^(١)، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه السادة الغرر، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، ففيها الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

واعلموا أن أشد ما ابتليت به النفوس وأصيبت به المجتمعات دخول النقص عليها في أعز ما لديها، في عقيدتها وثوابتها، ومن ذلك أعمال السحر والشعوذة والتطير والتشاؤم والتعلق بالأوهام من بعض الشهور والليالي والأيام وذوي العاهات والأمراض والأسقام. والمؤمن الحق يعيش نقى السيرة صافي السريرة، مطمئن الفؤاد، منشرح الصدر بذكر رب العباد، لا يعرف الوهم إلى نفسه سيلا، ولا يجد الملح عليه مدخلًا وطريقًا.

أيها الإخوة: ومع أن السحر حقيقة واقعة، والمس والتلبس والإصابة بالعين كلها حقائق شرعية وواقعية، إلا أن بعض الناس يعيش حياة الوهم في كافة أمورهم، فكثيرون هم صرعى الأوهام والوساوس، إذا ألم أحدهم أدنى صداع قال: هذا مسٌّ! وإذا أُصيب بعارض زكام قال: هذه عين! ومن المقرر أن الابتلاء سنة وتمحيص، والبشر عرضة للأمراض والأسقام، ولكن ينبغي إعطاء كل أمر حقه دون إفراط أو تفريط.

إخوة الإسلام: ومع تشخيص الداء فلا بد من وصف العلاج والدواء، إلا أن الله سبحانه لم يجعل شفاء أمة محمد ﷺ فيها حرم عليها، وإن التداوي بالرقى المشروعة أو بألوان الطب الحديث كل ذلك مشروع غير ممنوع، فهو لا ينافي التوكل على الله، لكن حلّ السحر ودواء العين لا يكون بسحر مثله، وهو ما يعرف بالنُّشْرة وهي حلّ السحر عن المسحور، وقد سئل

(١) رواه البخاري (٥٧٥٧) ومسلم (٢٢٢٠).



عنها ﷺ فقال: «هي من عمل الشيطان»^(١)، بل الدواء والشفاء يكون بالأدوية الشرعية، ولا يلزم أن يكون من يرقى معروفاً أو مشهوراً أو ممن اتخذ هذا الأمر حرفة يستدر من خلالها أموال الناس ويبتز جيوبهم، بل القرآن شفاء من كل مرض وداء، ﴿هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وما يعين على ذلك: النظر في أهلية المداوي ديناً وعقيدة واستقامة، وفهماً وصدقاً وأمانة، وتأهيل المتداوي بأن يكون حسن الظن بالله، قوي التوكل عليه، لا يتكل على غيره وإن كان راقياً شرعياً أو طبيباً أكاديمياً، بل يسعى للتداوي، لكن القلب متوكل على من بيده الشفاء من كل داء، سبحانه وتعالى.

فعليكم رحمكم الله بالإقبال على القرآن، والبعد عن المعاصي، فلم تكن أعمال الشعوذة لتروج في بعض المجتمعات لولا ضعف العلم والإيمان لدى كثير من أهل الإسلام، وانتشار المعاصي في كثير من البيوتات والمجتمعات، وعليكم يا رعاكم الله بتحسين أنفسكم وأولادكم بالرقى المشروعة والأوراد الماثورة، فهي حصن حصين وحرز أمين، من السحر والمس والعين، حافظوا على أذكار الصباح والمساء وأدعية الدخول والخروج والنوم، أكثروا من قراءة فاتحة الكتاب وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة وسورة الإخلاص والمعوذتين، فإنها حرز لصاحبها بإذن الله من كل داء وبلاء.

وهاكم رحمكم الله وصفة طبية نبوية هي خير لكم وأمان، روى أبو داود والترمذي عن عبد الله بن خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»^(٢)، وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات إلا لم يضره شيء»^(٣).

(١) السلسلة الصحيحة (٢٧٦٠).

(٢) صحيح الجامع (٤٤٠٦).

(٣) صحيح الترمذي (٣٣٨٨).



فالحمد لله الذي ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواء، ونسأله تعالى أن يمن على الجميع بالشفاء والعافية من أمراض القلوب والأبدان، إنه جواد كريم، ونشكره سبحانه أن يهيء في بلاد الإسلام من يكفُّ عن الناس كيد السحرة الأشرار، وينفذ حكم الله فيهم صلاحًا للعباد، وحفظًا لأمن البلاد، وتطهيرها من ألوان الشر والفساد.

ألا وصلوا وسلموا رحمكم الله على النبي المصطفى والرسول المجتبي والحبيب المرتضى كما أمركم بذلك ربكم جل وعلا فقال تعالى قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ على نبينا محمد ما ذكره الذاكرون الأبرار، وصلِّ عليه ما اختلف الليل والنهار، وصلِّ عليه وعلى المهاجرين والأنصار، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين...



الخشوع في الصلاة (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي فرض الصلاة صلة ورحمة، وجعلها ناهية عن الفحشاء، دافعة للعقوبة والنقمة، أحمده سبحانه على نعمه الجمّة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وجعل أمتنا خير أمة، وبعث رسولاً منا يتلو علينا آيته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله ربه للعالمين رحمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله: كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

واعلموا أن الصلاة أعظم واجبات المسلم وأهمها، إنها الفرض العظيم من فروض ديننا الحنيف، والركن الركين من أركان شرعنا المطهر، هذه الشعيرة التي هانت على الأمة فهانت الأمة على ربها سبحانه وتعالى؛ لأنها قطعت الصلة والحبلى الذي بينها وبين الله، فأصبح الاتصال بينها وبين خالقها مقطوعاً، وعندما انقطع الاتصال بين الأمة وخالقها ذهب دعاء الأمة واستغاثاتها وتضرعها أذراج الرياح، تهاوت الأمة في الصلاة فاستهان بها الأعداء وضحكوا عليها ملء أشداقهم؛ لأن الأمة التي أعزها الله بالدين لن تقوم لها قائمة بغيره، بل ستظل دائماً في ذيل الأمم ما دامت بعيدة عن دينها.

عباد الله: لكل شيء روح، وروح الصلاة هو الخشوع، وهو أمر أثنى الله عليه وعلى

المتصفين به في كتابه العزيز، يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

(١) عبد العزيز بن الطاهر بن غيث.



خَشِعُونَ ﴿ [المؤمنون: ١-٢]، ويقول سبحانه في الشاء على بعض أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فمن الأمور المهمة في باب الصلاة أداؤها كما يريد الله، فلا بد أن تؤديها كما يريد الله سبحانه لا كما نريد نحن، وأن لا نمتنَّ على الله بها، بل هو الذي يمتن علينا أن هدانا للإسلام وجعلنا من المصلين، ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

الله يمتنَّ عليك أيها العبد بأن أعطاك شرف مقابله والدخول عليه متى شئت، فأنت في هذه الحياة الدنيا من المستحيل أن تقابل سلطانا أو وزيرا أو حتى رئيس بلدية، وإن قابلته فبعد جهد جهيد وترتيبات ومواعيد قد تدوم أشهرا، فإذا كان هذا مع المخلوق فكيف ستكون مقابلة خالق المخلوق، خالق السماوات والأرض، خالق الشمس والقمر والبحار والجبال الجبار المتكبر؟! لا شك أن المنطق يقول بأن مقابله أصعب وأشد استحالة، ولكن جبار السماوات والأرض منحك هذا الشرف، متى شئت أنت قابلته وكلمته، فما عليك إن أردت ذلك إلا أن تتطهر وتتوجه إلى القبلة بخشوع وتقول: الله أكبر، عندها يقبل عليك الرب وتكون في حضرته وبين يديه، فعليك أن تؤدي هذه الصلاة كما يريد هو، وكما شرعها لك في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، لا كما تريدها أنت فتنقرها سريعة كما يجلو لك ودون خشوع وتؤخرها عن وقتها، فهل هكذا أرادها الله منك؟! وهل تفعل مع المخلوق مثل هذا الأمر؟! إن طلب منك رئيسك في العمل تقريرا أو أمرا ما هل تؤديه كما يجلو لك وتقول له: هذا هو العمل، أم أنك تؤديه كما طلب منك وبناء على تعليماته الدقيقة؟! فلماذا تفعل هذا مع تعليمات المدير ولا تفعله مع تعليمات رب المدير مع تعليمات السميع البصير القوي القدير؟!!



اعلم يا عبد الله أنك إن أدت عملاً لله على غير ما يريد الله فكأنك لم تؤده. فاحذر، واعلم أن الله تعالى يقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، والصلاة من ضمن الأعمال، والخشوع من أهم شروطها، يقول ﷺ: «خمس صلوات افترضهن الله عز وجل، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»^(١).

الخشوع في الصلاة إخوة الإيمان من أهم الأمور، فما هو الخشوع؟ تذكر كتب اللغة في معنى الخشوع أنه الخضوع والسكون والتذلل، ويقول قتادة: (الخشوع هو الخوف وغيض البصر في الصلاة)، وقال ابن زيد: (الخشوع الخوف والخشية لله) وقرأ قول الله تعالى: ﴿خَشِيعِينَكَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ [الشورى: ٤٥]، قال: (قد أذهم الخوف الذي نزل بهم وخشعوا له).

إذاً فالخشوع أمر جميل محبوب؛ لهذا أثنى الله على المصلين المتصفين به، وإذا نظرنا إلى أنفسنا: هل يحقق كل منا هذا الأمر الأساسي من أمور الصلاة؟ لوجدنا أن أكثر المصلين إلا من رحم الله لا يحقق هذا الأمر، بل بالعكس تجدنا نقف أمام المخلوق برهبة أكثر من رهبتنا أمام الخالق، فعندما يقف المرء منا أمام مدير المؤسسة التي يشتغل بها أو أمام أمير المعسكر أو غيره من أصحاب المكانة والجاه، فإن حواسه كلها تكون متببهة وحركاته محسوبة، القلب يدق بسرعة، وأنفاسه يسمعها تتردد، وعقله متيقظ، فلا تفوته كلمة أو لفظة من لفظات هذا المسؤول الذي أمامه، فما بالنا إذا وقفنا بين يدي الله لا نقف باحترام ولا نعطي هذه الوقفة حقها؟! فالهندام غير مرتب، والقلب هائم لا يدري عن شيء، والأعضاء والجوارح تتحرك في كل اتجاه، فتجد الواحد منا يتململ ثم يحك رأسه ثم يضع إصبعه في أنفه، وتراه يقلب بصره في سقف وحوائط المسجد، فماذا وعى هذا المصلي من الصلاة؟! أكثرنا يا عباد الله إلا من رحم الله لا نعي من الصلاة إلا أمرين نعلم أننا فعلناهما في أكثر الصلوات هما: تكبيرة الإحرام والتسليم، أما ما بينهما فلا تسألني: ماذا فعلت؟ أو ماذا قرأت؟ أو ماذا قرأ الإمام؟

(١) صحيح أبي داود (٤٢٥).



أو غير ذلك، فالجسد في المسجد والقلب يحوم في هذه الدنيا طولا وعرضا، والله المستعان.

الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها أمر ضروري يا عبد الله، لأنك عندما تقف في الصلاة فأنت تناجي الله، والله أمامك يراك، فكيف تغفل عنه وأنت بين يديه ولا تعطي لهذا المقام احترامه؟! فما دمت تقف بين يدي خالق الخلق ومدبر الرزق الإله الحق فحاول قدر استطاعتك أن تنضبط في هذه الصلاة وتعقل ما تفعل فيها، ولا يكن همك أن تنهي صلاتك بأي كيفية، فتؤديها ناقصة الاطمئنان وناقصة الأركان ومبتورة الحركات والسكنات، فإن هذا من السرقة، والسرقة في الصلاة من أسوأ السرقات، يقول ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته»، قالوا: يا رسول الله، كيف يسرق من صلاته؟! قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها، ولا يقيم صلبه في الركوع والسجود»^(١). فهل نمتنع عن السرقة من أموال الناس ثم نسرق من صلاتنا التي تقدمها لخالقنا، والتي إن أنقصنا منها اليوم فسنجدها ناقصة يوم القيامة؟! هذا إن قبلت منا.

وللخشوع أمور تعين عليه إخوة الإيمان، نذكرها لعل الله ينفعنا بمعرفتها ويعيننا على تحقيقها:

أول هذه الأمور: استحضر هيبة من تقدم هذه الصلاة له، فعندها سنؤدي هذه الأمانة كما ينبغي، فأنت تقدم هذه الصلاة إلى قيوم السموات والأرض من عنت له الوجوه وخشعت له الأصوات وذل له الخلق أجمعون، فكيف لا تخشع لهذا الإله؟! ومن أحق بخشوعك من دونه؟! كان علي بن أبي طالب ﷺ إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه، فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها»، ويروى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟!».

(١) صحيح الترغيب (٥٢٤).



ومن الأمور المعينة على الخشوع إفراغ النفس من المشاغل عند الدخول في الصلاة، فحاول أيها المسلم أن لا تدخل إلى الصلاة وأنت مشغول البال مشتت الفكر، وعود نفسك أن تؤجل التفكير في أمورك الدنيوية إلى ما بعد الصلاة؛ لأن هذه الأمور تشغلك عن الإقبال على الله بخشوع، والله سبحانه يريد منك أيها العبد أن تقبل عليه في كامل وعيك، لا أن يكون جسمك عنده والقلب في مكان آخر، فإن المخلوق لا يقبل منك هذا، فكيف يقبله الخالق؟! لذلك راعى الإسلام هذا وحرص على أن لا يدخل المسلم في العبادة وهو مشغول بغيرها، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء»^(١). فانظر إلى هذا الدين السامع الذي راعى جوع الإنسان وانشغاله بالطعام فقدمه على الصلاة؛ حتى يؤدي المؤمن صلاته كما ينبغي ولا ينقرها نقر الغراب استعجالاً للأكل.

ومن الأمور المعينة على الخشوع النظر إلى مكان السجود؛ لأنك بذلك تكون أكثر خشوعاً، وتفيد عينيك عن الحركة والانشغال بها يحيط بك، وتبعدهما عن النظر إلى السماء أو السقف، لأنه أمر منهي عنه، يقول ﷺ فيها رواه البخاري وغيره من حديث أنس: «ما بأل أقوام، يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم. فاشتدَّ قوله في ذلك، حتى قال: لَيَنْتَهَنَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ لَتُخَطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»^(٢).

ومن الأمور المعينة على الخشوع والمطلوبة في الصلاة عدم تحريك الأعضاء ومنها اليدين، وهما أكثر الأعضاء حركة، رأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»، فالخشوع ليس للقلب وحده، ولكن الجوارح أيضاً تخشع، يقول سبحانه: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، ويقول ﷺ في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ونخي وعظمي وعصبي»^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٧١) ومسلم (٥٥٧).

(٢) رواه البخاري (٧٥٠).

(٣) رواه مسلم (٧٧١).



هذه من أهم الأمور المعينة على الخشوع وأداء الصلاة كما ينبغي، فاجتهدوا يا عباد الله في أن تحققوا هذه الأمور؛ لأن الصلاة بلا خشوع كما يقول بعض أهل العلم جثة هامدة بلا روح، علينا أن نخشع في صلاتنا وأن نعي ونعلم ما نقول فيها حتى تنفعنا هذه الصلاة. لما سمع بعض السلف قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] قال: (كم من مصلٍّ لم يشرب خمرا هو في صلاته لا يعلم ما يقول؛ أسكرته الدنيا بهومها).

فاتقوا الله عباد الله، واستعينوا بكل ما يعينكم على أن تؤدوا صلاة مقبولة عند خالقكم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإيوان: علمنا فيما مضى أن الخشوع أمر عزيز عظيم القدر، علينا أن نسعى قدر طاقتنا حتى نحققه لنشعر بلذة العبادة ولننال ثوابها كاملاً بإذن الله، ولا يتحقق الخشوع كما قلنا إلا بمعرفة من نقف أمامه في صلاتنا، فإذا امتلأت قلوبنا بهيبته وخشيته تحقق لنا الخشوع شيئاً أم أبيضاً. علينا أن نوقن ونعتقد اعتقاداً جازماً أن الرب الذي نقوم له ونقدم له صلواتنا وعباداتنا هو الله سبحانه المتفرد بالعبادة وحده، وهو المتصرف في الكون وحده، وإليه وحده لا لغيره تصرف الأعمال والعبادات والقربات والندور، لا إله غيره ولا رب سواه، فإذا تأصلت هذه المعاني في النفس وتربعت على عرش القلب عندها سيعلم الإنسان وهو يتهيأ للصلاة أن الأمر جليل، وأن الخطب عظيم، وأن الموقف رهيب، فيخشع قلبه، وترق نفسه، ثم لا يلبث أن تصبح الصلاة عنده لذة لا يرتاح ولا تفر عينه إلا فيها، يقول ﷺ كما في سنن أبي داود من حديث أبي الجعد: «يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها»^(١).

هكذا كان حاله ﷺ مع الصلاة، فيها راحته وبها يأنس، ولا عجب في ذلك فهو القائل أيضاً فيما أخرجه النسائي عن أنس: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»^(٢)، كل ذلك لأنه ﷺ أقرب الخلق إلى مولاه، وأعلم الخلق بالله، كان خاشعاً لله، وجلا من الله، وهو أسوتنا ﷺ، فلا بد أن نحقق هذه المعاني العظيمة، وأن نعلم أنه لا إله إلا الله؛ لتعمر قلوبنا بحب الله ومحافته.

وحين نتأمل في قصص السابقين من العباد والصالحين نجد عجباً، فهذا مسروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كان يقوم فيصلي، كأنه راهب، وكان يقول لأهله: هاتوا كل حاجة، فاذا ذكروها لي، قبل أن أقوم إلى الصلاة. وكان يرخي الستر بينه وبين أهله، ويقبل على صلاته، ويخليهم وديانهم.

(١) صحيح أبي داود (٤٩٨٥).

(٢) صحيح النسائي (٣٩٥٠).



وكان بعضهم يشتد عليه جدًا أن يجد شيئاً من السرحان والضيعة في صلاته، فعن الحسن قال: سمعهم عامر بن عبد قيس، وما يذكرونه من أمر الضيعة في الصلاة؛ قال: (أتجدونه؟ قالوا: نعم؛ قال: والله، لأن تختلف الأسنة في جوفي، أحب إلي من أن يكون هذا مني في صلاتي). وكان الربيع بن خثيم إذا سجد: كأنه ثوب مطروح، فتجيء العصافير، فتقع عليه.

لقد كانت قلوبهم معلقة في الملاء الأعلى فما يشعرون بشيء مما يحدث حولهم، عن جعفر بن حيان قال: ذكر لمسلم بن يسار قلة التفاته في الصلاة، فقال: وما يدريكم أين قلبي؟

وعن حبيب بن الشهيد: (أن مسلم بن يسار كان قائماً يصلي، فوقع حريق إلى جنبه، فما شعر به، حتى طفئت النار). عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه: (أنه كان يصلي ذات يوم، فدخل رجل من أهل الشام، ففزعوا، واجتمع له أهل الدار؛ فلما انصرفوا، قالت أم عبد الله: دخل هذا الشامي، ففزع أهل الدار، فلم تنصرف إليهم أو كما قالت؛ قال: ما شعرت).

وعن شفي بن ماعع الأصبحي قال: (إن الرجلين ليكونان في الصلاة، مناكبهما جميعاً؛ ولما بينهما، كما بين السماء والأرض؛ وإنما ليكونان في بيت، صيامهما واحد؛ ولما بين صيامهما، كما بين السماء والأرض). عن أبي بكر بن الثوري قال: (لو رأيت منصوراً يصلي، لقلت إنه يموت الساعة. لشدة خشوعه!) وعنه قال: (لو رأيت منصور بن المعتمر، وعاصماً، والربيع بن أبي راشد في الصلاة، قد وضعوا لاهم على صدورهم؛ عرفت أنهم من أبرار الصلاة).

وعن أبي قطن قال: (ما رأيت شعبة ركع قط، إلا ظننت أنه قد نسي؛ ولا قعد بين السجدين، إلا ظننت أنه قد نسي. لخشوعه وطول صلاته). وعن سفيان الثوري قال: (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها).

وعن عاصم قال: سمعت شقيق بن سلمة - أبو وائل - يقول وهو ساجد: (رب اغفر لي، رب اغفر عني، إن تعف عني، فطولا من فضلك، وإن تعذبني، غير ظالم لي، ولا مسبوق) قال: ثم يبكي.

أيها الأحبة: إن هذا الخشوع لا يأتي دفعة واحدة، بل هو أمر يحتاج إلى دربة ومجاهدة، دون غفلة أو يأس، فبذلك ينال العبد الخشوع ويتذوق حلاوة العبادة ولذتها، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].



ومن وسائل وأسباب تحقيق الخشوع: الخوف من الله وخشيته، ومحبته ومهابته، واستحضار عظمته في القلب ورهبة الموقف بين يديه، والتذكّر بأنّ الصلّاة وقوفٌ بين يديّ الله وتكرار ذلك للنفس حتّى في غير وقت الصلّاة؛ للتّهيوّ لهذا الموقف. وقد قال بعض السلف: (من عظّم هذا الموقف بين يدي الله في الصلاة؛ هوّن الله عليه الموقف بين يديه يوم القيامة).

ومن ذلك: اتباع مبدأ الإحسان في جميع الأقوال والأفعال في الحياة اليوميّة، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك، فتعوّد وجود رقيب عليك يدفعك للخشوع في صلاتك واستحضار رقابته وأنت بين يديه.

ومن وسائل تحقيق الخشوع: تعويد النفس على أنّ الصلّاة ليست مجرد فرض يتم اسقاطه ببضع حركاتٍ دون شعورٍ أو تدبّرٍ، إنّما الصلّاة عمود الإسلام وآخر ما وصّى به الرّسول ﷺ وهو في سكرات الموت؛ فقد رُها عظيمٌ ولا يصحّ إسلام أحدٍ دونها؛ ثم إنها لم تُشرع مشقّةً، بل رحمةً وتطهيراً وتزكيةً للعبد، كما قال الله في آية الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

ومن أسباب الخشوع: تجنّب الصلّاة في أماكن الإزعاج كالصلّاة بقرب التلّفاز أو المذياع أو في مكان فيه ضوضاء ما لم تكن هناك ضرورة، والحرص على إغلاق الهاتف النقال أو جعله في وضعيّة الصامت وقت الصلاة؛ حتّى لا يتشتت التركيز والانتباه حين تأتيه مكالمة تشوش عليه وتفسد خشوعه، لا سيما وأن البعض تكون نغمته هاتفه صاحبة أو قد تكون نغمة موسيقى أو نحوها، مما لا يليق بالمسلم والمصلي سماعه.

ومن ذلك: تجنّب الصلّاة وقت الانشغال؛ فذلك مدعاةٌ لعدم خشوع القلب كالانشغال في عملٍ ما أو بكاء طفلٍ أو إعداد طعامٍ إلى غير ذلك، ويلحق بذلك الصلاة وهو حاقن يدافعه الأخبثان.

ومن ذلك: أداء الصلّاة في وقتها والاستعداد لها قبل دخول وقتها بالوضوء، والترديد مع المؤذن، وصلّاة ركعتي الوضوء إن أمكن، مع كثرة الذكر والاستغفار والتّهليل، فإن ذلك من أنفع الأمور التي تورث الخشوع والخشية، والتعوّد بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة لطرده



كُلُّ ما يخطر بالبال من الوسوس ومن أمور الدنيا ومتاعها، وكذا إلزام النفس بقراءة آيات القرآن بروية وسكينة، والتَّمَهَّل والتَّأَنَّى في الرُّكُوع والسُّجود. الإكثار من التَّوْبَة والاستغفار فيما بين الصَّلوات. ومن ذلك: قيام الليل؛ فإنه يُساعد على تليين القلب والخشوع في الصَّلاة والخوف من الله واستحضار الدار الآخرة، والتقرب إلى الله ومعرفته.

يقول ابن القيم في كتاب الفوائد: (إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة).

بمثل هذه المعاني الجميلة يتحقق الإيمان إخوة الإيمان، ويتحقق الخشوع الذي هو لب الصلاة وروحها، والذي هو أفضل ما عمرت به القلوب، لهذا تعوِّذ رسول الله من قلب لا خشوع فيه فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).

نسأل الله أن يرزقنا الخشوع، وأن يعيننا عليه، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك...



(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

الصلاة.. الصلاة (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله جعل الصلاة عماد الأديان، وبرهان صدق الإيمان، ونور المؤمن في الدنيا والآخرة، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْدُثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَرَجَ عَنِ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ففَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ زَمْزَمِ، ثُمَّ جَاءَ بِطِيسٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلِئَةٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِحَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكٌ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرَجَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قَالَ: قَلْتُ لَجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنِ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنِ

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قاله الأول ففتح، قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السادسة، قال أنس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم. قال النبي ﷺ: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت: قد استحيت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، فغشيتها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جناز اللؤلؤ، وإذا تراها من المسك»^(١).

في هذا المقام الشريف وفوق تلك السموات وبين أولئك الكرام من الأنبياء والملائكة عَلَيْهِ السَّلَامُ فرضت هذه الشعيرة العظيمة التي اختصها الله من دون غيرها بذلك، فلم ينزل بفرضيتها ملك من السماء، بل عرج بالنبي ﷺ إلى السماء ليتلقى الأمر بها من الله تعالى مباشرة، فأى منزلة تلك؟! وأي شأن ذلك لهذه الصلاة؟! ولذا كانت أول عمل يجاسب عليه العبد يوم القيامة، ولا غرابة حينئذ أن يقول ﷺ عنها: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٢).

(١) رواه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣).

(٢) صحيح النسائي (٣٩٥٠).

أيها الإخوة المؤمنون: إن مما يبين مكانة الصلاة ومنزلتها أنها ذكرت في القرآن الكريم في خمسة وستين موضعاً، منها قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

أما في السنة فقد تضافرت الأحاديث في شأنها، حيث ذكرت في مائة وثمانية وسبعين حديثاً، منها: قوله ﷺ: «اعلم أنك لا تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة وحط عنك بها خطيئة»^(١)، وقال ﷺ: «إن العبد إذا قام يصلي أتى بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه»^(٢)، بل تأمل قوله ﷺ: «تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود؛ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود»^(٣). والصلاة من أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ وأثقلها في موازين العبد يوم القيامة، قال ﷺ: «صلاة في إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»^(٤).

أيها المؤمنون: كلنا خطاؤون.. كم نقع في الذنوب؟ كم نقارف من الآثام؟ كم نعصي الله بأقوالنا وأفعالنا؟ ولكن من رحمة الله تعالى أن الصلاة تغسلها وتمحوها، كما جاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحترقون تحترقون أي: تقعون في الهلاك بسبب الذنوب الكثيرة فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا»^(٥)، وذات يوم خرج النبي ﷺ في الشتاء وورق الأشجار يتهافت، فأخذ بغصن من شجرة وقال: «يا أبا ذر، إن العبد المسلم ليصلي الصلاة يريد بها وجه الله فتهافت عنه ذنوبه كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة»^(٦).

(١) صحيح الجامع (١٠٦٩).

(٢) صحيح الجامع (١٦٧١).

(٣) صحيح ابن ماجه (٣٥٠٨).

(٤) صحيح الترغيب (٤٤٦).

(٥) صحيح الترغيب (٣٥٧).

(٦) صحيح الترغيب (٣٨٤).



أيها المؤمنون: إن دقائق العمر وساعات الحياة ثمينة، والرايح فيها من عمرها بالطاعة قبل فقد الاستطاعة، والله إن أعظم ما يفقده أهل القبور ويتمنونه هذه الصلاة، مرّ النبي ﷺ يوماً بقبر فقال: «من صاحب هذا القبر؟» فقالوا: فلان، فقال: «ركعتان أحب إلي هذا من بقية دنياكم»^(١).

إن من فقه هذا الأمر علم شأن الصلاة وعظم قدرها عند الله وعظم عنده أمر الآخرة فسعى إليها ووصل ليله بنهاره في طلب مبتغاه، وتأمل أحوال السلف الذين قدرّوا هذا الأمر حق قدره:

فهذا عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا متوضىء»، ومسروق بن الأجدع يقول: (ما بقي شيء يُرغب فيه إلا أن تعفر وجوهنا في التراب، وما أسى على شيء إلا على السجود لله تعاليج)، وكان زين العابدين علي بن الحسين يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات، بل كان حرصهم على الصلاة يفوق الوصف، يقول ولقد قال عنه الأوزاعي رحمه الله: (كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها لأحد من التابعين، لم تفتت صلاة الجماعة أربعين سنة). يقول سعيد بن المسيب: (ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد).

ويقول إبراهيم بن يزيد: (إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه)، بل بلغ من حرصهم على شهود الجماعة أن أحدهم وهو في سياق الموت يذهب به إلى المسجد، سمع عامر بن عبد الله بن الزبير المؤذن وهو يجود بنفسه فقال: (خذوا بيدي، فقيل: إنك عليل! فقال: أسمع داعي الله فلا أجيبه؟! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب، فركع ركعة ثم مات!).

فاتقوا الله عباد الله: واعرفوا عظم قدر الصلاة، واحرصوا عليها رحماني الله وإياكم، وأكثرُوا من التوبة والاستغفار، فإن الله يحب التوابين والمستغفرين والمنيين.

(١) صحيح الترغيب (٣٩١).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، عَظُمَ شأنه، ودام سلطانه، أحده سبحانه وأشكره، عم امتنانه، وجَزَلَ إحسانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، به علا منار الإسلام وارتفع بنيانه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن من أخطر الأمور التي تساهل فيها طائفة من الناس ترك الصلاة والتهاون فيها وتأخيرها عن وقتها، وتلك عياداً بالله دلالة الخسران والبوار وتشبه بالمنافقين الفجار الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩]، ولما ذكر الله تعالى أهل النار أخبر عن سبب عذابهم فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٤﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٣].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أوصاني خليلي ﷺ: «أن لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعَتْ وحُرِّقَتْ ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذممة ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر»^(١)، وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بين الرجل والكفر أو الشرك ترك الصلاة»^(٢).

ولقد هم النبي ﷺ أن يحرق بيوت المتخلفين عن الصلاة لولا ما فيها من النساء والذرية، وجاء في حديث الرؤيا الطويل من رواية سمرة بن جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «وإنا أتينا على رجل مضطجع وآخر قائم عليه بالصخرة فيبلغ رأسه فيتدهده الحجرها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى، وحين سئل عن هذا قيل له: هو الرجل يأخذ بالقرآن فيرضه وينام عن الصلاة المكتوبة»^(٣).

(١) صحيح ابن ماجه (٣٢٧٥).

(٢) رواه مسلم (٨٢).

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٧).



وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من ترك صلاةً واحدةً متعمداً فقد برئ من الله وبرئ الله منه»، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من سرَّه أن يلقي الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادى بهن، فإن الله شرع لنييكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف».

قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمداً من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر (مع عظم جرمها وأنها من الموبقات المهلكات)، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة، وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكتب إلى الآفاق: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه) اهـ.

وكم يأسى ويحزن المؤمن حين يرى فئاماً من المسلمين تضيق بهم أماكن اللهو واللعب وتغصُّ بكثرة من ينفد إليها من كل حذب وصوب، بينما تهجر بيوت الله التي قال الله فيها: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، ولو أعطي هؤلاء شيئاً من حطام هذه الدنيا ليشهدوا الصلاة لما تخلف عنها أحد ولم تكذب تسعهم المساجد والجوامع على كثرتها، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخلف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم. والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم أنه يجد عرفاً سمياً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»^(١).

(١) رواه البخاري (٦٤٤) ومسلم (٦٥١).



عباد الله: الصلاة الصلاة.. الصلاة نور.. الصلاة صلة بين العبد وربّه.. الصلاة مذهبٌ للأحزان، مطردة للهموم والغموم، جالبة للطمأنينة والسكينة والسرور، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]، داوموا عليها وعودوا عليها أبناءكم وأهليكم، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فإن ذلك يجلب رضى الله ومحبتة، وقد أثنى الله على إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرضى عنا، وأن يجعلنا ممن هم على صلاتهم دائمون، ومن الذين هم على صلاتهم يحافظون، وأن لا يجعلنا من الذين هم على صلاتهم ساهون، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة...



منزلة الصلاة في الإسلام^(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، سبحانه ربنا، لك الحمد والشكر والثناء، جعلت الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسلوى الطائعين، وقرّة عيون المؤمنين، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، ومصطفاه وخليته، أفضل البرية، وسيد البشرية، إمام المتقين، وقدوة المصلين الخاشعين، اللهم صلّ وسلم وبارك على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابة الغر الميامين، ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها المسلمون، اتقوا الله ربكم ربّ العالمين، وكونوا بدينكم مستمسكين، وعلى عموده محافظين، وفيه خاشعين خاضعين، تسلكوا سبيل المفلحين، وهذا وايم الله غاية العاملين.

معاشر المسلمين: الإنسان في خضم مشاغل الحياة الدنيوية، وما تفرزه الحضارة المادية من مشكلات نفسية، وتوترات عصبية، يحتاج حاجةً ملحةً إلى ما ينفس عن مشاعره، ويخفف من لأوائه ومصائبه، ويبعث في نفسه الطمأنينة القلبية، والراحة النفسية، بعيداً عن العُقد والاكْتئاب، والقلق والاضطراب. وهيئات أن يجد الإنسان ذلك إلا في ظل الإسلام وعباداته العظيمة، التي تمثل غذاءً روحانياً نافعاً، ودواءً نفسانياً ناجعاً، لا نظير له في الأدوية المادية.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



إخوة الإيمان: تحل بالأمة حوادث وبلايا، وتصاب بكوارث ورزايا، تشغلها عن قضاياها الأصلية، وثوابتها الشرعية، وتمرّ بالأمة المناسبات والمواسم، فتأخذ حقّها من التذكير والاهتمام، غير أن حديث المناسبة وكلّ مناسبة موسمٌ عظيم، ومنهل عذب كريم، يتكرر كلّ يوم خمس مرات، وكثير من الناس في غفلة عن تحقيق آثاره، والعناية بمكانته وأسراره، يقول ﷺ: «أرأيتم لو أن نهرًا عمّراً بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟!» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»^(١).

معشر المسلمين: إنه نتيجةً لارتقاء كثير من الناس في أحضان الدنيا، والتنافس المحموم في جمع حطامها، وانشغال القلوب والهمم بها، ونسيان المستقبل الدائم والدار الحقيقية، والغفلة عن العمل لها، في هذه الدوامه تناسى بعضهم مكانة هذه العبادة العظيمة، فلم يبالوا بها، ولم يكثرثوا بإقامتها، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩].

وصنف آخر يؤديها ولكن مع الوقوع في الزلل، والاستمرار في الخلل، يصلّون ولكن لا ترى آثار الصلاة عليهم، لا يتأدّبون بأدائها، ولا يلتزمون بأركانها وواجباتها، صلاتهم صورية عادية، لإخلالهم بلبها وروحها وخشوعها، يصلون جسديًا بلا روح، وبدنًا بلا قلب، وحركات بلا مشاعر وأحاسيس، صلاتهم مرتعٌ للشروء والوساوس، والسرّحان والهواجس، يأتي الشيطان أحدهم وهو في صلاته، فيجعله يصول ويجول بفكره في مجالات الدنيا، يتحرك ويتشاغل، يستطيل ويتثقل، ويلتفت بقلبه وبصره إلى حيث يريد، فينفتل من صلاته وهو لم يعقل منها شيئًا، بل لعلّ بعضهم لا يعقل منها إلا قليلًا، حتى إن بعضهم لو سألته عما قرأ الإمام في الصلاة الجهرية لم يدر، بل لو سألت البعض عما قرأه هو في صلاته لم يعرف لشدة شروءه وذهوله وقلة خشوعه وحضوره، وإذا كانت الصلاة هكذا فلا تسأل عن الأحوال، وسيئ الفعل، وقبيح الخصال، بعد الصلاة فحشٌ في القول، وإساءة في الفعل،

(١) رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).



وأكل للحرام، وتعسّف في الأخلاق، واجتراح للسيئات، وإصرار على المعاصي والمنكرات، وربما تساءل بعضهم: ألم يقل الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فأين نحن من هذه الآية؟! فنحن نؤدي الصلاة ولكن لا أثر لها في حياتنا، ولا ثمرة لها في واقعنا وتغيير أحوالنا، وتحسّن مناهجنا، وصلاح سائر جوانب حياتنا!!

إخوة العقيدة: إن الصلاة التي يريدتها الإسلام هي التي تمثل المعراج الروحي للمؤمن، حيث تسمو روحه كلما قام مصلياً في فريضة أو نافلة، منتقلة من عالم المادة إلى عالم العلو والصفاء، والطهر والنقاء، وفي ذلك مصدر السعادة والسرور، ومبعث الطمأنينة والحبور، وكان ذلك ديدن الأنبياء جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه، وهكذا كان الحبيب المصطفى القدوة، «إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»^(١)، ومعنى «حزبه أمر» أي: أصابه واشتد عليه.

أيها الأحبة: الصلاة غذاء القلوب، وزاد الأرواح، مناجاة ودعاء، خضوع وثناء، تذلل وبكاء، وتوسل ورجاء، واعتصام والتجاء، وتواضع لكبرياء الله، وخضوع لعظمته، وانطراح بين يديه، وانكسار وافتقار إليه، تذللّ وعبودية، تقرب وخشوع لجناب الربوبية والألوهية، إنها ملجأ المسلم، وملاذ المؤمن، فيها يجد البلسم الشافي، والدواء الكافي، والغذاء الوافي، إنها خير عدة وسلاح، وأفضل جُنّة وكفاح، وأعظم وسيلة للصالح والفلاح والنجاح، تنشئ في النفوس، وتذكي في الضمائر قوةً روحية، وإيماناً راسخاً، ويقيناً عميقاً، ونوراً يبدد ظلمات الفتن، ويقاوم أعتى المغريات والمحن، وكم فيها من الأسرار والحكم، والمقاصد والغايات التي لا يعقلها كثير ممن يؤديها، فما أعظم الأجر وأوفر الحظ لمن أداها على الوجه الشرعي، أخرج الإمام أبو داود في سننه أن رسول الله قال: «خمس صلوات افترضهن الله عزّ وجلّ، مَنْ أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وخشوعهن؛ كان على الله عهدٌ أن يغفر له»^(٢).

إخوة الإسلام: لا يخفى على كل مسلم بحمد الله مكانة الصلاة في دين الله، ومنزلتها في شرع الله، فهي عمود الإسلام، والفاصل بين الكفر والإيمان، وإذا كانت بهذه الأهمية

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٩).

(٢) صحيح الجامع (٣٢٤٢).



والخطورة، فإن الذي يجز في النفس، ويؤلم القلب أنه لا يزال في عداد المنتسبين إلى الإسلام من لا يرفع لها رأساً، ولا يرى في التهاون بها بأساً، ما بال أقوام يعيشون بين ظهرائي المسلمين قد خفّ ميزان الصلاة عندهم، وطاش معيارها، بل لربما تعدّى الأمر إلى ما هو أفضح من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهل ينتهي أولئك قبل أن يحلّ بهم سخط الله، وتعالجهم المنية وهم على هذه الحال السيئة؟!

أيها الإخوة المصلون: المداومون الخاشعون.. لَتَهَنِّكُم الصلاة، ويا بشرى لكم ما شرح الله له صدوركم من هذه الفريضة العظيمة، وهنيئاً لكم ثوابُ الله وفضله العاجل والآجل، لقيامكم بهذا الواجب الشرعي العظيم، ولكن يا أيها المصلون لتعلموا أن للصلاة المقبولة شروطاً وأركاناً، وواجبات وأدباً، لا بد من الوفاء بها، كما أن هناك مسائل مهمة وأخطاء شائعة، يحتاج المصلون إلى معرفتها، وقد ورد عند أحمد وغيره: «إن أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته»^(١)، وذلك بَعْدَ تمام ركوعها وسجودها وخشوعها، كما ورد عند أبي داود وغيره: «إن المصلي لينصرف من صلاته وما كُتِبَ له إلا ربعها، أو خمسها...» حتى بلغ عَشْرَهَا^(٢)، وهذا يدعو المسلم المصلي إلى أن يتنبه لشأن صلاته، حتى لا يخسر الثواب، ويؤء بالعقاب، متعهداً طهارتها وشروطها وأركانها وواجباتها، مجتهداً في الخشوع فيها، فهو لبها وروحها.

أمة الإسلام: لقد مدح الله المؤمنين وأثنى عليهم، ووصفهم بالخشوع له في أجلّ عباداتهم، ورتّب على ذلك الفوز والفلاح، فقال جل وعلا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (أي: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح) وقال ابن رجب: (وأصل الخشوع لين القلب ورقته، وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح، لأنها تابعة له)، وقد رأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده في الصلاة فقال: (لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه)، روي ذلك عن حذيفة

(١) صحيح الترغيب (٥٢٤).

(٢) صحيح أبي داود (٧٩٦).



وسعيد بن المسيب، ويُروى مرفوعاً لكن بإسناد لا يصح، وفي معنى الخشوع في الصلاة يقول علي بن أبي طالب: «هو الخشوع في القلب، وأن تُلين كنفك للمراء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك يميناً ولا شمالاً»، وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، قال: «خائفون ساكنون»، وعن الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (كان الخشوع في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح)، وقال ابن سيرين: (كانوا يغضون أبصارهم إلى موضع سجودهم)، وحكي عن مسلم بن يسار أنه كان يصلي في مسجد البصرة، فسقط حائط المسجد ففرع أهل السوق لهزته فما التفت، ولما هُتئ بسلامته عجب وقال: ما شعرت به.

الله أكبر، هذا هو هدي السلف الصالح رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، الذين كانت قلوبهم تستشعر رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى جميع الجوارح، وكل الحركات والملامح، ويغشى أرواحهم جلالُ الله وعظمته، وهم يقفون بين يديه، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، عندما يشتغلون بلذيق المناجاة للجبار جَلَّالَهُ، ويتوارى عن حسهم في تلك الحالة كل ما حولهم، فيتطهر وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة، وعندئذ تتضاءل الماديات، وتتلاشى جميع الدنيويات، وحينئذ تكون الصلاة راحة قلبية، وطمأنينة نفسية، وقرة عين حقيقية، كما قال النبي في الحديث الذي رواه النسائي وغيره عن أنس: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وعند أبي داود وغيره أن رسول الله قال: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»^(٢).

الله أكبر، إنها الراحة الدائمة للنفوس المطمئنة، لكي تشعر من خلال أدائها أنها تناجي من بيده ملكوت كل شيء، وأن المصلي حينما يكبر ويرفع يديه إنما هو تعظيمُ الله، وإذا وضع اليمنى على اليسرى فهو ذلٌّ بين يدي مولاه، كما قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (هو ذلٌّ بين يدي عزيز)، وإذا ركع فهو إقرار بعظمة الله، وإذا سجد فهو تواضعُ أمام علو الله، وهكذا يكون المسلم في صلاته، يوثق الصلة بمولاه، ليفوز بوعده الله الذي لا يخلف الميعاد، أخرج الإمام

(١) صحيح النسائي (٣٩٥٠).

(٢) صحيح أبي داود (٤٩٨٦).



مسلم في صحيحه عن عثمان عن النبي قال: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها؛ إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤت كبيرة، وذلك الدهر كله»^(١).

أيها الإخوة المصلون: إن المصلي حقاً من يقيم الصلاة كاملة الفرائض والأركان، مستوفية الشروط والواجبات والآداب، يستغرق فيها القلب، ويتفاعل من خلالها الوجدان، ويحافظ عليها محافظة تامة قدر الطاقة، يبعثه على ذلك قلب يقظ، وشعور صادق، وإحساس مرهف، وضمير حيّ، فينصرف بكليته إلى الصلاة؛ لأن الخشوع فيها إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عمّا عداها، وآثرها على غيرها.

ومنزلة الخشوع من الصلاة كمنزلة الرأس من الجسد، فالذي يجعل الصلاة مرتعاً للتفكير في أمور دنياه، ومحلاً للهواجس في مشاغله، قلبه في كل وادٍ، وهمه في كل مكان، يختلس الشيطان من صلاته بكثرة التفاته وعبثه بملابسه ويده ورجله وجوارحه، وربما أحلّ بطمأنينتها، ولم يع ما قرأ فيها، فيُخشى أن تُردّ عليه صلاته، وأن لا تُقبل.

أمة الإسلام: إنه لما طال بالناس الأمد، وقست قلوبهم، وأسأوا فهم شعائر الإسلام، أصبحت ترى من يُجَلّ ببعض شروطها الصلاة وأركانها وواجباتها، فلم تعمل الصلاة عملها في قلوب الناس، ولم تؤثر في حياتهم، فهناك من يؤديها ولكن لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، ولا تمنعه مما يندش العقيدة، أو يخالف السنة، أو يناقض مبادئ الإسلام، ولا تمنعه من تعاطي الربا، واقتراف الزنا والرشوة والغش، وشرب المسكرات وتعاطي المخدرات، والتساهل في حقوق العباد، والوقوعة في أعراضهم، وما إلى ذلك من المحرمات، فهل أولئك قد أقاموا الصلاة وأدوا حقها؟! والله لو فعلوا ذلك لانتهاوا عن كل محرم، وأقلعوا عن كل ما يخالف شرع الله، بدون مشقة أو عنت، ولكن الخلل في إضاعة جوهر الصلاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون الصلاة، ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيهم خاشعاً»، فالله المستعان.

(١) رواه مسلم (٢٢٨).



يا أمة محمد: ما هي حالنا اليوم مع هذه الفريضة العظيمة؟! أجساد تهوي إلى الأرض والأذهان غائبة، وأبدان تسجد بين يدي الله ولكن القلوب شاردة، وأفئدة متعلقة بالدنيا إلا من رحم الله، فهل من عودة صادقة أيها المسلمون المصلون إلى ترسُّم خطى المصطفى في هذا الفريضة العظيمة، وغيرها من فرائض الإسلام، لتعود للأمة قوتها وهيبتها بعد أن مُنيت بنكسة خطيرة، أفقدتها كثيراً من مقوماتها التي تجعلها متماسكة قوية، ألا ما أحرى الأمة وهي تتجرع غصص الهزائم أن تتحرى الأسباب والدوافع لتقوم بالتغلب عليها، وإنها واجدة في شعائر الإسلام -وأعظمها الصلاة- ما يكون سبباً في صقل الأفراد، وتهذيب المجتمعات وصلاح الأحوال، والقضاء على أسباب الضعف والهزيمة، وخوار الروح المعنوية في الأمة.

نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم والحرب تسقي الأرض جاماً أحمر
جعلوا الوجوه إلى الحجاز فكبروا في مسمع الروح الأمين فكبراً

فلنتق الله عباد الله في أمورنا عامة، وفي صلاتنا خاصة، فإن حظ المرء من الإسلام على قدر حظه من الصلاة، ولنفكر في حالنا: ماذا جنينا من جراء التهاون بشعائر الإسلام كلها، لا سيما الصلاة؟! إن أمة لا يقف أفرادها بخضوع وخشوع بين يدي الله في الصلاة لطلب الفضل والتوفيق منه لجديرة ألا تقف ثابتة في مواقف الصمود والنصر والقوة، لأن هذه كلها من عند الله وحده، فإذا أصلحنا ما بيننا وبين الله أصلح الله ما بيننا وبين الناس، وإن أمة لا يُعفّر أبناؤها وجوههم في التراب ويمرغون جباههم في الأرض تعظيماً لخالقهم وإعلاناً للعبودية التامة له، لحرية أن لا تثبت أمام التحديات والمتغيرات، وأن تذوب في خضم المغريات والابتلاءات، وسيول المحن والبلايا، وأن تغرق في مستنقعات الفتن والرزايا، وإن مردّ تردّي كثير من الأوضاع في شتى البقاع راجع لتردّي أبنائها في أودية المخالفات، وعدم القيام بما هو من أوجب الواجبات، ألا وهو الصلاة، فإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المسؤول أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، ويرزقهم الفقه في دينه والبصيرة فيه، وأن يجعلهم محافظين على شعائر دينهم، معظمين لها، قائمين بعمودها على خير وجه إنه جواد كريم.



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بهدي سيد المرسلين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي جعل لكل شيء عمادًا، وجعل الصلاة لنا ذخراً وزادًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده فلا شركاء له ولا أندادًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أكمل الأمة إيمانًا وصلاةً وأعظمها عبادةً وجهادًا، صلى الله وسلم وبارك عليه، صلاةً وسلامًا تامين متلازمين لانحصيها أعدادًا، وعلى آله وأصحابه إلى يوم يُبعث الناس زرافات وأفرادًا.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، وعظموا شعائر دينكم، واستحضروا فيها عظمة بارتئكم جل وعلا، وفرغوا قلوبكم من الشواغل الدنيوية والعلائق المادية، وأقيموا صلاتكم بقلوب حاضرة خاشعة.

لقد كان الصحابة والتابعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، يستغرق الواحد منهم في الصلاة فيُطيلها جدًا لما يجد من لذة وحلاوة، بل يستغرق في الآية الواحدة خشوعًا وتدبرًا فيكررها حتى ما يكاد يجاوزها إلى غيرها، قال القاسم بن محمد بن أبي بكر: «غدوت يوما وكنت بدأت بعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أسلم عليها فإذا هي تصلي الضحى وتقرأ ﴿فَمَنْ لَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ [الطور: ٢٧]، وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقممت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد وتبكي وتدعو».

وكان العنيس بن عقبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يسجد حتى تقع العصافير على ظهره فكأنه جدم حائط. وهذا حبيب بن أبي ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما يسجد يقول عنه أبو بكر بن عياش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (فلو رأيت قمت ميت، -يعني من طول السجود-).

ورؤي الثوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحرم عندما صلى المغرب سجد سجدة فلم يرفع حتى نودي للعشاء.

وهذا أبو عبد الله البناجي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يصلي بالناس فيصاح بالنفير فلا يخفف الصلاة، فلما فزعوا قالوا: (أنت جاسوس، قال ولم؟ قالوا صيح بالنفير وأنت لم تخفف؟ قال: ما حسبت أن أحدا يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطبه به الله عَزَّوَجَلَّ).



كان الإمام البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ يَصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور في ظهره سبع عشرة مرة، فلما قضى الصلاة قال: (انظروا ما هذا الذي آذاني).

وسئل خلف بن أيوب رَحْمَةُ اللَّهِ: ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطرده؟ قال: (أريد أن أعود نفسي أن لا يفسد عليّ شيء في صلاتي، قالوا وكيف تصبر؟ فقال: لقد بلغني أن الفساق يصبرون تحت الأسواط في السجن فيقال: فلان صبور، فيفتخرون بذلك، وأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابه ولا أصبر!).

أيها الأحبة: إن من أعظم ما يعين على الصلاة الخاشعة حضور القلب فيها، واستشعار عظمة الخالق جل وعلا، وتفرغ القلوب من الصوارف والشواغل عن الله والدار الآخرة، والتخفف من مشاغل الدنيا، وعمارة القلوب بالإيمان، وسد مداخل الشيطان على الإنسان. ومما يعين على ذلك أيضًا: قصر النظر على موضع السجود، ووضع اليد اليمنى على اليسرى حال القيام، والتدبر فيما يُقرأ من القرآن، وفيما يُردّد من الأدعية، وعدم الالتفات، ومراعاة الطمأنينة، والحذر من العجلة ومسابقة الإمام، والعبث والحركة، كل ذلك مع توفيق الله عزَّوجَلَّ من الأسباب التي تعين المسلم على إقامة الصلاة كما شرع الله، وكما سن رسولهُ.

أيها الإخوة في الله: إن من الظواهر الجديرة بالمعالجة، والتي لها أثر كبير في انصراف المصلين عن الخشوع في الصلاة ما قذفت به المدنية المعاصرة من وسائل الاتصال الحديثة، كالهواتف المتنقلة التي بلي بها كثير من الناس، فيصطحبوننا في صلواتهم ومساجدهم، مع نغمت صاحبة، تسبب أذى وإزعاجًا للمصلين، فأى خشوع عند هذا المصلي عفا الله عنه الذي يقطع حلاوة إقباله على ربه، ويشوش لذيذ مناجاته لخالفه، ويفسد خشوع المصلين من حوله؛ رنين هاتفه المتكرر؟! فيشغل نفسه ويؤذي غيره، فهل هؤلاء الذين جاؤوا إلى المسجد مصطحبين هذه الأجهزة مفتوحة، هل جاؤوا مصلين أم ماذا؟! فليتيق الله أولئك في صلواتهم، وليحذروا من إيذاء إخوانهم المصلين، فذلك انتهاك حرمة بيوت الله، والراغب حقًا في الثواب والأجر، والحريص على الخير والبر، يتنبه جيدًا لمثل هذا، ومتى علم الله من عبده الرغبة في الخير وفقه له وأعانته عليه، ولو أن المسلمين اليوم أدوا هذه الصلاة كما سن رسول الله ﷺ لكانت بتوفيق الله انطلاقة جادة لإصلاح أوضاعهم، وتغيير أحوالهم، وسلامة

مجتمعاتهم، وطريقاً إلى النصر على أعدائهم، وتحقيق ما يصبون إليه في دنياهم وأخراهم؛ لأن في تطبيق شعائر الإسلام السلاح القوي والدرع الواقي من كل مكروه بإذن الله، لأن الدافع إليه قوة الإيمان، وصدق اليقين، والشوق إلى الآخرة.

ألا فاتقوا الله عباد الله: واحرصوا على إقامة صلاتكم؛ فإنها نور لكم في الأرض وذخر لكم في السماء، وإن المتأمل في آيات التنزيل ليجد أن الأمر بالصلاة يأتي دائماً بأسلوب الإقامة، وفي ذلك معنى زائد على مجرد الأداء، لأن الإقامة تعني الإتمام والعناية، وإن مسؤولية المصلين لعظيمة بالنسبة لأنفسهم، تعاهداً لها، وعناية بها، وبالنسبة لغيرهم من معارف وأقارب وأبناء وجيران، من حيث أمرهم ونصحهم في هذا الموضوع المهم كما قال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وعلى أئمة المساجد دور كبير في ذلك لأنهم يضطلعون بمهمة كبرى، فعليهم أن يقوموا بها عناية في أنفسهم، وتفقيهاً لإخوانهم بأحكامها وحكمها، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

ولا بد من تحقيق التعاون بين الأئمة والمؤمنين، وذلك بقيام كل برسالته، لتحقيق النتائج المرجوة بإذن الله.

هذا وصلوا وسلموا رحمكم الله على خير من أقام الصلاة، صاحب المقام المحمود والحوض المورود، واللواء المعقود، كما أمركم بذلك الرب المعبود، فقال تعالى قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا وحبينا وقدوتنا محمد بن عبد الله...



(١) رواه البخاري (٦٣١).

كيف تحافظ على صلاتك^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي فرض الصلاة على العباد رحمة بهم وإحساناً، وجعلها صلة بينهم وبينه ليزدادوا بذلك إيماناً، وكررها كل يوم حتى لا يحصل الجفاء، ويسرها عليهم حتى لا يكون فيها تعب وعناء، وأجزل لهم ثوابها؛ فكانت بالفعل خمساً، وبالثواب خمسين؛ فضلاً منه وامتناً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خالقنا ومولانا، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أخشى الناس لربه سراً وإعلاناً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً.

أما بعد:

عباد الله: اتقوا الله تعالى، واعلموا أن من أعظم شعائر الإسلام ومزايه العظام الصلاة، هذه الشعيرة التي قد خف ميزانها اليوم عند كثير من الناس؛ فأصبحوا لا يؤدونها إلا في النادر - عياداً بالله - اتباعاً للشيطان، ومجاعة لهوى النفس الأمارة بالسوء، واقتداءً بمن قلَّ خوف الله وهيبته في قلوبهم، وإنها لخسارة كبيرة أن نرى أعداداً كثيرة وجموعاً غفيرة من الناس في مجتمع المسلمين لا يبالون بالصلاة، ولا يرتادون المساجد وهم يسمعون المنادي يدعوهم بأعلى صوته، ويقول لهم: (حي على الصلاة.. حي على الفلاح) فيعرضون عنه، وهم يقولون بلسان حالهم، وإن لم يقولوا بلسان مقالهم: لا نريد الصلاة، ولا نريد الفلاح! ولو علموا ما فيها لما ولوا مدبرين، ولما انصرفوا عنها معرضين.

يقول عثمان رضي الله عنه: والله لأحدثكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه، ثم يصلي الصلاة إلا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها»^(٢).

(١) محمد بن سليمان المحيبي.

(٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٧).



ويقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من سره أن يلقي الله غداً مسلماً؛ فليحافظ على هذه الصلوات الخمس حيث ينادى بهن؛ فإن الله قد شرع لنيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصلوة»^(١).

وما ذاك إلا لإحساسهم بعظمتها، ومعرفتهم بمنزلتها ومكانتها عند الله سبحانه؛ إذ هي أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة، كما ورد بذلك الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»^(٢).

ويقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة)^(٣).

فاعرف نفسك يا عبد الله! واحذر أن تلقى الله عَزَّ وَجَلَّ ولا قدر للإسلام عندك؛ فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة فيه.

يقول أحد العلماء: (إن العبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه لقيامه أعظم قيام الله وأقربه، وأغبطه للشيطان وأشدّه عليه؛ لذا فإنه يجتهد كل الاجتهاد على إفساد صلاته، فيخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي حاجته، وأيس منها، فيذكره إياها في الصلاة؛ ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فينصرف من صلاته مثلما دخل فيها بخطاياها وبذنوبه وأثقاله؛ لأن الصلاة إنما تُكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله بقلبه وقالبه، فهذا هو الذي إذا انصرف منها وجد خفة في نفسه، وأحس بأنقال وضعت عنه؛ فيجد نشاطاً وراحة، وقرّة عين؛ لذلك المحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلواتنا، كما قال إمامهم وقودتهم رسول

(١) صحيح مسلم، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى (١/٤٥٣)، رقم (٦٥٤).

(٢) الترمذي رقم (٤١٣) وصححه الألباني.

(٣) رسالة الصلاة للإمام أحمد (١٥).



الله ﷻ: «أرحنا بالصلاة يا بلال»^(١)، ولكن من الناس اليوم من يقول: أرحنا من الصلاة يا إمام، نسأل الله العافية).

عباد الله: إن للصلاة فضائل ومزايا لا توجد في غيرها من الأعمال؛ فهي أول ما فرض الله بعد الشهادتين، وهي التي فرضت في السماء حينما عُرج برسول الله ﷺ إليها؛ وذلك لأهميتها، وهي أكثر الفروض ذكراً في القرآن، وهي شعار النبيين، وصفة المتقين، وبها أوصى النبي أمته قبل خروجه من الدنيا، وهو وفي سياق الموت، فقال عليه الصلاة والسلام: «الله الله في الصلاة، وما ملكت أيمانكم»^(٢)، وإنها آخر وصية كل نبي لأُمَّته، وآخر عهده إليهم عند خروجه من الدنيا، كما أنها سبب لتسهيل عسر الموقف في الحشر، وتخفيف الحساب في دار المآب، وسبب لغرس الصدق والأمانة في النفوس، وسبب لمحبة الله، وإجابة دعوته، وشفاعة نبيه ﷺ، وسبب لتكفير ذنوبه، ومحو سيئاته.

أيها المسلمون: اعلموا أن الصلوات الخمس سبب لتكفير الذنوب الصغائر، وأما الذنوب الكبائر، كأكل الربا، والكذب، والغش في المعاملات، وشهادة الزور، والظلم، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وغير ذلك إنما يكفره الله تعالى بالتوبة إليه فقط؛ فاتقوا الله عباد الله، وتوبوا إليه، وحافظوا على الصلاة مع الجماعة في المساجد؛ لتكونوا من المؤمنين المهتدين، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) مسند أحمد (٣٤٦/٥)، رقم (٢٣١٣٧).

(٢) ابن ماجه (١٦٢٦)، ومسند أحمد (٢٦٥٢٦).



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي جعل الصلاة ثانية أركان الإسلام، وأمر بإقامتها والمحافظة عليها على الدوام، وأخبر أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر والآثام، أحمده سبحانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأنام، وخير من صلى وصام، اللهم صل عليه وعلى آله وصحابه الكرام، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم التمام.

أما بعد:

أيها الإخوة في الله: لقد تساهل كثير من الناس بأمر الصلاة، فمنهم من تركها بالكلية - عياداً بالله - من ذلك، ومنهم من لا يصلّيها إلا في رمضان، ومنهم من لا يصلّي إلا الجمعة فقط، ومنهم من يصلّيها ولكن صلاة صُورية لا حقيقية، وعادة اتخذها لا عبادة يتقرب بها، ولذلك لا نجد للصلاة أثراً في كثير من هؤلاء؛ إذ إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهؤلاء - أعني بهم الذين يصلونها صلاة شكلية - لم تؤثر فيهم صلاتهم، ولم تنههم عن فحشائهم ومنكرهم، وهذا عائد إلى عدة أمور:

الأمر الأول: عدم الخشوع فيها:

فبعض الناس هدامهم الله أجسامهم في المصلي، وقلوبهم في كل واد يجولون ويفكرون في كل شيء، حتى في الأمور التي لا مصلحة لهم فيها، وهذا ينقص الصلاة نقصاً كبيراً، وهو الذي يجعلها قليلة الفائدة للقلب، وقليلة الثواب والأجر، فيخرج المصلي من مصلاه ولم تزد صلواته إيماناً ولا نوراً كما ينبغي، وما ذاك إلا لأن الخشوع هو روح الصلاة ولبها؛ فصلاة بلا خشوع كجسد بلا روح، وقشور بلا لب، كما جاء عن عمار بن ياسر قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ تُسَعُّهَا ثُمَّهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا حُمُسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا» (١).

(١) سنن أبي داود: (٦٧٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٦٢٦).



الأمر الثاني: عدم الطمأنينة فيها:

فبعض الناس ينقرها نقر الغراب لا يطمئن فيها، ولا يذكر الله إلا قليلاً، ولقد حذر الله سبحانه على لسان رسوله من هذا الفعل القبيح، كما ورد في الحديث: أن النبي ﷺ صلى بأصحابه، ثم جلس في طائفة منهم؛ فدخل رجل فقام يصلي، فجعل يركع وينقر في سجوده، ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فقال: «ترون هذا! لو مات ل مات على غير ملة محمد، ينقر صلاته كما ينقر الغراب الدم»^(١).

وقد جعل رسول الله ﷺ لص الصلاة شرًا من لص الأموال وسارقها، فقال ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالوا: يا رسول الله! كيف يسرق صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها»^(٢)، فصرح النبي ﷺ بأن الذي لا يتم صلاته، ولا يطمئن فيها، أسوأ حالاً من سارق الأموال، ولا ريب أن لص الدين شر من لص الدنيا.

ولقد بين النبي ﷺ بطلان من لا يطمئن في صلاته، وذلك بقوله للرجل الذي لم يطمئن في صلاته: «ارجع فصل؛ فإنك لم تصل»^(٣)، فكررها عدة مرات، والنبي يعيد عليه هذه الكلمة، حتى علمه النبي ﷺ وأمره بالطمأنينة.

الأمر الثالث: مسابقة الإمام:

مسابقة الإمام مما تخل بالصلاة خللاً عظيماً، ولقد ابتلي كثير من المصلين بهذه الخصلة السيئة، فكثير منهم ما إن يبدأ الإمام بالتكبير إلا وتراه سابقاً له أو متساوياً معه، بل إن بعضهم عندما يهوي الإمام مثلاً للسجود تراه يصل إلى الأرض قبله، وهكذا في الركوع والرفع منه، وفي هذا يقول الإمام أحمد: (ليس لمن سبق الإمام صلاة)^(٤).

(١) ابن خزيمة، باب إتمام السجود والزجر عن انتقاصه وتسمية المنتقص ركوعه وسجوده سارقاً أو هو سارق من صلاته (١/٣٣٢)، رقم (٦٦٥)، والبيهقي، باب إدراك الإمام في الركوع (٢/١٨٩)، رقم (٢٤٠٦).

(٢) صحيح الترغيب (٥٢٤).

(٣) رواه البخاري (٧٢٤)، ومسلم (٣٩٦).

(٤) رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ١٤).



وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أما يخاف الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار»^(١)، ويقول البراء بن عازب: «كنا خلف النبي ﷺ، فكان إذا انحط من قيامه للسجود لا ينجني أحد منا ظهره، حتى يضع النبي جبهته على الأرض»^(٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (أما مسابقة الإمام فحرام باتفاق الأئمة الأربعة). ولقد ضرب ابن عمر رجلاً يسابق الإمام، وقال: «لا وحدك صليت، ولا بإمامك اقتديت»^(٣). وأنت يا أخي! خرجت إلى الصلاة تبغي وجه الله بذلك، وتعلم أنك لم تتصرف من الصلاة إلا بعد إمامك، سواء سابقت أو لم تسابق؛ فعليك بالانتظار والاطمئنان حتى تكتب من الخاشعين.

الأمر الرابع: كثرة الحركة في الصلاة:

وهو الذي قد فشا وطم وعمت به البلوى؛ فأصبح الكبير والصغير، والمتعلم والجاهل فيه سواء -إلا من رحم الله- ألا وهو كثرة الحركة في الصلاة، حتى إنك في بعض الأحيان تشاهد الرجل يصلي فلا تظن أنه يصلي من كثرة حركته، فتارةً يعبث في غترته، وتارةً في ثوبه، وتارةً ينظر في ساعته، أو في هاتفه، وتارةً يقدم رجله اليمنى ويؤخر اليسرى، ثم لا يلبث أن يعكسهما، وبعضهم يضيف إلى ذلك فرقة أصابعه.. تساهل، واستهتار، واستخفاف بالصلاة، وجهل بحقيقتها.

لقد امتدح الله عباده المؤمنين وذكر أول صفة نالوا بها الفلاح فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿[المؤمنون: ١-٢] قال ابن عمر: «كانوا إذا قاموا في الصلاة أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يقبل عليهم، فلا يلتفتون يمينا ولا شمالا».

(١) صحيح البخاري، باب إثم من رفع قبل الإمام (١/٢٤٥)، رقم (٦٥٩)، وصحيح مسلم، باب تحريم سبق الإمام برُكُوع أو سُجُودٍ وَنَحْوَهُمَا (١/٣٢٠)، رقم (٤٢٧).
 (٢) رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ١٥).
 (٣) المصدر السابق (١٦)، وعمدة القاري (٥/٢٢٤).



وقد رأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده في الصلاة فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه).

وكان عبد الله بن الزبير إذا قام في الصلاة فكأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جذعاً أو حائطاً أو خشبة منصوبة لا تتحرك.

وعن ميمون بن حيان قال: (ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاته قط، خفيفة ولا طويلة؛ ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع أهل السوق لهدمه، وإنه لفي المسجد، في الصلاة؛ فما التفت).

وعن عبد الله بن عون قال: (رأيت مسلم بن يسار يصلي، كأنه وتد، لا يميل، على قدم مرة، ولا على قدم مرة؛ ولا يتحرك له ثوب. وكان إذا دخل منزله سكنت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلموا، أو ضحكوا، أو علمًا منهم بأن قلبه مشغول عنهم، وكان يقول: إلهي، متى ألقاك وأنت راضي).

وعن الأعمش قال: كان إبراهيم التيمي إذا سجد تجيء العصافير تستقر على ظهره كأنه جذم حائط.

فأين نحن من هؤلاء؟ وإنهم لم يبلغوا ما بلغوه دفعة واحدة، بل مع دوام الاستعانة والمجاهدة، فمن صدق مع نفسه ترقى إلى مراتب الكمال في العبادات والعادات والآداب والمعاملات، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الأمر الخامس: عدم تسوية الصفوف وعدم تسديد الفرج:

فقد تساهل به البعض، حتى صار لا يهمله إلا أن يقف في الصف فقط، أما كونه متقدم أو متأخر أو بينه وبين أخيه مسافة فهذا ليس عنده بشيء، وقد قال رسول الله ﷺ: «أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفًا وصله الله، ومن قطع صفًا قطعه الله»^(١).

(١) سنن أبي داود، تَفْرِيعِ أَبْوَابِ الصُّفُوفِ بَابِ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ، (١/١٨٧)، رقم (٦٦٦).



وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يَتَمَوَّنُونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»^(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَوُوا صُفُوفَكُمْ؛ فَإِنْ تَسَوَّى الصُّفُوفُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ»^(٢).

ويقول الرسول ﷺ: «لَتَسَوُونَ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيُخَالَفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجْهِكُمْ»^(٣). فهذه الأحاديث كافية بالأمر بتسوية الصفوف وتعديلها، ودالة على اهتمام الرسول وصحابته بها، فعلينا الاقتداء بنبينا ﷺ وأصحابه.

الأمر السادس: إيذاء المصلين برائحة لا تليق كأكل الثوم والبصل:

البعض قد لا يتنبه لهذه المسألة ولا يشعر بها إلا حينما يتأذى بها من غيره، ومن الآداب الشرعية والأخلاق المرعية أن يحرص الإنسان على طيب رائحته في أي مكان يكون فيه، ومع أي شخص يجلس معه، فكيف إذا كان ذلك في خير البقاع، وعند الوقوف بين يدي الله، لأداء أعظم فرائض الله!

لهذا فقد نهى النبي ﷺ من أكله ثوماً أو بصلاً أن يحضر المسجد، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ؛ فَلَا يَقْرَبْنَا، وَلَا يَصِلِينَ مَعَنَا»^(٤).

(١) صحيح مسلم، باب الأُمُرُ بِالسُّكُونِ فِي الصَّلَاةِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ وَرَفْعِهَا عِنْدَ السَّلَامِ وَإِتْمَامِ الصُّفُوفِ الْأُولَى وَالتَّرَاضُ فِيهَا وَالأَمْرُ بِالْإِجْتِمَاعِ (٣٢٢/١)، رقم (٤٣٠).

(٢) صحيح البخاري، باب إثم من لم يتم الصف (٢٤٥/١)، رقم (٦٩٠)، ومسلم، باب تسوية الصفوف وفضل الأول فالأول (٣٢٤/١)، رقم (٤٣٣).

(٣) صحيح البخاري، باب تسوية الصفوف عند الإقامة (٢٥٣/١)، رقم (٦٨٦)، ومسلم، باب تسوية الصفوف وفضل الأول فالأول (٣٢٤/١)، رقم (٤٣٦).

(٤) صحيح البخاري، باب ما جاء في الثوم النبىء وَالبَصَلِ وَالكُرَّاثِ (٢٩٣/١)، رقم (٨١٨)، ومسلم، باب نَهْيِ مَنْ أَكَلَ ثَوْماً أَوْ بَصَلاً أَوْ كُرَّاثاً أَوْ نَحْوَهُمَا (٣٩٤/١)، رقم (٥٦٢).



وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «من أكل ثومًا أو بصلاً؛ فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا»^(١)، وفي رواية لمسلم: «من أكل الثوم والبصل والكراث؛ فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم»^(٢). ويقاس على ما ذكر كل ذي ريح كريه كالمدخان ونحوه، وهذا كله من محاسن الإسلام وحرصه على تألف الناس، وإبعاد كل ما من شأنه تنفيرهم، أو تفريق جموعهم.

الأمر السابع: التشويش على الناس بنغمات الهواتف:

هذه ظاهرة حديثة، ومخالفة شاعت، وأخطاء تكررت، فإن البعض من الإخوة وفقهم الله، قد يضعون هواتفهم نغمات موسيقية لا يقرها الشرع، ولا تليق بالمسلم العاقل، ثم يضيفون إلى ذلك أن تكون هواتفهم مفتوحة وقت الصلاة، فإذا داهمهم أحد باتصال، تشوش بذلك خشوعهم وخشوع المصلين معهم؛ وأصبحوا في موقف حرج وحالة لا يُحسدون عليها، نتيجة تلك الاتصالات التي كانت بمثابة مُشغل لتلك الأغاني والنغمات الصاخبة.

وإن من اللائق بالمسلم أن يضع لهاتفه عبارة عن منبه ينبهه فقط إلى ورود مكالمته، لا أن تكون كما لو أنه يفتح حفلة غنائية كلما جاءته مكالمته لكونه يجب سماع تلك الأغنية أو الموسيقى مرارًا.

ثم إن من توقير الصلاة وتعظيم شعائر الله أن يضع أحدنا هاتفه على الوضع الصامت من حين دخوله إلى المسجد، ومن نسي ذلك، فالآن، ولا يستحي أحد من الخطأ، فكلنا ذوو خطأ ونسيان، لكن الرجوع إلى الحق خير من التهادي في الباطل.

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن يزعم غيره في المسجد بقراءة القرآن: «يا أيها الناس كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة فتؤذوا المؤمنين»^(٣). فكيف بالكلام؟

(١) صحيح البخاري، باب ما جاء في الثوم النبىء وَالْبَصَلِ وَالْكَرَاثِ (١/٢٩٢)، رقم (٨١٧).

(٢) صحيح مسلم، باب نَهَى مِنْ أَكَلِ ثُومًا أَوْ بَصَلًا أَوْ كُرَّاثًا أَوْ نَحْوَهُمَا (١/٣٩٥)، رقم (٥٦٤).

(٣) أبو داود وصححه الألباني.



أيها الإخوة: هذه خصال ذكرناها؛ بعضها يبطل الصلاة، وبعضها ينقص أجرها وثوابها؛ فاجتنبوها رحمكم الله، وجعلنا الله جميعاً من المصلين المفلحين.

صلوا وسلموا على خير عباد الله؛ فقد أمركم الله بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]..



صفة الصلاة (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرع لعبادة الشرائع وأكملها، وبين لهم حدودها وفروضها وسننها، لم يترك عباده في حيرة من أمرهم ولا نقص من دينهم، بل بين لهم الدين وأتم عليهم النعمة، فلم يمت نبيه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فله الحمد والنعمة والفضل والمنة، وأشهد إلا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً؛ فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أما بعد:

فيا عباد الله: ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى ذات يوم على المنبر، فكان إذا أراد أن يسجد نزل إلى الأرض ثم سجد عليها، فلما فرغ قال عليه الصلاة والسلام: «إنما فعلت ذلك لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي»^(٢). وقد أمر عليه الصلاة والسلام كما عند البخاري أن نصلي كصلاته ﷺ فقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٣).

ينبغي على المسلم أولاً أن يتعلم ويحسن صفة الوضوء، فإذا أحسن المسلم وضوءه فإنه يستقبل القبلة، وقبل أن يكبر تكبيرة الإحرام عليه أن لا يتلفظ بأي قول، فما يُسمع من بعض

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) صحيح أبي داود (١٠٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٣١).



المؤمنين حينما يفرغ المؤذن من الإقامة من قول: توجهنا إلى الله، أو اللهم اجعل لنا منها حظاً ونصيباً، أو ما شابه ذلك، لم يرد عن رسول الله ﷺ.

فيكبر تكبيرة الإحرام قائلاً: «الله أكبر». وعليه أن يستحضر معناها، «الله أكبر» أي من كل شيء، بمعنى أن ما في ذهني أو ما في كياني من الدنيا من الهموم ومن الأحزان تتلاشى؛ لأن الله عز وجل أكبر من كل شيء، ولذا عليه الصلاة والسلام كما عند أبي داود إذا حزبه أمر قال: «أرحنا بها يا بلال»^(١)، بينما الواحد منا لو جاءه أمر يُثقله أو همٌّ يقلقه فإن الصلاة تكون عليه ثقيلة، بينما حال النبي ﷺ ليس كذلك؛ لأنه يعلم أن الله عز وجل أكبر من كل شيء.

فيكبر تكبيرة الإحرام، والسنة له في مثل هذا الموطن أن يرفع يديه مضمومتي الأصابع إما حذو منكبيه وإما حيال أذنيه، ورد هذا وورد هذا، وإن فعل المسلم ما ورد عن النبي ﷺ من وجوه متنوعة، لو فعل ذلك مرة ومرة فعل الأخرى لكان أفضل وأحسن، وأما ما يفعله البعض من كونه يضع إبهاميه عند شحمة أذنيه، فإن هذا قد جاء في سنن أبي داود لكنه حديث ضعيف، وأما السنة كما أسلفتُ إما أن يكون الرفع حذو منكبيه أو حيال أذنيه، وتكون الأصابع مضمومة، ويستحضر المسلم بأن هذا الرفع زينة للصلاة، وأنه تعظيم لله عز وجل تعظيماً فعلياً، فإنه لما عظم الله سبحانه وتعالى بقول: «الله أكبر»، فإنه ذكر نفسه بتعظيم فعلي، وذلك بأن يرفع يديه، وليعلم أيضاً أن الرفع إيذان بأنه أحرم في الصلاة، وأنه دخل في مناجاة الله عز وجل، إلى غير ذلك من الحكم التي ذكرها العلماء في استحباب رفع اليدين.

والرفع -عباد الله- إما أن يكون مع التكبير، فيكون الرفع مقارناً للتكبير، وإما أن تبدأ بالرفع ثم تقول: «الله أكبر»، أو تقول: «الله أكبر» ثم ترفع يديك، كل هذا وارد، فهذه الصفات الثلاث واردة عن النبي ﷺ، فلو فعلها المسلم أحياناً وأحياناً، مرة هذه ومرة تلك فهذا خير عظيم.

فإذا رفع يديه مع التكبير أو قبل التكبير أو بعد التكبير فإن السنة في حقه أن يضع يده اليمنى على يده اليسرى على صدره في الصلاة، وليس المقصود أن يُبالغ في هذا مثل ما يفعل

(١) صحيح أبي داود (٤٩٨٥).

البعض، ربما يرفع يديه إلى أن يصل إلى حنجرته، كلا، الصدر محيطه واسع، وإنما يكون في الوسط، تكون اليدين اليمنى على اليسرى على الصدر في الوسط، وما يفعله البعض من جعل اليمنى على اليسرى جهة الصدر الأيسر باعتبار أن القلب فيها فهذا ليس واردًا عن النبي ﷺ، وشرع الله لا يخضع للاستحسانات ولا للآراء، وإنما يكون اتباعًا واقتداءً وتأسياً برسول الله ﷺ.

والسنة في حق المسلم أنه من حين ما يرفع مباشرة يضع اليدين على الصدر؛ لأن البعض من الناس يرفع يديه ثم ينزلها حتى تصل جانبيه، ثم يرفعها مرة أخرى، ثم يضعها على الصدر، فهذا ليس من السنة، السنة من حين ما ترفع وتنزل يديك تضع اليمنى على اليسرى على صدرك.

والسنة في حقك أن تنظر إلى موضع سجودك في الصلاة كما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام.

فيقرأ المسلم دعاء الاستفتاح، فيبدأ بدعاء الاستفتاح، ودعاء الاستفتاح إنما يكون في الركعة الأولى، الركعة الثانية والثالثة والرابعة ليس فيها استفتاح، إنما الاستفتاح في الركعة الأولى بعدما يكبر، وأنواع الاستفتاحات كثيرة، مَنْ فعل واحدًا منها أصاب السنة، ومن فعلها مرارًا - مرةً هذا النوع ومرةً هذا النوع - فهذا خير عظيم وأجر كبير، فيستفتح وهو سنة عند جماهير العلماء لو تركه لما بطلت صلاته، ثم يستعيد بالله عَزَّوَجَلَّ من الشيطان الرجيم، ثم يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم يقرأ الفاتحة.

وقراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة في حق الإمام وفي حق المنفرد، وكذلك في حق المأموم على الصحيح، سواء أكان في صلاة سرية أم جهرية، ومن ثم فإن الناس كثيرًا ما يسألون عن قراءتهم للفاتحة إذا قرأ الإمام في صلاة جهرية بعد الفاتحة حينما يقرأ سورة، هل يقرأ أم لا؟! خلاف بين العلماء، والذي عليه الفتوى من لدن الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين -رحمة الله عليهما- وهو قول لبعض سلف هذه الأمة أنه يقرأ سورة الفاتحة ولو كان الإمام يقرأ؛ لأن سورة الفاتحة مستثناة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وثبت في المسند بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال:



«لعلكم تقرؤون خلف إمامكم!!»، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «لا تفعلوا إلا بأمر الكتاب»^(١)، ثم إذا قرأ الفاتحة فإن السنة في حقه أن يقول: آمين، ومعناها: اللهم استجب، لأن في الفاتحة دعاء، وهو قول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فنقول: آمين، وليست من الفاتحة، وهي سنة، لو تركها لا شيء عليه، لكن الأفضل أن يؤتى بها، وإذا كانت في صلاة جهرية فالسنة في حق المأموم أن يجهر بها وأن يرفع بها صوته كما هي السنة في حق الإمام، ويكون قولها بعد قول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، يقولها الإمام ويتابعه المأموم في قولها، وأما ما يصنعه البعض من مسابقة الإمام بالتأمين قبل أن ينهي الفاتحة فهذا من المسابقة للإمام التي رتب النبي عليه الصلاة والسلام عليها وعيداً شديداً، فلا يجوز لأحد أن يقول: آمين، قبل أن يفرغ الإمام من قول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

فيذا قرأ سورة الفاتحة فإن السنة له في الركعة الأولى والثانية، السنة له أن يقرأ سورة أو ما تيسر من القرآن وليست واجبة؛ لأن البعض من الناس نسمعهم إذا قرأ الإمام الفاتحة في صلاة جهرية يقرأ بالفاتحة ويقرأ سورة أخرى يظن أن صلاته لا تصح إلا بقراءة السورة الأخرى، وهذا وقع في خطأ، كيف وقع في خطأ؟!
أولاً: هذه السورة التي بعد الفاتحة سنة.

ثانياً: أنه يقرأ سورة والإمام يقرأ، ومعلوم أن الإمام إذا قرأ لا يجوز لأحد أن يقرأ لا قرآناً ولا ذكراً ولا تسييحاً ولا ذكراً ولا استغفاراً ولا غير ذلك، اللهم إلا ما استثناه الشرع من قراءة الفاتحة فقط، ولذلك لو أتيت إلى الإمام وهو يقرأ في الفاتحة وكبرت تكبيرة الإحرام لا تستفتح إنما تستمع، لم؟! لأن دعاء الاستفتاح سنة، ولو استفتحت لخالفت الإمام، قرأت والإمام يقرأ، ومعلوم - كما أسلفت - أن المأموم لا يقرأ شيئاً البتة لا قراءة ولا ذكراً والإمام يقرأ إلا الفاتحة فقط، فيقرأ هذه السورة أو ما تيسر من القرآن، وهي سنة؛ لأنه جاء في قصة معاذ مع ذلك الرجل أنه لما أطال معاذ في القراءة، انصرف هذا الرجل من الصلاة فأتى إلى

(١) صححه الوداعي في الصحيح المسند (١٥١٩).

النبي عليه الصلاة والسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا تقول في صلاتك؟!»، قال: أقرأ الفاتحة، وأسأل الله الجنة، وأستعيذ به من النار، ولا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال عليه الصلاة والسلام: «حولها ندندن»^(١)، يعني ما أكثرنا من القراءة ولا أطلنا في الركوع ولا في السجود إلا من أجل أن يدخلنا الله الجنة وأن يعيدنا من النار، فإذا فرغ من السورة أو ما تيسر من القرآن فإنه يكبر تكبيرة الانتقال، فيكبر للركوع، وما يصنع البعض من تأخير التكبير إلى أن يصل إلى الركوع، فهذا خطأ، فمن حين ما تنحني تكبر مباشرة، أما ما يفعله البعض - وهو أنه ينحني إلى الركوع وهو ساكت - فإذا وصل إلى الركوع قال: الله أكبر، فهذا خطأ، السنة من حين ما تنحني تكبر، والسنة أن ترفع يديك مع تكبيرة الركوع.

وتكون صفة الركوع أن يكون الظهر متساوياً مع الرأس، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما يركع، يقول وابصة بن معبد: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصلي فكان إذا ركع سَوَّى ظَهْرَهُ حَتَّى لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ لَاسْتَقَرَّ»^(٢)، من استقامة ظهره عليه الصلاة والسلام، فيقول: سبحان ربي العظيم، لو قالها مرة كفت، وهذا هو الواجب، وأدنى الكمال ثلاث، ولا حد لأكثره، وكلما كان الإنسان معظمًا لله سبحانه وتعالى في ركوعه كان أفضل وأعظم، فإن كان الإنسان يحفظ ما ورد عن النبي ﷺ من تعظيم الله عزَّ وجلَّ في الركوع فشيء حسن، لكن إن لم يحفظ يقول: «سبحان ربي العظيم»، ثم يعظم الله عزَّ وجلَّ بما يليق به سبحانه وتعالى، فإذا رفع من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده»، ومعناها: استجاب الله لمن حمده، ولذلك إذا قلنا: «سمع الله لمن حمده»، ماذا نقول؟! نقول: «ربنا ولك الحمد»، يعني ربنا استجب ولك الحمد.

وهنا يخطئ بعض الأئمة، بل إنني أقول: إنه يجني على المأمومين؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال - كما عند البخاري - عن الأئمة قال: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم، وإن أخطئوا فلكم وعليهم»^(٣)، فيجني على نفسه قبل أن يجني على إخوانه المصلين، بعض الأئمة

(١) صححه الألباني في صفة الصلاة (١٨٥).

(٢) صحيح ابن ماجه (٧١٩).

(٣) رواه البخاري (٦٩٤).



إذا رفع رأسه من الركوع لا يقول شيئاً، فإذا رفع رأسه لم يقل شيئاً، فإذا انتصب قائماً قال: «سمع الله لمن حمده»، وهذا خطأ، من حين ما ترفع تقول: «سمع الله لمن حمده» مثل ما ذكر في التكبير؛ لأن البعض من المسبوقين قد يأتي والإمام خلفه ثلاثة صفوف أو عشرة صفوف، فيظن هذا المأموم أن الإمام ما زال راکعاً فيظن أنه قد أدرك الركعة، وهو في حقيقة الواقع لم يدرك الركعة؛ لأن الإمام قد قام وانتصب، وهنا خطأ، يجب في مثل هذا الموضع أن يبدأ الإمام قائلاً - حينما يرفع رأسه من الركوع - : «سمع الله لمن حمده»، ثم يقول الجميع: «ربنا ولك الحمد»، هذا هو الواجب، وإن زاد «حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه ملء السماوات والأرض...»، إلى آخر ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا شيء حسن، لكن إن كان لا يحفظ والإمام يطيل يمكن أن يكرر: «ربنا ولك الحمد، ربنا ولك الحمد»، جاءت بذلك السنة في سنن أبي داود، فإذا أراد أن يسجد يكبر من حين ما ينحني، ولذلك بعض الناس - وهذا الخطأ هو نفس الخطئين السابقين - يقول وهو قائم: «ربنا ولك الحمد»، ثم وهو نازل يقول: «حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه ملء السماوات والأرض»، فإذا وصل إلى السجود قال: «الله أكبر»، فهذا خطأ، من حين ما تنحني انتهى ذكر القيام الذي بعد الركوع، فمن حين ما تنحني تبدأ بالتكبير، والسنة - في أصح قولي العلماء فيما أراه - أنه يبدأ بركبتيه قبل يديه، وإن كان عاجزاً فيمكن أن يقدم يديه قبل ركبتيه، لكن السنة فيما يظهر - والعلم عند الله - أنه يقدم ركبتيه قبل يديه.

والسنة في هذا السجود أن يضم أصابع كفيه مستقبلاً بهما القبلة، وأن يرفع ذراعيه ولا يسطهما بسط الكلب، ويجافي عن عضديه ويرفع فخذه عن ساقيه وبطنه عن فخذه، هذا إذا كان منفرداً أو إماماً، أو مأموماً بحيث لا يشق على إخوانه، فإن كان عن جانبيه أحد يشق عليه إذا جافي فلا يجافي لأنها سنة، كما أن السنة في الركوع أنه يضع كفيه على ركبتيه مفرجتي الأصابع، ليست مضمومة، وإنما مفرجتي الأصابع كأنه يعتمد عليها لا يمسها مساً فقط، لا، كأنه معتمد عليها كما كان يفعل عليه الصلاة والسلام، والسجود يكون على الأعضاء السبعة (الجبهة مع الأنف - وأطراف أصابع القدمين - والكفين - والركبتين)، ولذلك إذا لم يسجد



الإنسان على هذه الأعضاء السبعة فإن سجوده لا يصح، ومن ثم إذا لم يصح السجود - وهو ركن - لم تصح الصلاة، ومن هنا تقع أخطاء، من بينها:

أن البعض من الناس يسجد على جبهته دون أن يلامس أنفه الأرض، هذا خطأ، لا بد أن يصل الأنف إلى الأرض مع الجبهة، وليس معنى هذا كما أسلفت أن يبالغ الإنسان وأن يضغط على جبينه وعلى أنفه في الأرض، لا، وإنما المراد أن يصل الأنف إلى الأرض ملامساً لها وكذلك الجبهة.

ومن الأخطاء: أن البعض - وخصوصاً الشباب - إذا سجد سجد على أطراف أصابعه، وباطن الكفين لا يصلان إلى الأرض ولا يمسان الأرض إذا سجد، وهذا خطأ، فلا بد أن تسجد بجميع الكف على الأرض.

ومن الأخطاء: أن البعض يرفع أطراف وأصابع قدميه فلا يمس أصابع قدميه الأرض، وهذا خطأ، لا بد أن يسجد على أصابع قدميه، والسنة في حقه أن يرص عقبه فيلصق العقبين ببعضهما ببعض، هذا هو السنة، ولو فرّج فلا بأس بذلك، لكن السنة كما صح عند ابن خزيمة أن يرص عقبه، ويقول: «سبحان ربي الأعلى»، والواجب مرة واحدة، وإن قالها ثلاثاً فهو أكمل، وإن زاد فهو أفضل، ولكن في السجود عليه أن يُكثر من الدعاء، كما أن الركوع كما قلت عليه أن يكثر من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وليس معنى هذا أن الركوع لا يدعى فيه الله عَزَّوَجَلَّ، لا، لو دعا في بعض الأحيان في الركوع لا بأس بذلك، وردت بذلك السنة، ولو عظم الله سبحانه وتعالى في سجوده في بعض الأحيان فقد وردت بذلك السنة، لكن الغالبية في الركوع هو تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، والغالبية في السجود هو دعاء الله عَزَّوَجَلَّ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

وبعد:

نواصل في شرح صفة الصلاة؛ فبعد السجود يرفع المصلي من السجود قائلاً: «الله أكبر»، وبين السجدين تكون اليدين اليمنى موضوعة على فخذه الأيمن وأطراف أصابعه ممدودة إلى ركبتيه اليمنى، واليد اليسرى موضوعة على فخذه الأيسر، وأطراف أصابع يديه عند ركلة قدمه اليسرى، ويقول: «رب اغفر لي»، هذا هو الواجب، وإن زاد مما وردت به السنة فهو حسن، وإن كرر «رب اغفر لي، رب اغفر لي»^(١)، جاءت بذلك السنة عن النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الدعاء يقال بين السجدين؛ لأن البعض من الناس يقولها من حين ما يرفع، لا، هذا الدعاء يقال إذا استتمت جالساً؛ لأن البعض من الناس وهو ساجد ينهي التكبير في لحظة الرفع ويقول: رب اغفر لي، هذا القول يجب أن يكون وأنت جالس قد استتمت في الجلوس، كما هو الشأن في بعض الناس حينما يرفع قائماً إلى الركوع الثاني قبل أن يتصب قائماً يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاحة: ١-٤]، هذا خطأ، قراءة الفاحة لا بد أن تكون وأنت قائم لا تصح وأنت منحن، اللهم إلا إن كنت عاجزاً تعرف أنك لو وصلت إلى القيام ربما ما تدرك الإمام في قراءة الفاحة، فهذا شيء آخر، أما وأنت سليم قادر على أن تأتي بها فيجب عليك أن تأتي بها وأنت قائم.

فيقول: «رب اغفر لي، وارحمي وعافني واهدني وارزقني واجبرني»^(٢)، إلى غير ذلك مما ورد عنه عليه الصلاة والسلام.

وهنا أمر وهو أن البعض من الناس لا تصح له صلاة، لم؟! لأنه من حين ما يرفع من السجود مباشرة يسجد السجدة الثانية، هذا خطأ، أين الطمأنينة؟! يجب أن تكون الطمأنينة

(١) صحيح إرواء الغليل (٣٣٥).

(٢) مسند أحمد وصححه أحمد شاكر (١٧٢/٥).



موجودة في جميع الأركان، كما يفعل بعضهم إذا رفع من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده»، ثم مباشرة يهوي ساجداً، هذا خطأ، لا بد أن يستتم قائماً، وأن يطمئن في قيامه. فيسجد السجدة الثانية ثم يقوم إلى الركعة الثانية، وكما أسلفت لا يقرأ الفاتحة حال نهوضه، وإنما إذا انتصب قائماً، فيفعل في الركعة الثانية ما فعل في ركعته الأولى ما عدا دعاء الاستفتاح، فدعاء الاستفتاح لا يقال إلا في الركعة الأولى فقط، ثم يستعيد بالله من الشيطان الرجيم إذا استتم قائماً، ثم يبسمل ثم يقرأ الفاتحة، ويفعل في ركعته الثانية ما فعل في ركعته الأولى، ثم إذا رفع من السجدة الثانية في الركعة الثانية، هنا يأتي التشهد، فإن كانت الصلاة ثنائية مثل الفجر أو الكسوف أو الاستسقاء أو العيدين، فهذا التشهد يكون في حقه التشهد الأخير فيتشهد «التحيات لله»، إلى آخر ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام، ولا يجوز أن تبدل الألفاظ، وأن توضع ألفاظ مكان أخرى، لأن البعض من الناس يمكن أن يقرأ التشهد في مكان «رب اغفر لي»، هذا خطأ، «رب اغفر لي» بين السجدين، والتشهد إذا رفع من السجدة الثانية من الركعة الثانية، هذا هو مقام التشهد، فلا يخلط بين الأمرين، فيتشهد التشهد الكامل، والسنة في حقه، ويتأكد بل أوجبها بعض العلماء، وهو قول قوي، وهو أنه في التشهد الأخير يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»^(١)، وهنا إذا جلس للتشهد الأخير في الصلاة الثنائية كصلاة الفجر هنا يجلس مفترشاً، وجلسة الافتراش تكون أيضاً بين السجدين، وتكون في التشهد في الصلاة الثنائية.

ما هو الافتراش؟! الافتراش: أن ينصب رجله اليمنى وتكون أطراف أصابع اليمنى تجاه القبلة، وأما الرجل اليسرى فإنه يفرشها ويجلس بمقعده على رجله اليسرى، إذاً تكون اليمنى منصوبة وتكون اليسرى مفروشة جالساً بمقعده عليها، وتكون يدها كما أسلفنا بين السجدين تكون في التشهد، ولكنه في مثل هذه الحال تكون اليسرى مبسوطة وتكون اليمنى مضمومة الأصابع، يضم أصابعه، وإما يُجَلَّقُ بأن يضع الإبهام على الوسطى ثم يشير ويحرك بها إذا دعا.

(١) رواه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).



وهل التشهد كله دعاء؟! بمعنى أنه من حين ما أجلس للتشهد أرفع إلى أن أفرغ من التشهد، أم أنه فقط في الدعاء إذا قلت مثلاً: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، هذا محتمل وهذا محتمل، والأمر في ذلك واسع. هذا إذا كانت الصلاة ثنائية، أما إذا كانت الصلاة ثلاثية مثل المغرب، أو كانت رباعية مثل الظهر والعصر والعشاء، فهنا يأتي شيء آخر زائد.

أيها الأحبة: إن تعلم صفة الصلاة والطهارة لها هو من أوجب الواجبات التي لا ينبغي أن يحجبنا عنها خجل أو حياء، أو غفلة أو استهانة بأهميتها، فهل يتجرأ أحد منا أن يقول لمسألة من هذه المسائل: من يعلمني كذا؟ أو ما حكم كذا؟ فإنه لا ينال العلم مُستحٍ ولا متكبر؛ ولقد كان الرجل يسلم على عهد النبي ﷺ، ثم أول ما ينشغل به أن يتعلم أمور دينه وما يحتاج إليه من العبادات في يومه وليلته، ولم يأمر الله نبيه أن يسأله الزيادة من شيء إلا العلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]..

نسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا، إنه قريب مجيب...



القناعة بأهمية الصلاة وفضل الجماعة^(١)

الخطبة الأولى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ لِلْمُصَلِّينَ فِي الْجَمَاعَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْقَائِلُ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَحَبِيبُهُ الْقَائِلُ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلٌ عَلَى صَلَاةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»^(٢) اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

فِي أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ تَقْوَاهُ أَفْضَلُ مَكْتَسَبٍ، وَطَاعَتُهُ أَعْلَى نَسَبٍ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِنِعْمٍ سَابِغَةٍ وَأَلَاءٍ بِالْغَةِ، نِعْمٍ تَنَعَمُونَ فِي الْأَطْفَالِهَا، وَمَنْ أُسْدِلَتْ عَلَيْكُمْ جَلَابِيئُهَا، وَإِنَّ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ وَأَكْبَرَ مَنَّةٍ هِيَ نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَا تَمْنُونُ عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتَهُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

فاحمدوا الله كثيراً على ما أولاكم وأعطاكم، واشكروه على ما إليه هداكم، حيث جعلكم من خير أمة أخرجت للناس، وهداكم لمعالم هذا الدين الذي ليس فيه التباس.

ألا وإن من أظهر معالمه، وأعظم شعائره، وأنفع ذخائره الصلاة، ثانية أركان الإسلام ودعائمه العظام، هي بعد الشهادتين أكد مفروض، وأعظم معروض، وأجل طاعة، وأرجى بضاعة، من حفظها حفظ دينه، ومن أضاعها فهو لما سواها أضيع، هي عمود الديانة، ورأس

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري (٦٤٥)، والترمذي (١٩٩)، واللفظ له.



الأمانة، يقول النبي ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة»^(١).

الصلاة.. هي أحسن ما قصده المرء في كل مهم، وأولى ما قام به عند كل خطبٍ مدلهم، خضوعٌ وخشوع، وافتقار واضطرار، ودعاءٌ وثناء، وتحميد وتمجيد، وتذللٌ للعليِّ الحميد، يقول رسول الهدى ﷺ: «إنَّ أحدكم إذا كان في الصلاة فإنه يناجي ربه» متفق عليه^(٢).

الصلاة هي سرُّ النجاح وأصلُّ الفلاح، وأوَّل ما يحاسب به العبدُ يومَ القيامة من عمله، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، المحافظةُ عليها عنوان الصدق والإيمان، والتهاون بها علامةُ الخذلان والحُسران، من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يومَ القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهان ولا نجاة، وكان يومَ القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف.

الصلاة فيها نفحاتٌ ورحمات، وهبات وبركات، بها تُكفَّر السيئات وتُرفع الدرجات وتضاعف الحسنات، يقول رسول الهدى ﷺ: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرّات، هل يبقى من درنه شيء؟!» قالوا: لا يبقى من درنه، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهنّ الخطايا» متفق عليه^(٣).

الصلاة عبادةٌ تشرق بالأمل في لجة الظلمات، وتنقذ المتردّي في درب الضلالات، وتأخذ بيد البائس من قعر بؤسه، واليائس من درك يأسه، إلى طريق النجاة والحياة، ﴿وَأَقِرْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ﴾ [هود: ١١٤].

أيها المسلمون: إنَّ مما يندى له الجبين ويجعل القلب مكدراً حزيناً ما فشا بين كثيرٍ من المسلمين من سوء صنيع وتفريطٍ وتضييع لهذه الصلاة العظيمة، فمنهم التارك لها بالكلية، ومنهم من يصلي بعضاً ويترك البقية، لقد خفَّ في هذا الزمان ميزانها، وعظم هجرانها، وقلَّ أهلؤها، وكثر مهملوها، يقول الزهري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: دخلتُ على أنس بن مالك

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٧)، والترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح)، وصححه الحاكم (٣٥٤٨)، وانظر السلسلة الصحيحة (١١٢٢).

(٢) رواه البخاري: كتاب الجمعة (١٢١٤)، ومسلم: كتاب المساجد (٥٥١) عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد (٦٦٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



رضي الله تعالى عنه بدمشق وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: «لا أعرف شيئاً مما أدركت على عهد رسول الله ﷺ إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيّعت»^(١).

أيها المسلمون: إن من أكبر الكبائر وأبين الجرائر ترك الصلاة تعمداً، وإخراجها عن وقتها كسلاً وتهاوؤاً، يقول النبي ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» أخرجه أحمد^(٢)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل والكفر أو الشرك ترك الصلاة» رواه مسلم^(٣).

وإن فوت صلاة من الصلوات كمصيبة سلب الأموال والضيعات وفقد الزوجة والبنين والبنات.

أيها الجمع: أصح السمع، لقول النبي ﷺ: «من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله» صححه ابن حبان^(٤).

يقول عبد الله بن شقيق رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (كان أصحاب رسول الله لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) أخرجه الترمذي^(٥).

أيها المسلمون: إن التفريط في أمر الصلاة من أعظم أسباب البلاء والشقاء، صنك دنيوي وعذاب برزخي وعقاب أخروي، ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، ويقول النبي في حديث الرؤيا: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنيما ابتعثاني، وإنيما قالاني: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ رأسه أي: يشدقه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثلاً

(١) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة (٥٣٠).

(٢) مسند أحمد (٣٤٦/٥) والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وهو في صحيح الترغيب (٥٦٤).

(٣) رواه مسلم: كتاب الإيمان (٨٢) عن جابر بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى نحوه.

(٤) صحيح ابن حبان (١٤٦٨) عن نوفل بن معاوية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، ورواه الطيالسي (١٢٣٧)، وأحمد (٤٢٩/٥)، وهو في صحيح الترغيب (٥٧٧).

(٥) الترمذي (٢٦٢٢)، وصححه النووي في المجموع (١٦/٣)، والألباني في صحيح الترغيب (٥٦٥).



فعل المرّة الأولى»، قال: «قلت لهما: سبحان الله، ما هاذان؟ فقالا في آخر الحديث إخباراً لرسول الله عمّا رأى: أمّا الرجل الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنّه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»^(١).

فيا عبد الله، كيف تهون عليك صلاتك وهي رأس مالك وبها يصحّ إيمانك؟! كيف تهون عليك وأنت تقرّ الوعيد الشديد في قول الله جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥]؟! كيف تتصف بصفة من صفات المنافقين الذي قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]؟! ولا يذكرون الله إلا قليلاً!

أيها المسلمون: الصلاة عبادة عظيمة، لا تسقط عن مكلف بحال، ولو في حال الفزع والقتال، ولو في حال المرض والإعياء، ما عدا الحائض والنفساء، يقول تبارك وتعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩]. أقيموا الصلاة لوقتها، وأسبغوا لها وضوءها، وأتموا لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها، تناولوا ثمرتها وبركتها وقوتها وراحتها.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) صحيح البخاري (٧٠٤٧) عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الخطبة الثانية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ، وَصَفَ عَمَّارَ الْمَسَاجِدِ بِالْإِيَانِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ سَيِّدٌ وَلَدِ عَدْنَانَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ؛ أَمَا بَعْدُ:

أيها المسلمون: لقد جاءت الأدلة متكاثرة متضافرة على وجوب وفضل صلاة الجماعة على الرجال حَضْرًا وَسَفْرًا، يقول جل وعلا: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، (مَعَ) المقتضية للجمعية والمعينة، ويقول تبارك وتعالى لنبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وهو في ساحة القتال وشدة النزال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتَقِمَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آسَلِحَاتِهِمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ رَايِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]، فلو أُتِيحَ لأحد أن يدع الجماعة لكان ذلك من باب أولى للنبي ومن معه في حال الحرب.

ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَاةِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سُنْنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنْكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بَيْوتِكُمْ كَمَا يَصِلِي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مَنَافِقٌ مَعْلُومِ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ» رواه مسلم^(١).

فإلى كل سليم صحيح، إلى أولي القوَّة والفُتُوَّة، وأصحاب التقوى والمرورة، لقد اشتد غضبُ رسول الله على المتخلفين عن جماعة المسلمين، فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «لقد هممتُ أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حُزْمٌ من حطب إلى قومٍ لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار» متفق

(١) رواه مسلم: كتاب المساجد (٦٥٤).



عليه^(١)، ويقول أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لأن تمتلئ أذنا ابن آدم رصاصاً مُدَابَّاً خَيْرٌ له من أن يسمع النداء ولا يجيب»^(٢).

أيها المسلمون: تلك أدلّة ونصوص لاح الحق في أكنافها، وظهر الهدى في بيانها، ولقد أفصحت الرسل لولا صَمَم القلوب، ووضحت السبل لولا كدر الذنوب.

وتعظم المصيبة حين يكون المتخلف عن صلاة الجماعة ممن يُقتدى بعمله ويُتأسى بفعله، فيتخلف بتخلفه غيره، ولقد كثُر المتخلفون في زماننا هذا عن صلاة الجماعة في المساجد، وهم رجالٌ قادرون أقوياء أصحاء، لكنهم يسمعون النداء صباح مساءً، فلا يجيبون ولا هم يذكرون، يقول رسول الهدى: «والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدُهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء» متفق عليه^(٣).

يا عبد الله: لا ينبغي أن تأتي المساجد في فتور وكسل، وتقضي وقتاً قليلاً على ملل وعجل، فإن المساجد بيوت الله وأحبُّ البقاع إليه جلّ في علاه، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «سبعة يُظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه»، وذكر منهم: «ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد» متفق عليه^(٤).

فيا من يتوانى ويتثاقل، ويتساهل ويتشاغل، لقد فاتك الخير الكثير والأجر الوفير، يقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنة نُزلاً كَلِّماً غداً أو راح» متفق عليه^(٥)، و«من تطهّر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله؛ ليقضي فريضةً من فرائض الله، كانت خطواتها إحداها تحطّ خطيئة، والأخرى ترفع درجة»^(٦). و«إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها ممشئاً، فأبعدُهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصلبها مع الإمام، أعظم أجراً من

(١) رواه البخاري: كتاب الخصومات (٢٤٢٠)، ومسلم: كتاب المساجد (٦٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٣/١).

(٣) رواه البخاري (٦٤٤) ومسلم (٦٥١).

(٤) رواه البخاري: كتاب الأذان (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة (١٠٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) رواه البخاري: كتاب الأذان (٦٦٢)، صحيح مسلم: كتاب المساجد (٦٦٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) رواه مسلم (١٥٢١).



القناعة بأهمية الصلاة وفضل الجماعة

الذي يصلها ثم ينام»^(١)، «ولا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله»^(٢). نعوذ بالله من الخذلان والخسران.

يقول المولى سبحانه: ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ (٣١) رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ وَلَا يَبِغُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۗ وَالْآبُصْرُ ۗ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

عباد الله: إننا نرى اليوم من الناس تساهلاً عظيماً في الصلاة مع الجماعة، فمن الناس من لا يرى في المسجد أبداً وفي جميع الصلوات، ومنهم من لا يرى إلا في الجمعة وقد يسكن بجوار بيت من بيوت الله، ويسمع النداء خمس مرات في اليوم والليلة، إنها لخسارة كبيرة أن أعداداً كثيرة وجموعاً غفيرة من الناس في مجتمع مسلم لا يباليون بصلاة الجماعة ولا يرتادون المساجد إلا قليلاً..

لقد خرج النبي ﷺ إلى صلاة الجماعة في مرض موته محموراً بين رجلين حتى أقعد في الصف، نعم في مرض الموت! فماذا يقول المعافون الأصحاء؟! ماذا يقول الشباب الأقوياء؟! ماذا يقول من ينعمون بالقوة والنشاط؟! كيف ترضون لأنفسكم التخلف عن المسجد والجماعة، وما الذي عسى أن تفعلوه بالصلاة إذا مرضتم؟! وكيف تريد تحرير المسجد الأقصى يا من عجزت عن الصلاة في المسجد الأدنى؟! أين نحن من السلف الصالح الذين كانوا يستعدون للصلاة قبل إقامتها، ويسعون إليها قبل النداء لها؟

ذكر الذهبي عن عدي بن حاتم أنه قال: (ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء)، وهذا سعيد بن المسيب يقول: (ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد)، قال الأوزاعي: (كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها لأحد من التابعين: لم تفتة صلاة الجماعة أربعين سنة)!

(١) رواه البخاري (٦٥١) ومسلم (١٥١٣).

(٢) رواه مسلم (٤٣٨).



وهذا ربيعة بن يزيد يقول: (ما أذن المؤذن لصلاة الصبح منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً)، بل إن سليمان بن مهران كان يقول لابنته وهي تبكي عند رأسه في مرض موته: (ابكي أو لا تبكي فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام مع الجماعة ستين سنة)، فمن منّا يقدر على مثل ما قدر عليه هؤلاء الرجال ولو لشهر أو سنة؟! أم أنه ينطبق علينا قول الله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]!

هذا الصحابي الحارث بن حسان تزوج في ليلة من الليالي فحضر صلاة الفجر مع الجماعة فقيل له أخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الساعة الليلة، فيقول: (والله إن امرأة تمنعني من صلاة الفجر في جماعة لامرأة سوء).

الله أكبر! هكذا كانوا حتى في أفراحهم وأعراسهم، بل حتى وهم مرضى كانوا يحملون حملاً إلى الصلاة حتى لا يتخلفوا عن الجماعة.

مرض أحد التابعين واسمه ثابت بن عامر، فسمع أذان المغرب فقال لأبنائه: (احملوني إلى المسجد. قالوا: أنت مريض وقد عذرك الله، قال: لا إله إلا الله! اسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح، ثم لا أجيء! والله لتحملني إلى المسجد، فحملوه إلى المسجد، حتى أوقفوه في الصف، فكبر حتى إذا كان في السجدة الأخيرة من صلاة المغرب قبض الله روحه)، سبحان الله أي خاتمة هذه، وأين نحن من هؤلاء!؟

وختاماً أيها الكرام: اتقوا الله في أنفسكم، واتقوا الله في أهليكم وأبنائكم، فإنهم قرّة عيونكم، وتتابع نسلكم وذكريكم، وإنهم أمانة في أعناقكم، مروهم بالمحافظة على الصلوات ورغبتهم في حضور الجُمُوع والجماعات، وشجعوهم بالحوافز والجوائز، وأكرمهم بالدعاء والثناء، نشئوهم على حب الآخرة، وكونوا لهم قدوةً صالحة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا مَحْنُ زُرُوقٍ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّاقِي﴾ [طه: ١٣٢]، يقول ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين» أخرجه أحمد^(١).

(١) مسند أحمد (١٨٧/٢) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه أيضاً أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، والدارقطني (١/٢٣٠)، والحاكم (١/٣١١)، والبيهقي (٢/٢٢٨، ٢٢٩)، وحسنه النووي في المجموع (٣/١٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٤٧). وله شاهد من حديث =



القنّاعة بأهمية الصلاة وفضل الجماعة

واحدروا ما يصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة من سائر الملهيات والمغريات، وألحوا على الله بالدعاء أن يصلح أولادكم وأولاد المسلمين أجمعين.

اللهم أقرّ عيوننا وأسعد قلوبنا وأبهج نفوسنا بصلاح شبابنا وفتياتنا، اللهم اجعلنا وذريّتنا وشبابنا وفتياتنا من مقيمي الصلاة، اللهم وتقبل دعاءنا، اللهم منّ علينا بالأمن في البلاد والصلاح في الذريّة والأولاد والفوز يوم المعاد...

هذا وصلّوا وسلّموا على خير البرية، وأزكى البشرية، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..



= سبرة بن معبد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد حسن، رواه أحمد (٢٠١/٣)، وأبو داود في الصلاة (٤٩٤)، والترمذي في الصلاة (٤٠٧) وقال: (حديث حسن صحيح)، وصححه ابن الجارود (ص٧٧)، وابن خزيمة (١٠٠٢)، والحاكم (٢٥٨/١)، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في المجموع (١٠/٣). وفي الباب أيضا عن أبي هريرة وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وإسناداهما ضعيفان.

قرآن الفجر^(١)

(صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي جعل الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وخيرة القربات وُغْرَةَ الطاعات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب الأرض والسموات، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله أفضل البريات، وخاتم الرسالات، القائل: «وَجُعِلَتْ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢)، اللهم صلِّ وسلم وبارك على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه ومن اهتدى بهداه؛ أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها الأحبة: لقد جعل الله الليل والنهار خلفَةً لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورًا، وإن بعد ظلام الليل الحالك يتنفس الصبح بضياؤه، ويشهد الكون في تلك اللحظات المهيبة صراع النور والظلمة واعتراك الليل والنهار، ويبصر ميلاد يوم جديد، ويُقبل الفجر في زُهوّه وبهائه يتهادى اختيالًا، ملء عينيه أسرار وأخبار، ومواقيت وأقدار، وفي هذا الوقت البديع المبارك يدوي في سماء الكون النداء الخالد، نداء الأذان لصلاةٍ سُتَّتْها خير من الدنيا وما فيها، فكيف بفریضتها!

إنها صلاة الفجر، فتتهافت الأرض كلها: الله أكبر الله أكبر.. الصلاة خير من النوم. وتكون صلاة الفجر فاتحة يوم مبارك في حياة المسلم، لكأننا يعلم الإسلام أهله أن يباركوا ابتداء كل أمر بطاعة الله والإقبال عليه، والانقياد والإنابة إليه، وكأنها هي شكر الله على نعمة الإصباح

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) النسائي (٣٩٣٩) وصححه الحاكم (٢ / ١٧٤) ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٥/٣) و(٣٤٥/١١).

قرآن الفجر (صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

بعد الإظلام حسًا ومعنى، ويبدأ وقت صلاة الفجر من ظهور الفجر الصادق الذي هو عبارة عن بياض ممتد من الشمال إلى الجنوب إلى طلوع الشمس، والسنة فيها التعجيل، فيصليها بغلَس قبل الإسفار.

والعجب أنك حين تقارن عدد المصلين في هذه الصلاة مع عددهم في بقية الصلوات ترى أمرًا عجبًا! هل لي أن أطالب نفسي وإياكم بأن يحصي كل فرد مقدار ما فاتته من صلواته الفجر في جماعة منذ عام أو حتى شهر مثلاً؟! هل حاولت إحصاء ذلك؟! كيف ستكون النتيجة؟! أليست محزنة؟! جاء عن هُشيم وهو أحد أعلام السلف: أنه صلى الفجر بوضوء العشاء عشرين سنة! فهل يسوغ لنا مثل هذا التفريط!؟

أيها المسلمون: لقد جعل الله هذه الصلاة العظيمة مشهودة تشهدها ملائكة الرحمن، وسماها: ﴿قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فقال سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (يعني صلاة الفجر).

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح»، يقول أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] (١).

وهكذا تكون صلاة الفجر مجتمعًا للملائكة ومحفلًا من محافل الخير الإلهي والعطاء الرباني، لا يحضره إلا كل طاهر مطهر من الأبرار، يستحق أن يكون في ضيافة الرحمن، وقد صح في الحديث عند أبي نعيم عن رجل من أصحاب النبي ﷺ اسمه ميثم أنه قال: «بلغني أن الملك يغدو برأيته مع أول من يغدو إلى المسجد، فلا يزال بها معه حتى يرجع فيدخل بها منزله، وإن الشيطان ليغدو برأيته إلى السوق مع أول من يغدو، فلا يزال بها معه حتى يرجع فيدخلها منزله» (٢).

(١) رواه البخاري (٤٧١٧).

(٢) صححه موقوفًا في صحيح الترغيب (٤٢٢).



قرآن الفجر (صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

وليست هذه هي الفضيلة الوحيدة لصلاة الفجر، بل لقد تكاثرت النصوص بما لها من الفضائل، فهل تعلم أخي الكريم أن صلاة الفجر في جماعة تعدل قيام ليلة كاملة؟!

روى مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»^(١)، وروى مالك بسند صحيح أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَدَ سُلَيْمَانَ بْنَ أَبِي حُثْمَةَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَمَرَّ عَلَى الشُّفَاءِ أَمِّ سُلَيْمَانَ فَقَالَ لَهَا: لِمَ أَرَّ سُلَيْمَانَ فِي الصُّبْحِ! فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَاتَ يَصَلِّي فغلبته عيناه، فقال عمر: «لأن أشهد صلاة الصبح في جماعة أحب إلي من أن أقوم ليلة!»^(٢).

وعن رجل من النخع قال: سمعت أبا الدرداء حين حضرته الوفاة قال: أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يشهد الصلاتين: العشاء والصبح ولو حبواً فليفعل»^(٣).

وإذا كانت الصلاة نوراً، فإن أهل الفجر هم أصحاب النور التام يوم القيامة؛ فعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّرِ الْمُشَائِتِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى المسَاجِدِ بالنور التام يوم القيامة»^(٤).

هل تعلم أن هذه الصلاة أمان وحفظ من الله لك سائر اليوم؟! قال ﷺ: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله»^(٥). قال النووي^(٦): (الذمة هنا: الضمان، وقيل الأمان).

(١) رواه مسلم (٦٥٦).

(٢) صححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٠٣٨).

(٣) صحيح الترغيب (٤١٨).

(٤) صحيح ابن ماجه (٦٤٠).

(٥) رواه مسلم (٦٥٧).

(٦) شرح مسلم (١٥٨/٥).



فأهل الفجر في ذمة الله تعالى وجواره، كما جاء في صحيح مسلم من حديث جُنْدَب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبُنَّكَ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يَدْرِكُهُ، ثُمَّ يَكْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١). وما ظنكم بمن كان في جوار الله تعالى؟! وأنتم ترون الناس يطمثون ويأمنون حين يكون أحدهم في جوار عظيم من عظماء الدنيا، وإن من كان في جوار الله فوالله لهو أشد أمانًا وأعظم اطمئنانًا.

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما خص صلاة الصبح بالذكر؛ لما فيها من الكلفة والمشقة، وأداؤها مظنة خلوص الرجل، ومنه إيمانه؛ ومن كان مؤمنا خالصا فهو في ذمة الله تعالى وعهده)^(٢).

وفي المراد بالحديث قولان للعلماء:

الأول: أن يكون فيه نهي عن التعرض بالأذى لكل مسلم صلى صلاة الصبح، فإن من صلى صلاة الصبح فهو في أمان الله وضمانه، ولا يجوز لأحد أن يتعرض لمن آمنه الله، ومن تعرض له فقد أخفر ذمة الله وأمانه، أي أبطلها وأزالها، فيستحق عقاب الله له على إخفار ذمته، والعدوان على من في جواره^(٣). قال ابن عثيمين في^(٤): (في هذا دليل على أنه يجب احترام المسلمين الذي صدقوا إسلامهم بصلاة الفجر؛ لأن صلاة الفجر لا يصلحها إلا مؤمن، وأنه لا يجوز لأحد أن يعتدي عليهم).

ويدل لهذا المعنى ما جاء عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه كان قاعدًا عند الحجاج، فقال له الحجاج: قم فاضرب عنق هذا، فأخذ سالم السيف، وأخذ الرجل، وتوجه باب القصر، فنظر إليه أبوه - عبد الله بن عمر - وهو يتوجه بالرجل، فقال: أترأه فاعلاً؟! فردّه مرتين أو ثلاثاً، - وخشي ابن عمر أن ابنه سالمًا سيقتل الرجل - فلما خرج به سالم قال

(١) رواه مسلم (٦٥٧).

(٢) شرح مشكاة المصابيح للطيبي (٢/١٨٤).

(٣) انظر: فيض القدير للمناوي (٦/١٦٤).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/٥٩١).

له: أصليت الغداة - أي: الفجر -؟ قال الرجل: نعم. قال: فخذ أي الطريق شئت، ثم جاء فطرح السيف، فقال له الحجاج: أضربت عنقه؟ قال: لا، قال: ولم ذاك؟ قال: إني سمعت أبي هذا يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ حَتَّى يُمَسِّي»^(١).

والقول الثاني من أقوال أهل العلم: أن يكون المقصود من الحديث التحذير من ترك صلاة الصبح والتهاون بها، فإن في تركها نقضاً للعهد الذي بين العبد وربّه، وهذا العهد هو الصلاة والمحافظة عليها.

قال البيضاوي: (ويحتمل أن المراد بالذمة الصلاة المقتضية للأمان، فالمعنى: لا تركوا صلاة الصبح ولا تتهاونوا في شأنها، فينتقض العهد الذي بينكم وبين ربكم، فيطلبكم الله به، ومن طلبه الله للمؤاخذه بما فرط في حقه أدركه، ومن أدركه كبه على وجهه في النار)^(٢).

فيا عبد الله: أين أنت من هذه الفضائل العظيمة والتي واحدةٌ منها لكافية في أن تتنازل من أجلها عن لذيذ نومك وليّن فراشك وتقوم لتصلي مع المسلمين؟! فكيف إذا سمعت فضائل أخرى؟!!

هل تعلم أن صلاة الفجر هي ضمان للجنة؟! فقد قال ﷺ قال: «من صلى البردين دخل الجنة»^(٣)، والبردان: هما الصبح والعصر. وهل يعمل العاملون ويتنافسون المتنافسون في هذه الدنيا إلا من أجل الجنة؟! فأين هو في صلاة الفجر وعنده هذا الضمان من النبي ﷺ؟!!

وهل تعلم أن صلاة الفجر حاجز عن النار؟! وماذا يريد كل مسلم سوى النجاة من النار؟! فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «لن يُلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: الفجر والعصر^(٤).

إن أهل الفجر هم أهل الأمان في الدنيا ولهم وعد صادق بأن يروا ربهم عزَّ وجلَّ يوم القيامة؟!!

(١) المعجم الأوسط (٥/٤) وقال الألباني في صحيح الترغيب (١/١١٠): (صحيح لغيره).

(٢) فيض القدير (٦/١٦٤).

(٣) رواه البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥).

(٤) رواه مسلم (٦٣٤).

قرآن الفجر (صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

ففي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، يعني: صلاة العصر والفجر، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] (١).

أسأل الله جل وتعالى بأسائه الحسنی وصفاته العلاء أن يعيننا على أنفسنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، أقول ما قلت، فإن كان صواباً فمن الله وحده، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وأستغفر الله لي ولكم.

(١) رواه البخاري (٥٧٣) ومسلم (٦٣٣).

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أيها المسلمون: ولما كانت صلاة الفجر بهذه المنزلة العظيمة كان التفريط فيها جرماً كبيراً وغفلة عظيمة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسأنا به الظن» أي: أن يكون من المنافقين الذين تثقل عليهم هذه الصلاة، وعن أبي بن كعب قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الصبح فقال: «أشاهد فلان؟» قالوا: لا، قال: «أشاهد فلان؟» قالوا: لا، قال: «إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيها لأتيموها ولو حبواً على الركب»^(١).

عباد الله: لقد تعلقت قلوب السلف رضي الله عنهم بهذه الصلاة لما علموا من جليل فضلها وسوء عاقبة التخلف عنها، فكانوا أحرص الناس عليها، حتى لقد قال عبد الله بن مسعود: «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يتهاذى بين الرجلين حتى يُقام في الصف».

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يمر في الطريق منادياً: «الصلاة، الصلاة»، يوقظ الناس لصلاة الفجر، وكان يفعل ذلك كل يوم. وحين اشتكى سعيد بن المسيب عينه قالوا له: لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة لوجدت لذلك خفة، يرغبونه في التنزه في ضواحي المدينة حيث الخضرة والجو الطليق، فقال لهم: (فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح؟! أي: العشاء والفجر، فلم يُطق ترك هاتين الصلاتين في جماعة. وتزوج الحارث بن حسان رضي الله عنه في ليلة من الليالي فحضر صلاة الفجر مع الجماعة، فقبل له: أخرج وإنما بنيت بأهلك الليلة؟ فقال: (والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمع -أي: جماعة- إنها لامرأة سوء!) وقام عبد الرحمن بن مهدي ليلة حتى جهد، فلما طلع الفجر رمى بنفسه على الفراش فنام عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس، فقال: (هذا مما جنى عليّ الفراش)، فجعل على نفسه أن لا يجعل بينه وبين الأرض شيئاً شهرين، ومكث تلك المدة ينام بلا فراش تأديباً لنفسه!

(١) صحيح الترغيب (٤١١).



ومكث الإمام مدين بن أحمد الحميري دهرًا إلى حين وفاته لا تفوته التكبيرة الأولى من صلاة الصبح، وكان يمكث في مصلاه وهو على طهارة إلى أن يركع الضحى، وربما جلس بعد ذلك. وبقي الشيخ الغرناطي نحوًا من عامين أو أزيد يخرج للصلوات الخمس يهَادَى بين رجلين لشيء كان برجله، حتى كان بعض أصحابه يقول: الغرناطي حجة الله على من لم يحضر الجماعة.

(لقد كانوا يرون فَوَتْ صلاة الفجر في الجماعة غنباً عظيماً وخطباً جليلاً يستحق العزاء. فهذا حاتم الأصم يقول: فاتتني صلاة الجماعة، فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا! هذا شيء يسير من أخبارهم).

فأين نحن أيها الأحبة من هذه الهمم، ومن هدي هؤلاء الرجال؟

أيها المسلمون: ولقد بلغ من منزلة صلاة الفجر أن خُصَّت راتبها القبلية دون سائر الرواتب بمحافضة النبي ﷺ وحرصه عليها حضراً وسفراً، مع أنه يقصر الصلاة المفروضة! قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (وكان رسول الله ﷺ في السفر يواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن، ولم يُنقل عنه في السفر أنه صلى سنة راتبة غيرها)، وكان ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يقول: (سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل والوتر خاتمته). بل وصف النبي ﷺ راتبة الفجر بقوله: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»، وقال عن هاتين الركعتين الخفيفتين: «لهما أحب إلي من الدنيا جميعاً»^(١)، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً -أي: حرصاً وتفقدًا- منه على ركعتي الفجر»^(٢). فإذا كانت هذه منزلة النافلة فكيف بالفريضة؟!!

إن من حكمة الله تعالى أنه لم يجعل صلاة الفجر ثلاثاً كالمغرب أو أربعاً كباقي الصلوات، ولعل من اللطائف هنا: أنه ليس السر في كثرة ركعاتها بقدر ما يكون في الاستيقاظ لها ابتلاءً

(١) رواه مسلم (١٦٨٨).

(٢) رواه البخاري (١١٦٩)، ومسلم (١٦٨٦).

قرآن الفجر (صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

واختبارًا من الله لعباده، وهكذا في راتبها، لم تكن أربعًا قبلها، أو أربعًا قبل وأربعًا بعد، بل هما ركعتان خفيفتان، يقرأ المصلي في الأولى الحمد والكافرون، وفي الثانية الحمد والإخلاص، لكنها أكد السنن الرواتب، وخير من الدنيا جميعًا.

ومع هذا اليسر في الكيفية والعظمة في مضاعفة الأجر؛ فقد كثر التخلف عن هذه الصلاة في المسجد مع الجماعة؛ فقط لأنها تأتي بعد نوم، وإنك لترى المسجد في الحي المزدحم يمتلئ في الصلوات كلها، حتى إذا جئت لصلاة الفجر ألفتته شبه خاوٍ ليس فيه إلا الصفوف القليلة! وهذه والله مصيبة وإن لم ندركها، وغبن وإن لم يشعر به الكثير إلا بعد أن يلقوا ربهم، إذ كيف يفوت المسلم على نفسه هذا الخير العظيم ويهنا بالنوم والنعاس؟! كيف يطيب له الفراش ليحرم نفسه بركات الفجر المنتزلة وخيراته المتواترة؟! بل كيف يرضى المسلم أن يتلاعب به الشيطان فيبول في أذنه؟! كما جاء عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجل، فقيل: ما زال نائمًا حتى أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: «بال شيطان في أذنه»^(١). قال الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (واختلّف في بول الشيطان فقيل: هو على حقيقته، وقيل: هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر، وقيل: معناه أنه ملأ سمعه بالأباطيل، وقيل: هو كناية عن ازدراء الشيطان به، وقيل: معناه أن الشيطان استولى عليه واستخف به حتى اتخذه كالكنيف المعد للبول. وحُصِّ البول لأنه أسهل مدخلًا في التجاويف وأسرع نفوذًا في العروق، فيورث الكسل في جميع الأعضاء). وهذه معانٍ كيفما قلبتها وجدت بعضها شرًا من بعض.

فهل أدرك المتخلف عن صلاة الفجر متعمدًا أن فعلته من أكبر الكبائر وأشد الموبقات؟! قال ابن حزم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا ذنب بعد الكفر أعظم من تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها، ومن قتل امرئ مسلم بغير حق).

وهل علم هذا النائم الساهي عن صلاته بقول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥]؟! وهل نسي قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩]؟! وإضاعتها تأخيرها عن وقتها.

(١) رواه البخاري (١١٤٤).



أخي: يا من اعتدت النوم عن هذه الصلاة حتى استهنت بها وأهملتها، هل سمعت بذلك الحديث العظيم الرهيب الذي رواه البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا» فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنيهما قالاني: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثَلِّغُ رأسه -أي: يشدخه ويشقه- فيتدهده الحجر ها هنا -أي: يتدحرج- فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى!» قال: «قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ فقالا لي: انطلق انطلق...» -ثم قال في آخر القصة: - فإني رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا الذي رأيت قالاني: أما إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة»^(١). نسأل الله العافية.

فأين من يتعمد ضبط المنبه على وقت العمل في السابعة أو الثامنة، ولا يصلي الفجر إلا في هذا الوقت، وقد قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا: (صلاته هذه غير مقبولة، ولا تبرأ بها ذمته، وسوف يُحاسب عنها)، ولو كان العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة فجراً؛ لقام لها! أيها الأخ الكريم: ما الذي غرَّك بربك وأهلك عن صلاة فجرك؟! أهو السهر أمام القنوات؟ أم هي الجلسات والسهرات؟ أم الانشغال والالتهاء بالمراسلات على النت والصفحات؟

ترى أي خير فاتك؟! وأي موت للقلب ابتليت به؟! فهل لك من عودة؟! وهل لك من رجوع؟!!

ألا تستحق منك صلاة الفجر أن تبكّر بالنوم رهبةً ورغبةً لله؟ ألا تنام مبكراً وتكون مأجوراً على نومك لأنك بكّرت به لأجل الله، كما قال معاذ: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي؟»

(١) رواه البخاري (٦٤٢).



قرآن الفجر (صلاة الفجر أهميتها وفضلها)

ألا تحب أن تكون من رجال الفجر؟! أولئك الرجال الذين ما إن سمعوا النداء يدوي: (الله أكبر، الله أكبر، الصلاة خير من النوم)، هبوا وفرغوا وإن طاب المنام، وتركوا الفرش وإن كانت وثيرة، مُلِّين النداء، لأن ذلك أحب إلى نفوسهم من التقلب على فُرشهم، فيخرج الواحد منهم إلى بيت من بيوت الله تعالى، على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويخاف عقاب الله، وهو يردد: اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل في سمعي نورًا، واجعل في بصري نورًا، واجعل من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقني نورًا. فما ظنكم بمن خرج لله في ذلك الوقت؟! لم تخرجه دنيا يصيبها، ولا أموال يكتسبها، أليس هو أقرب إلى السعادة، وأولى بمعية الله وكرمه وتوفيقه، وفضله وتيسيره، وعونه وتسديده؟! ماذا يقول ذلك الذي أثر فراشه معرضًا عن نداء ربه عَزَّوَجَلَّ؟! ماذا يقول وقد فوّت على نفسه ذلك الفضل العظيم؟! ويظل خلف سقط المتاع يلهث من صبحه إلى مساءه، ماذا يقول وهو يهدر الوقت الطويل في السهر الضائع وجلسات اللهو واللعب التي ليس وراءها طائل، ولا فيها نفع، بل فيها المضرة في الدين والدنيا؟!!

فيا من فقدك مسجدك في صلاة الفجر، يا من تعودت النوم عن الصلاة، وجعلت النوم معجزة المعجزات، التي لا يمكن التغلب عليها والفكاك منها، إنما وقعت في ذلك القيد لأنك أثرت السهر والسمر على القيام لصلاة الفجر.

أخي الحبيب: يكفي إلى هنا، اطوِ صفحة الماضي، وأقبل إلى ربك تائبًا مستغفرًا، مستعِينًا مستهديًا، وافتح مع نفسك ومع ربك صفحةً بيضاء نقية، إن المسجد يفتح لك أبوابه، وداعي الرحمن يدعوك، فأقبل أيها الحبيب الموفق تكن من الفائزين.

ولعل أول خطوة في طريق العلاج هي أن تستشعر أهمية هذه الصلاة وأن تدرك قيمتها، فلو شعر الإنسان بذلك وأدرك أنه يفوته بفواتها خير كثير لربما تحركت همته وانبعثت عزيمته، كما تتحرك وتنبعث لكل أمر عزيز نفيس لديه.

وإن من أنفع ما يعينك عليها: أن تحافظ على أذكار النوم وتدعو الله في الوتر أن يوفّقك للقيام، مع الابتعاد عن المعاصي جملة وتفصيلاً، ولا سيما معاصي العين واللسان، ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ فإن المعاصي تقيد المرء عن الطاعة، وتحرمه لذتها وخفتها وحلاوتها.



فاعزم من هذه الساعة أن تكون ضمن الركب المبارك لأهل الفجر، لتحظى بفضائلهم، ولتنجو من الوعيد الشديد للذين ينامون عن فرائض الله تعالى.

يقول تعالى مُثْنِيًّا على أهل ذكره وشكره، ومنهم أهل الغداة والفجر: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرَهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(١).

نسأل الله أن يجعلنا من المداومين على صلاة الفجر، لينالوا بذلك عظيم الثواب والأجر.. هذا وصلّوا وسلّموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه، عملاً بقول من لم يزل قائلاً علياً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) رواه البخاري (٧٤٢٩) ومسلم (٦٣٢).

قيام الليل (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي شرع لعباده أكمل الشرائع، وفرض عليهم أجلّ الفرائض، وحبّب إليهم من العبادات، ما يصلون به إلى أسمى الغايات، ويبلغون به أرفع الدرجات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، ومجتباه من خلقه، ومصطفاه من أنبيائه ورسله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واستقام على سنته، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حقّ التقوى، وراقبوه في السرّ والنجوى، واعلموا أنه ما دُفعت الفتن والشهوات، بمثل خالص العبادات والطاعات، وإن أفضل الأعمال هي هذه الصلوات، وأفضل الصلاة بعد المفروضات: قيام الليل بين يدي رب الأرض والسماوات، فإنه دأب الصالحين، وروضة المحبين، ومعراج السالكين، ومنهاج القاصدين إلى رضی رب العالمين، ونزهة المشتاقين إلى جنات النعيم.

قيام الليل سنة مؤكدة، تواترت النصوص من الكتاب والسنة بالحث عليه، والتوجيه إليه، والترغيب فيه، ببيان عظيم شأنه، وجزالة الثواب عليه، وقيام الليل له شأن عظيم في تثبيت الإيمان، والإعانة على جليل الأعمال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ قُولُوا لِمَا آتَاكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ لَعَلَّكُمْ يُرْضَوْنَ ﴿٢﴾ وَأَنْتُمْ عَلِيمُونَ ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرِزْقًا قَلِيلًا ﴿٤﴾ إِنْ سَأَلْتَهُ عَن لِّقَاءِ رَبِّكَ قُلْ لَا يُفِيئُكَ ﴿٥﴾ [المزمل: ١-٥]

وأخبر تعالى أن في قيامه تواطؤ القلب مع اللسان: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦] أي: أشد أثراً على النفس، وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



[الإنسان: ٢٦]. جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

عباد الله: إن قيام الليل عبادة عظيمة وعمَل جليل، ولقد مدح الله به عباده المؤمنين، فذكر من أخلاقهم وشيئلتهم، ومحاسن عاداتهم وعباداتهم، ونوه بجميل خصالهم وجيل أعمالهم، ومن أخص ذلك قيام الليل، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [السجدة: ١٥-١٧] أخفوا قيامهم في الليل، وصار قيامهم سرًا بينهم وبين ربهم، فأنالهم الله ذلك الثواب العظيم، ما لا رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [السجدة: ١٧].

ووصفهم سبحانه في موضع آخر بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ [الفرقان: ٦٤-٦٦].

ومما وصف الله به عباده وامتدحهم بقيام الليل قوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءاخْذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُنَّ إِنَّهُنَّ لَأَتَمَّ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ [الذاريات: ١٥-١٨]. فهم قليلًا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، فهم يُحيون كثيرًا من الليل، ويختمون ذلك بالاستغفار عمًا قصرُوا وأسأوا.

وقال الله لنبية ﷺ مُرغَّبًا له في القيام: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ۗ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿ [الإسراء: ٧٩]. يقول ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه ذأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفيرٌ للسَّيِّئَاتِ، ومطردهٌ للدَّاءِ عن الجسد»^(١).

كذلك من فضائل قيام الليل: أنهم لا يستوتون عند الله، نعم لا يستوي من يقوم الليل ومن لا يقومه، فصاحب القيام أقرب إلى الله وأعلم به، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ آمَنَ هُوَ قَنِيْتُ

(١) صحيح الجامع (٤٠٧٩).



ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ [الزمر: ٩] هل يستوي إنسان قضى ليله غافلاً هائماً نائماً بين السهرات والقييل والقال ومضيعة الأوقات، وإنسان قائم في ليله يدعو ربه ويبكي من خشية الله جلّ وعلا، لا يستون عند الله.

أيها المسلمون: لقد كان من هدي نبيكم ﷺ أنه كان يقوم الليل ويداوم عليه، تقول عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تفتطرت قدماه، فسأته قائلة له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! تشير إلى قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فأجابها عليه الصلاة والسلام بقوله: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!». (١) فإن شكر الله على نعمه يكون بالتقرب إليه بالفرائض، وبالنوافل بعد الفرائض، وكلما تصوّر العبد نعم الله عليه دعاه ذلك إلى أن ينافس في صالح الأعمال.

ولقد أخبر ﷺ أن قيام الليل سبب لدخول الجنة والفوز بها بفضل الله ورحمته، قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لما قدم النبي ﷺ المدينة جفل الناس إليه، فكنت فيمن جفل إليه، فاستبنت وجهه فلم أر وجه كذاب، فسمعت أول ما قال: «أيها الناس: أطمعوا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (٢).

وأخبر ﷺ ما لقايم الليل في الجنة من النعيم المقيم، فقال: «إن في الجنة عرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنهما من ظاهرها. فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام» (٣).

أيها المسلم: فالمسلم في ليله وفي تهجده يشكر ربه، ويشكو ذنبه، ويناجي مولاه، فيسأله جنته ومغفرته، ويستعيد به من عذابه، ويرجو رحمته وفضله وإحسانه، إنه يقوم من فراشه ومن لذيذ منامه، ليقف بين يدي ربه في تلك اللحظات المباركة ووقت التنزل الإلهي، عندما

(١) رواه البخاري (٦٤٧١) ومسلم (٢٨١٩).

(٢) السلسلة الصحيحة (١١٣/٢).

(٣) صحيح الترغيب (٩٤٦).



ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فينادي: هل من سائل فيُعطى سؤله، هل من مستغفر فيُغفر له، هل من داع فتُجاب دعوته؟!

أيها المسلم: إن في قيام الليل فرصة لك لتسأل ربك ما أحببت من خيرِ الدنيا والآخرة، ففي ذلك الوقت العظيم المبارك فرصة لك لتشكو إلى الله حالك، وترجوه من فضله، وتتوب إليه من زللك وخطئك، وتسأله ما أحببت من خيرِ الدنيا والآخرة، فإنك تسأل كريماً وقريباً مجيباً وغنياً حميداً، يحب من عباده أن يسأله ويلتجئوا إليه، وقد وعدهم الإجابة فضلاً منه وكرماً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه، وذلك كل ليلة»^(١).

فهي ساعة إجابة وعطاء ومغفرة، وهي فرصة لك -أيها الحبيب- لتقوم بين يدي ربك، تناجيه وتسأله الثبات على الحق والاستقامة على الهدى، وأن يرزقك من فضله، ويعينك على ذكره وشكره، وأن يفتح حياتك بخاتمة خير، ولا يتوفاك إلا وهو راضٍ عنك.

أيها المسلم: قيام الليل له فوائد، يقول ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى ومنهاة عن الإثم وتكفير للسّيئات، ومطرده للذّاء عن الجسد»^(٢).

كل تلك الفوائد في قيام الليل، ومنها: أنه دأب الصالحين، أي: عاداتهم وديدهم، ومن هنا قيل: إن من لم يكن من عاداته قيام الليل فلا يسمى صالحاً، وإن كان مسلماً أو مؤمناً؛ لأن من صفات الصالحين ودأبهم: قيام الليل.

وسئلت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقيل لها: إن الله لم يفترض علينا سوى الصلوات الخمس، قالت: «نعم، لعمرى ما افترض الله عليكم إلا هذه الصلوات، ولن يطالبكم إلا بما افترض عليكم،

(١) صحيح ابن ماجه (٩٤٠).

(٢) صحيح الجامع (٤٠٧٩).



ولكنكم قوم تخطؤون وتذنبون، وما أنتم إلا من نبيكم، وما نبيكم إلا منكم، ولقد كان يحافظ على قيام الليل».

ومن أجهل الوصايا النبوية، ما جاء في قصة رؤيا عبد الله بن عمر بن الخطاب حيث قال كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا فَصَّهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَتَمَنَّتْ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقْصَاهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ - وفي رواية أنه كان يقول لنفسه: لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء - قَالَ وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبُئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنِي الْبُئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، - قَالَ - فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِي: لَنْ تُرَاعَ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ». قَالَ سَأَلْتُ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(١).

وقال ﷺ يوماً لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله: لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»^(٢).

أيها المسلم: قيام شيء من الليل فيه صلاحٌ لدينك، واستقامة لحالك، وتقرب إلى ربك رجاء الثواب، وستجد ذلك مُدْخَرًا لك أحوج ما تكون إليه، قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تصدقوا بصدقة السرِّ ليومٍ عسير، صلُّوا في ظلمة الليل لظلمة القبور، صوموا يومًا شديدًا حرُّه ليوم النُّشور».

أيها المسلم: إنَّ نبينا ﷺ كان يحافظ على قيام الليل، وإذا حُجز عنه لوجعٍ أو غيره قضاه في النهار، فكان يواظب على إحدى عشرة ركعة، فإذا عجز عنها لمرضٍ أو غيره صلّاها في الضُّحَى ثنتي عشرة ركعة.

(١) رواه البخاري (١١٢١) ومسلم (٢٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (١١٥٢) ومسلم (١١٥٩).



هكذا كان يحافظ على قيام الليل، حتى إنه يقضيه، وهكذا كان يحافظ عليه صحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان، فهو خلق أهل الإيمان، يزدادون به خيراً، ويزدادون به قرباً إلى الله، وهو والله نعيم قبل النعيم، وجنة قبل دخول الجنة، قال بعض السلف لما دخل عليه رجل ورأى أثر الخير عليه والنور على وجهه، فقال: (من قام بالليل حُسن وجهه بالنهار)، يعني أن لقيام الليل آثاراً على القائم.

قيل لعبد الله بن مسعود: ما نستطيع قيام الليل، قال: «قيدتكم خطاياكم، لو صدقتم الله لأعانكم، ألم تسمعوا الله يقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْبَعَاثَهُمْ فَبَطَّوهُمْ وَقِيلَ أَعْدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]؟!». وليعود الإنسان نفسه شيئاً فشيئاً حسب ما تطيقه نفسه ترغيباً له.

وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَامَ بَعَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِبِئْتَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْفَاتِنِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقْنَطِرِينَ»^(١) و(المُقْنَطِرِينَ): هم الذين أعطوا قنطاراً من الأجر. والقنطار: مقدار كبير من الذهب، وأكثر أهل اللغة على أنه أربعة آلاف دينار. وقيل: ملاء جلد ثور ذهباً.

والمراد من الحديث تعظيم أجر من قام بألف آية، وقد روى الطبراني أن النبي ﷺ قال: «والقنطار خير من الدنيا وما فيها»^(٢).

وهنا فائدة: يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (من سورة «تبارك» إلى آخر القرآن ألف آية)؛ فمن قام بسورة تبارك إلى آخر القرآن فقد قام بألف آية، ومن أراد فليقم بهائة آية، ومن عجز فلا أقل من أن يقوم بعشر آيات؛ لئلا يُكتب من الغافلين، نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين).

أيها الأحبة: إن قيام الليل نعمة يمن الله بها على من يشاء من عباده، فيجد ذلك القائم لهذا الوقت لذة وسروراً، وانبساطاً وانسراح صدر، وحلاوة وقرّة عين، وهو قائم يتلو كتاب الله ويتدبره، ويسبح الله ويمجده، ويشني عليه ويلجأ إليه، فما أعظمها من نعمة لمن وفق لها، ولا

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨) وصححه الألباني.

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٣٨).



يعرف قدرها إلا من مُنِح تلك النعمة، قال بعض السلف: (إنَّ أهلَّ الليل في ليالهم وتهجُّدِهم، ألذُّ من أهلِّ اللُّهُو في لهُوهم)، فهؤلاء في سبيلِ صلاحِ قلوبهم واستقامةِ حالهم، وهؤلاء في سبيلِ فسادِ قلوبهم والغفلة عن ربهم.

نعم والله إثمهم ألذُّ، وكما قيل: من كذَّب جرَّب، فمع أنه لا يوجد لهذا مُكذَّب، لكن أيضاً لا يكاد يوجد له مجرَّب!

فعلى المسلم الذي يرجو رحمةَ ربِّه أن لا يفوتَ هذا المقام الرفيع، وأن لا يحرم نفسه هذه النعمة العظيمة، ولو جزءاً يسيراً، وقياماً قليلاً، فما يزال العبدُ يألف تلك الطاعةَ ويحبُّها حتى يوفِّقه الله، فيجعله ممَّن اعتادها وأحبها والتدَّ بحلاوتها.

جعلني الله وإياكم من المسارعين لفعل الخيرات، إنَّه وليّ ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كلِّ ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنَّه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى حقّ التقوى.

عباد الله: إنّ لقيام الليل أسباباً لمن أراد ذلك وسعى في الخير، فمنها:

أن يحرص على الإقلال من السهر ما وجد لذلك سبيلاً، ولذا كان نبيكم ﷺ يكره النوم قبل العشاء، ويكره الحديث بعدها، فكان يكره النوم قبلها خوفاً من فواتها، ويكره الحديث بعد صلاة العشاء لأنه كان إذا صلى أوى إلى فراشه، فكان يكره طول الحديث والسهر الذي لا داعي له؛ خوفاً من أن يفوت عليه فرصاً عظيمة وخيرات كثيرة، من قيام الليل وصلاة الفجر جماعة.

ومن الأسباب: ترك الذنوب والمعاصي؛ قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد أعياني قيام الليل؟ إني أبيت معافي وأحب قيام الليل، وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟! فقال الحسن: (ذنوبك قيدتك).

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؟ فقال: (لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل؛ فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والمعاصي لا يستحق ذلك الشرف). وقال سفيان الثوري: (حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بسبب ذنب أذنبته).

ومما يعين على القيام: قلة الكلام والطعام، وقد كان بعض الصالحين يقف على بعض الشباب العبّاد إذا وضع طعامهم، ويقول لهم: (لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً).



ومن الأسباب المعينة على القيام: كثرة ذكر الله آناء الليل وآناء النهار، وأن تقرأ أذكار النوم، كالمعوذات وآية الكرسي عند منامك لتبعد عدو الله عنك، ففي الحديث: «من قرأ آية الكرسي كل ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح»^(١)، وتحتم بالآيتين من سورة البقرة، فمن قرأهما في ليلة كفتاه، وكان نبيكم ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا الله، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه، وأن أفترب على نفسي سواءً أو أجره إلى مسلم»^(٢)، وكان يجمع كفيه فيقرأ فيها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] ثلاثاً، ثم يمسح بهما رأسه ووجهه وما استطاع من جسده. صلوات الله وسلامه عليه^(٣)، وكان يفعل ذلك دائماً، حتى إنه لما مرض كانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تأخذ يديه، فتفتث فيهما، ثم تمسح بهما وجهه وما استطاعت من جسده.

فإذا كرر الإنسان هذه الأوراد وقرأها عند نومه وسبح الله وحمده وكبره ونام على خير وطهارة، وعزيمة على القيام، واستعانة بالكريم سبحانه؛ فإنه يرجو برحمة أرحم الراحمين أن يمن الله عليه، فيوقظه من غفلته، ويجعل القيام اللدّ عنده وأخف على نفسه من التقلب في الفراش؛ ويعينه في تلك اللحظات بطاعة ولو قلت، يجد ثوابها أحوج ما يكون إليه.

وأخبر ﷺ أن عدو الله إبليس لا يزال يثبط العبد عن فعل الخير، ويجول بينه وبين المبادرة إلى العمل الصالح، ولن يتغلب العبد عليه إلا بالالتجاء إلى الله والتعوذ من شره والتحصن بالأذكار، قال ﷺ: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إن هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فتم، فإن قام وذكر الله انحلت عقدة، وإن توضأ انحلت عقدة، وإن صلى انحلت العقد كلها، فأصبح طيب النفس نشيطاً، وإلا أصبح خبيث النفس»

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٣/٢٧٨) صحيح.

(٢) صحيح الترمذي (٣٥٢٩).

(٣) رواه البخاري (٥٠١٧).



كسلاًناً»^(١)، فسبحان مَنْ يَمَنُّ على مَنْ يشاء، وسبحان مَنْ يُوَهِّل لفضله من يشاء، وسبحان من يختار لفضله من يشاء من عباده، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

ونختم بذكر طرف من أخبار العابدين الصالحين، أصحاب قيام الليل:

قال ابن الجوزي: (واعلم أن السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات:

الطبقة الأولى: كانوا يجيئون كل الليل، وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء.

الطبقة الثانية: كانوا يقومون شطر الليل.

الطبقة الثالثة: كانوا يقومون ثلث الليل، قال النبي: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ صَلَاةُ

دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ صَوْمُ دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا»^(٢).

الطبقة الرابعة: كانوا يقومون سدس الليل أو خمسه.

الطبقة الخامسة: كانوا لا يراعون التقدير، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام،

فإذا انتبه قام.

الطبقة السادسة: قوم كانوا يصلون من الليل أربع ركعات أو ركعتين.

الطبقة السابعة: قوم يُحْيُونَ ما بين العشاءين، ويُعَسِّلُونَ في السحر،

فيجمعون بين الطرفين).

وكان أحمد بن حنبل يصلي في اليوم واللييلة ثلاثمائة ركعة، فلما حُبس وُضِرَ ومرض،

كان يتألم بعد ذلك أنه لم يعد يصلي سوى مائة وخمسين ركعة. لله درُّ هذه الهمم!

لقد كانوا رَجَّهَهُمُ اللَّهُ يستغرقون جميع أوقاتهم ومنتهى طاقتهم في طاعة الله من الصيام

والقيام والذكر والشكر؛ قال أبو حازم رَجَّهَهُ اللَّهُ: (لقد أدركنا أقوامًا كانوا في العبادة على حد

لا يقبل الزيادة!)

(١) رواه البخاري (٣٢٦٩) ومسلم (٧٧٦).

(٢) متفق عليه.



وكان يزيد الرقاشي يقوم الليل، فإذا فتر قال لنفسه: (يا يزيد: من يصلي عنك إذا متّ؟ من يصوم عنك إذا متّ؟) ثم يقوم حتى يصبح. قال عمر بن عبد العزيز: (أفضل الأعمال ما أكرهت إليه النفوس).

وكان أحد الصالحين يصلي حتى تتورم قدماه فيضربها ويقول: (يا أمّارة بالسوء ما خلقت إلا للعبادة).

ودخلت إحدى النساء على زوجة الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ، فرأت بللاً في مُصَلَّاه، فقالت لامرأته: ثكلتك أمك! أراك غفلت عن بعض الصبيان حتى بال في مسجد الشيخ؟ فقالت لها زوجة الأوزاعي: (ويحك هذا يُصبح كل ليلة، من أثر بكائه في سجوده).

لقد ذاقوا لذة المناجاة، وحلاوة القيام بين يدي الله، كما قال أبو سليمان الداراني: (لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا!).

طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا	إنّ لله عبداً فطناً
أنها ليست لحىّ وطننا	نظروا فيها فلما علموا
صالح الأعمال فيها سُفناً	جعلوها جُنةً واتخذوا

هذا وصلُّوا -رحمكم الله- على محمّد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



فضائل وآداب الجمعة^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، من هداه فهو السعيد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، أحمده سبحانه وأشكره، والشكر من أسباب المزيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أشرف من أظلت السماء، وأكرم من أقلت البيد، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، أهل التوفيق والتسديد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الوعيد.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الإخوة ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوه رحمكم الله حق التقوى، فتقواه أقوم وأقوى، وأعدوا واستعدوا فالأوقات تمضي، والأعمار تنقضي، ومن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة. وجنة الله لا تُنال بالتمني، ولا بشرف النسب، كما لا تنال بالفخر بعمل الآباء ولا الأجداد، ولا بالتكاثر في الأموال والأولاد: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُوفِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

أيها المسلمون: أمة الإسلام.. أمة المصطفى.. اصطفاها ربها واصطفى لها، واختارها واختار لها: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨] اصطفى لها الدين، واصطفى لها محمداً ﷺ، خياراً من خيارٍ من خيار، أكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً: ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



امتنَّ الله عليها بخصائص، وخصَّها بفضائل لم تكن للأمم قبلها، فاختار الله لها من البقاع مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الليالي ليلة القدر، وخص عشر ذي الحجة بمزيد من الفضل، وليوم عرفة من الشرف مالا يخفى، ويوم النحر يوم ضوابط التكفير الأكبر.

هناك مواسم للاجتهاد في الطاعات، ومناسبات للإقبال على العبادات، تتكرر وتدور، لتبدد الفتور، وتجدد النشاط، وتوقظ الغافلين، يُقبل المقبلون فيها على ربهم، فيزدادون له حبًّا ومنه قُرْبًا، مواسم تتجدد لينفكَّ العبد من الانهماك في أشغاله، ويتحلل فيها من قيود مهنته وأعماله.

أيها الإخوة: وإن من هذه الأيام ومن مواسم النفحات يومًا جلًّا بين الأيام قدره، وعلا في الإسلام ذكره، إنه عنوان الملة، وعيد أهل الإسلام، هدى الله له أمة الإسلام، وأضل عنه الأمم الأخرى، فحقُّ على الأمة أن تعرف قدره، وتحفظ منزلته، إنه يوم بدء الخليفة، ويوم منتهى الدنيا، إنه يوم الجمعة، عيد الإسلام، يشرق على المسلمين ليؤلف بينهم بالمودعة، ويربطهم برباط الجماعة، ويظهر فيهم الوحدة والعزة.

ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، والناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»^(١). وفي لفظ مسلم: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا؛ فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة»^(٢) وعند أبي داود وغيره من حديث أوس بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم تبلغني»^(٣) وعند مسلم: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة»^(٤). فهو أعظم مجامع المسلمين بعد يوم عرفة.

(١) رواه البخاري (٨٧٦) ومسلم (٨٥٥).

(٢) رواه مسلم (٨٥٦).

(٣) صحيح أبي داود (١٠٤٧).

(٤) رواه مسلم (٨٥٤).



ولقد كان من هدي رسول الله ﷺ تعظيم هذا اليوم، وتشريفه، وتخصيصه بعباداتٍ يختص بها عن غيره، فله في الدين أحكامٌ مقررة، وآدابٌ محفوظة مرعية.

ففي يوم الجمعة: يشرع قراءة سورة الكهف، كما أخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما بسندٍ صحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»^(١).

كما تستحب في هذا اليوم وليلته كثرة الصلاة على نبينا محمد ﷺ، كما في الحديث الصحيح: «فأكثرُوا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»^(٢). وفي حديثٍ آخر: «أكثرُوا من الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة»^(٣).

يقول الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (رسول الله ﷺ سيد الأنام، والجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيرة، وكل خيرٍ نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنها نالته على يده... فأعظم كرامة تحصل له إنما تحصل يوم الجمعة، إذ فيه بعثهم إلى قصورهم ومنازلهم في الجنة، ويوم الجمعة هو يوم المزيد إذا دخلوا الجنة، وهو عيدٌ لهم في الدنيا... وهذا كله إنما عرفوه وحصلوه بسببه وعلى يده عليه الصلاة والسلام، فمن شكره وأداء القليل في حقه أن يكثرُوا من الصلاة عليه في هذا اليوم والليلة). اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

ومن خصائص يوم الجمعة -أيها المسلمون- هذا المشهد الكبير، وهذا الجمع الغفير لصلاة الجمعة، إنها صلاة أسبوعية جامعة، يجتمع فيها المسلمون في مساجدهم الكبار ليشهدوا الخير والذكر، صلاة يعمر فيها المسلمون بيوت الله خير عمارة، ويذرون البيع واللهو

(١) رواه الحاكم (٢ / ٣٩٩) والبيهقي (٣ / ٢٤٩) قال ابن حجر في تحريج الأذكار: (حديث حسن، وهو أقوى ما ورد في قراءة سورة الكهف).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

(٣) قال الألباني في تمام المنة (٣٢٤): (حسن بمجموع طرقه، وهو صحيح دون ذكر «ليلة الجمعة»).



والتجارة، يتحللون من شئون معاشهم، ويتذكرون يوم معادهم، ويوثقون صلواتهم برهم، ويطمعون في مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

و«من توضع فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام»^(٢). نعم؛ فالجمعة فاستمع وأمثالها، وهذا يوم ليس كسائر الأيام، اجتماع إسلامي مهيب يزدان فيه المسلم بهاء المنظر، وطهارة المخبر، وشذا المسك والعنبر، اجتماع يشرح الصدور، ويسر القلوب، ويرضي الرب تبارك وتعالى، فتقررت له أحكام شرعية، وآداب مرعية، من الاغتسال والتطيب، واتخاذ الزينة، والعناية بسنن الفطرة، والمبادرة بالتبكير، والمشى للصلاة بسكينة وتوقير.

في الخبر عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيبه إن كان له، ولبس أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتي المسجد ثم يركع ما بدا له، ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينهما»^(٣).

وخطب النبي ﷺ يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار، فقال: «ما على أحدكم وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعه سوى ثوبي مهنته»^(٤) والمأثني إلى الجمعة له في كل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها، كما في خبر: «من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام فأنصت؛ كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها» وذلك على الله يسير^(٥). وهذا أعظم حديث في مضاعفة الثواب، كما ذكر ذلك أهل العلم، فلو أنك تخطو إلى بيت الله مئة خطوة، تكون قد حصلت على ثواب مئة سنة، وهذا قد يكون أكثر من عمر الإنسان، يحصله في بعض يوم أو في

(١) رواه مسلم (٣٤٩).

(٢) رواه مسلم (٨٥٧).

(٣) حسنه الألباني في صحيح ابن خزيمة (١٧٧٥).

(٤) صحيح ابن ماجه (٩٠٦).

(٥) صحيح الجامع (٦٤٠٥).



ساعة من نهار، فيا لله كم من أناس ماتوا وقد زادوا بهذا الحديث إلى ثوابهم، وأضافوا مئات السنين إلى أعمارهم، وكم من أناس ماتوا ولم يظفروا بالعمل به ولو لمرة واحدة، وذلك والله غبنٌ عظيم، نسأل الله أن يرزقنا العزيمة على الرشد وأن يعيننا على ذكره وشكره.

ومما يتأكد من الآداب: التبكير إلى هذه الصلاة في هدوءٍ وسكينة، من أجل استماع الذكر، وتدبر القرآن، والتهيؤ للإنصات للموعظة، وقبول النصح، لعل الله أن يغفر الذنوب، ويعظم الأجور، ومن ذا الذي يبخل على نفسه بالتقدم والبكور والمسارعة للاستكثار من الأجور؟! ولقد قال بعض أهل العلم: كانت الطرقات على عهد السلف عامرة وقت السحر وبعد الفجر بالمبكرين إلى الجمعة الذين يمشون بالشُّرج، ويقال إن أول بدعة أخرجت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، وإن البكور إليها دليل شدة العناية بها، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيّد بحسب قربهم من الإمام وتبكيرهم إلى الصلاة، ولهذا جاء عن علقمة قال: رحّت مع عبدالله - يعني: ابن مسعود، إلى صلاة الجمعة - فوجد ثلاثة نفر قد سبقوه، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد.

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «من راح في الساعة الأولى فكأنها قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنها قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنها قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنها قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنها قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»^(١).

ومن لطائف الأسرار في هذا المقام ما نَبّه إليه بعض أهل العلم حيث قال: لما كان يوم جمعة في أسبوع كالعيد في العام، وكان العيد مشتملاً على صلاة وقربان، وكان يوم الجمعة يوم صلاة، جعل الله سبحانه التبكير فيه إلى المسجد والمسارعة بدلاً من القربان.

عباد الله: من أحب الخير لنفسه فليقترب إلى الله وليبادر وليجتنب الشاغل بالشواغل، من قال لصاحبه: أنصت فقد لغا، ومن مس الحصى فقد لغا، وليمتنع عن إيذاء المصلين والتشويش عليهم بتخطي رقابهم، فقد جاء رجلٌ يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، ورسول

(١) رواه البخاري (٨٨١) ومسلم (٨٥٠).



الله ﷻ قائمٌ يحطُّب فقال له: «اجلس فقد آذيت وآنيت»^(١) أي: آذيت بالتخطي، وآنيت: تأخرت عن المبادرة والتبكير.

كما ينبغي للمسلم إيذاء إخوانه بالروائح الكريهة في بدنه وملبسه ومأكله ومشربه، أو إزعاجهم بالنغمات الصاخبة في هاتفه، بل ينبغي ضبط الهاتف ليسلم للعبد خشوعه وأجره. ومن الآداب: حسن الاستماع إلى الخطبة، فهي موعظةٌ للمتقين، وذكرى للمؤمنين، وتنبية للغافلين، وتعليم للجاهلين، هي تزكية للنفوس، وترقيقٌ للقلوب، وشفاء للصدور، وتذكيرٌ بالله، وترغيبٌ في ثوابه، وترهيبٌ من عقابه، وما أنفع الكلم الطيب حين تحيا به القلوب!

خطبٌ ومواعظ، فيها الثناء على الله، وتمجيده والشهادة له بالوحدانية، ولنبئه بالرسالة والبلاغ، وتذكيرٌ للعباد بأيام الله، ووصيتهم بتقواه، وما يقربهم إليه وإلى جنانه، ويباعدهم عن سخطه ونيرانه.

خطبٌ مشتملة على أصول الإسلام، وقواعد الديانة، وما تقتضيه الأحوال، وحثٌ على الفضائل، واجتناب الرذائل، مما يصلح الفرد والمجتمع في العاجل والآجل، إنها تجديدٌ للعزائم، وتواصي بالشئال والمكارم، دعوات حق، وكلمات صدق، أمرٌ بمعروف، ونهيٌ عن منكر، بالحكمة والموعظة الحسنة.

الله أكبر! حين تخرج هذه المواعظ من قلوب صادقة، لا ترى لها فضلاً على سامعها، لتصب في آذان صاغية، وأفئدة منسرحة، تحب الناصحين، وتستجيب للواعظين، تسمع حين تسمع بقلوب واجفة، وأجساد خائفة، تتلقى أوامر ربها على وجه العناية والرعاية، فتستفيق القلوب الغافلة، وتنشط الهمم الوانية، ويراجع المرء نفسه لينظر ما قدمت يداه، وتقف النفس وقفة صادقة لتتظر ما قدمت لغد.

هذه هي خطب الجمعة، في مضامينها وعظاتها، وهذا هو المصلي الناصح لنفسه، قد نفعه ربه بالإرشاد والعظات، وحسن الاستماع والإنصات.

(١) صحيح الجامع (١٥٥).



مظاهر الغفلة عن صلاة الجمعة:

يقابل ذلك -أيها الإخوة- قومٌ غافلون، متهاونون، كأنه لم يطرق آذانهم الوعيد الشديد، فلم يعرفوا لهذا اليوم حقه، ولم يكثرثوا بفضلِه: «من ترك ثلاث جمعٍ تهاونًا، طبع الله على قلبه»^(١)، بهذا صح الخبر عن نبيكم محمد ﷺ، ويقول عليه الصلاة والسلام وهو قائمٌ على أعواد منبره: «لنتهين أقوامٌ عن ودعهم الجمع والجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»^(٢).

قومٌ ساهون لا يقيمون لهذا اليوم وزنًا، ولا يحسبون له حسابًا، أهل لهوٍ وغفلة يعبُونَ من اللهو عبًا، ويشربون من الأهواء بأوفى المكاييل، لا يعرفون بيوت الله، ولا يشرف أحدهم في إقامة شعائر الله، منهم من بجوار المساجد بيوتهم ولكنهم أبعد الناس عنها بقلوبهم، نسأل الله أن يوفقنا وإياهم لطاعته، وأن يشرح صدورنا لمرضاته.

وهناك فئة كسالى، قد يأتون إلى المساجد في فتورٍ وملل، ينتظر الواحد منهم إقامة الصلاة؛ ليأتي مسرعًا نائر النَّفسِ والنَّفسِ، فيدخل إلى الصلاة مشوش الفكر، شارد الذهن، لم يراعِ أدب الإسلام في دخول بيوت الله، ولم يعمل بسنة رسول الله ﷺ في التزام السكينة والوقار، فاته أجر التبكير إلى الصلاة، أما علم هذا أن منتظر الصلاة كالمرابط في سبيل الله، والملائكة تستغفر له ما دام في مصلاه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه؟ قال عليه الصلاة والسلام: «لا يزال قومٌ يتأخرون حتى يؤخرهم الله»^(٣).

ومن أصناف الغافلين أيها الإخوة: من لا يدعوه إلى الإنصات وحسن الاستماع إلا حب التطلع والاستطلاع، ليقارن بين هذا وذاك، ولعله مبتلى بتتبع الزلات، وعد الهفوات، مما ليس من مسالك صالح المؤمنين، وإلا فمن ذاك فينا معصوم؟ ومن الذي يسلم من الخطأ؟

(١) صحيح الترغيب (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٨٦٥).

(٣) رواه مسلم (٤٣٨).



أو يستغني عن النصح؟ وليس كل قائل خير من سامعه، ولا كل متبوع خير من تابعه، ولكن:

يَكْمَلُ بَعْضُنَا بَعْضًا بنصح فيه توضيح
وقد يُغني عن التصريح إجمالاً وتلميحاً

ومن مظاهر الغفلة والذل والانهماز عند بعض المسلمين: إعلائهم لشأن أعياد الكفار وأيامهم، حتى تضاءلت منزلة يوم الجمعة عندهم، فلا يقيمون لها وزناً، ولا يرفعون لها شأنًا، وكأنها ذيلٌ في آخر الأسبوع، ليس لها عندهم من الرعاية الشرعية ولا الرسمية كما يعتنون بأعياد الأمم الأخرى الأسبوعية وأيامها، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

إن حقاً على من أحب الخير لنفسه أن يعرف لهذا اليوم فضله، ويعطيه حقه، ويتقرب إلى الله بما يستطيع من العبادات المشروعة، ويؤدي الواجب، رغبة في الخير، وتلمساً للفضل، مقبلاً على مواطن الطاعات، بالعزائم النشطة، والنفس المتفتحة، والآمال الواسعة، بفضل الله وبرحمته يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ٩-١١].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد ﷺ، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنبٍ وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.





الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غناء إلا في الافتقار إلى رحمته.

أحمده سبحانه وأشكره، إذا أطيع شكر، وإذا عصي تاب وغفر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، آمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وحقته على الخلائق أجمعين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فيا أيها الإخوة: هذا هو يوم الجمعة بفضله ومنزلته، وذكره وخصائصه، وذلكم هو الدين بحكمه وحكمته، فليس الدين بصومعة منعزلة، ولا الدنيا بسوقٍ منفصلة، لكن المسلمين إذا فرغوا من صلاتهم لم ينقطعوا عن الصلة بربهم، ولم يغفلوا عن ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] عملٌ وكد، ونشاطٌ وجدٌّ، مع ذكرٍ وشكر، لا انفصام بين ذلك ولا انفصال.

كان عراك بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انصرف فوقف بباب المسجد ثم قال: «اللهم إني أجبث دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك فأنت خير الرازقين».

فلماذا -يا عبد الله- لا تتحلل بحلل الصالحين، وتزينا بزبي المتقين، وتكثر من ذكر الله وتلاوة كتابه، وتكثر أيضًا من الصلاة والسلام على حبيبه وخليله محمد ﷺ، وتحرص على حفظ إخوانك، فلا تفرق بين اثنين، وتصلح من خاصمت، وتتقي الله عسى أن تريح وتفجح؟ فكملم نفسك بالمحامد، وارعها في دواوين المتقين الأماجد.

واعلم -وفقك الله- أن أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَد نَصَوْا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ السَّفَرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِمَن تَلَزَمَهُ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ سَيُؤَدِّيهَا فِي مَسْجِدٍ فِي طَرِيقِهِ.



ولا تنسى - وفقني الله وإياك - أن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فقد قال ﷺ: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائمٌ يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه»^(١)، وأرجى أوقاتها ساعتكم هذه، وما بين العصر إلى غروب الشمس.

ألا فاتقوا الله - رحمكم الله - واجتهدوا في الخير تصيبوه بإذن الله، وتحروا الفضل تبلغوه إن شاء الله، ثم صلوا وسلموا على عبد الله ورسوله محمد نبيكم فقد أمركم ربكم فقال قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) صحيح النسائي (١٤٣١).

الجنائز آداب وأحكام^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتفرد بالبقاء، ذي العزة والكبرياء، كتب مقادير الخلائق وأقسامها، وقدّر أمراضها وأسقامها، سبحانه وبحمده، له ما في السماوات وما في الأرض ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، رحمةً من لدنه وفضلاً، وحكمةً منه وعدلاً. أحمده سبحانه وأشكره على حلو القضاء ومُمرّه، وأعوذ به من سطوته ومكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مستزيداً من إحسانه وبرّه.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أحاطه ربه بتأييده ونصره، وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم بعثه وحشره؛ أما بعد:

فيا عباد الله اتقوا الله كما أمركم في محكم كتابه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أيها المسلمون: الدُّور ثلاث: أولاً: دار الدنيا. ثانياً: دار البرزخ. ثالثاً: دار الآخرة.

وابن آدم: روح وجسد، والدار الآخرة هي دار القرار التي يقوم فيها الناس لرب العالمين.

والنعيم المقيم، والعذاب الأليم، على الأرواح والأجساد، والقبر آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة، وهو إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وشدته أمانة للشدائد كلها، وما يراه العبد فيه عنوان ما يصل إليه.

(١) صالح بن حميد.



والموت ليس عدماً محضاً، ولا فناءً صرفاً؛ ولكنه تبدُّل حال، وانتقال من دار إلى دار، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [المك: ٢]، قال بعض أهل العلم: قدَّم ذكر الموت على الحياة تنبيهاً إلى أنه يتوصل به إلى الحياة الحقيقية، وقد قال عز شأنه: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إن حقاً على العاقل اللبيب: النظر والتفكير، والمحاسبة والتدبر، فكأس المنايا تذوقها حتمً على كل حي، فهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود إلا العدم، على هذا مضت الخلائق، وعلى هذا جُبلت الدنيا، اجتماع وفرقة، حيا وممات، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [١٦] وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ لَأَلَّا يَفِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

والمصائب خطبٌ موجه، والمنايا حولٌ مفتح، والغنيمة بالصبر والرضا وحسن الظن والاستعداد؛ حتى قال بعض السلف: (لولا المصائب لوردنا القيامة مفاليس)، والمرء إذا مات سلا عنه أحبابه، ونسيه أصحابه، وذُهل عنه من أنفق عمره في محبته، وأتعب نفسه في ملاطفته.

فإذا تذكر الموت متذكر فليكن تذكره لا من أجل فراق الأحباب والأصحاب؛ ولكن من أجل فراق العمل لدار القرار، والزاد للمنقلب والمصير، فمن نظر نظرة استعداد ووجل، زاد في الجِد والعمل.

أيها الإخوة: وهذه وقفة تذكُّر وتذكير بحال المسلم وهو يودِّع دار الدنيا ويُقبل على ربه، فهذه الجنائز تمرُّ على الأسماع والأشخاص وقليل من يدِّكر، وقفة مع أحكامها وآدابها وحكمها وعبرها؛ فدينكم دين الإسلام لم يترك شاذة ولا فاذة إلا وضحها وبينها في حكمها وأحكامها، وعبرها وأسرارها.

وفي هذا المقام يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (وهدي رسول الله ﷺ في هذا أفضل الهدى، فهو يشتمل على الإحسان إلى الميت، ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده، وعلى الإحسان إلى أهله وأقاربه، وعلى إقامة الحي العبودية لله وحده فيما يُعامل به الميت، وتجهيز المتقل إلى الله



على أحسن أحواله؛ فالمسلمون يقفون صفوفًا يحمدون الله ويستغفرونه لميتهم، ويسألون الله له الرحمة والمغفرة والتجاوز عنه، ثم المشي بين يديه إلى أن يودعوه قبره، ثم يسألون له الثبیت، فهو أحوج ما يكون إليه، ثم يتعاهدوه بالزيارة في قبره، للسلام عليه، والدعاء له، كما يتعاهد الحي صاحبه في دار الدنيا). اهـ

ومن أجل مزيد تفصيل في ذلك أيها المسلمون! فإن أول ما يُنبَّه إليه من الآداب والأحكام: أن يُتعاهد المريض في مرضه؛ فيؤمر بالصبر على ما أصابه، والرضا بقدر الله، وإحسان الظن بربه، فذلك حال المؤمن ف«أمره كله له خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن»^(١) ويكون على حال من الخوف والرجاء، يخاف عقاب الله بسبب ذنبه وتقصيره، ويرجو رحمته بما يعلم من سعة رحمته.

دخل رسول الله ﷺ على شابٍ وهو في مرض الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: والله يا رسول الله إني لأرجو الله وإني لأخاف ذنوبي، فقال له رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف»^(٢).

وليؤدِّ الحقوق إلى أصحابها إذا تيسر ذلك، وإلا فليوص بها، وتوشك المنيا أن تسبق الوصايا، وإذا كان عنده فضل مال فليوص بالثلث فأقل للأقربين من غير الوارثين، ولمن أحب من المسلمين، وكذا في وجوه الخير، وكم هو جميل أن يحتاط المرء لنفسه فيجعل من وصيته أن يجهز ويدفن على السنة؟ وقد قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أنا متُّ فلا تؤذِنوا بي أحدًا فإني أخاف أن يكون نعيًا، وأني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النعي» وقال الإمام النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ويستحب له استحبابًا مؤكدًا أن يُوصيهم باجتناّب ما جرت به العادة من البدع في الجنائز، ويؤكد العهد بذلك).

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) صحيح الترمذي (٩٨٣).



وإذا حضره الموت فعلى من حضره من أهله أو غيرهم تذكيره بالآخرة وأمره بالتوبة برفق وتلطف، وأن يلقنه الشهادة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»^(١)، ويدعون له، ولا يقولون إلا خيراً، فقد جاء في الخبر: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»^(٢).

فإذا قضى وأسلم الروح؛ فُتَغَمَّضَ عيناه، ويُغَطَّى بدنه ووجهه، ويُدعى له، تقول أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قَبِضَ تبعه البصر»؛ فضج ناس من أهله، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا ولهم يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه»^(٣).

ولا مانع من تقبيله لمن أحب ذلك من أقاربه أو معارفه.

ومن السنة: الإسراع في تجهيزه ودفنه بعد تيقن وفاته؛ ففي الحديث الصحيح: «أسرعوا بالجنائز! فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تكن سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»^(٤)، وعند أبي داود: «لا ينبغي لجيفة مسلم أن تبقى بين ظهراني أهله»^(٥).

ولا مانع من التأخير لمصلحة تتعلق بذلك؛ كانتظار قريب يحضر قريباً، أو للتعرف على سبب الوفاة إذا كانت بجناية أو جريمة، ثم يقوم بتغسيله من يحسن ذلك من المسلمين العدول ذوي الثقة والديانة من أقاربه أو غيرهم.

وفي صفة التغسيل تقول أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «دخل علينا رسول الله ﷺ ونحن نغسل ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو سبعا أو أكثر من ذلك إذا رأيتن ذلك. قالت:

(١) صحيح الجامع (٥١٥٠).

(٢) رواه مسلم (٩١٩).

(٣) رواه مسلم (٩٢٠).

(٤) صحيح الجامع (٩٦٤).

(٥) رواه أبو داود برقم (٣١٥٩) وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: (ما سكتُ عنه فهو صالح).



قلت: وترًا؟ قال: نعم! واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتنَّ فأذنتني، قالت: فلما فرغنا أذناه، فألقى إلينا حقوة -أي: إزاره- فقال: أشعرنها إياه -أي: اجعلنه يلي جسدها- قالت أم عطية: فمشطتها ثلاثة قرون، وفي رواية: «نقضنه ثم غسلنه وظفرن شعرها ثلاث ظفائر، قرنيها وناصيتها وألقينه خلفها، قالت: وقال لنا: ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»^(١). ويُطَّيب في بدنه وكفنه، والرجل يغسله الرجال، والمرأة يغسلها النساء، والزوجان يغسل أحدهما الآخر، ومن كان دون سبع سنين يغسله الرجال والنساء. ومن الآداب في حق الغاسل: أن يستر ما يرى، ولا يحدث فيما قد يطلع عليه من مكروه، ولا يحضر الميت إلا الغاسل ومن يعينه، ثم يُكفَّن بكفن ساتر لجميع البدن، ويكون الكفن حسنًا أبيضًا نظيفًا أو جديدًا من غير سرف ولا مغالاة، وإذا تيسر فيكون للرجل ثلاثة أثواب؛ فإن رسول الله ﷺ كُفَّن في ثلاثة أثواب سحولية من كرسف -أي: من قطن- ليس فيها قميص ولا عمامة، أُدرج فيها إدراجا، والمرأة تُكفَّن في خمسة أثواب إذا تيسر، إزار وخمار وقميص ولفافتين، ثم يُصلى عليها، وكلَّمَا كثر المصلون كان أفضل للميت وأنفع، ويُستحب أن تكثر الصفوف خلف الإمام ثلاثة صفوف فصاعدًا، وفي الحديث: «ما من ميت يُصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شُفِّعوا فيه»^(٢)، وفي حديث آخر: «إلا غفر له»، وفي الحديث أيضًا: «ما من رجل مسلم يموت ويقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يُشركون بالله شيئًا إلا شُفِّعهم الله فيه»^(٣).

وصفة الصلاة: أن يكبر أربعًا، يقرأ بعد الأولى سورة الفاتحة، وبعد الثانية يُصلى على النبي ﷺ، وبعد الثالثة يُخلص الدعاء للميت، وبعد الرابعة يُسَلِّم تسليمًا واحدًا، ولو سلَّم تسليمتين فلا بأس.

(١) رواه مسلم (٩٣٩) وغيره.

(٢) رواه مسلم (٩٤٧).

(٣) رواه مسلم (٩٤٨).



ومن الدعاء المأثور في ذلك: «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأثنا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته فتوفه على الإيمان، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الذنوب والخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وأدخله الجنة، ووقه فتنة القبر وعذاب النار»^(١).

واتباع الجنائز حق من حقوق المسلم، وفي الصحيحين: «من شهد الجنائز حتى يُصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تُدفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين - وفي لفظ مسلم - أصغرهما مثل أحد»^(٢). قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو راوي الحديث: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة» ويُسنَّ الإسراع بها.

يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد رأيتنا ونحن مع رسول الله ﷺ نرمل رملاً»^(٣) وهو إسراع من غير شدة يُخاف منها ضرر على الميت، أو مشقة على المشيعين، ويمشي أمامها وخلفها، وعن يمينها وعن يسارها، والراكب يسير خلفها.

يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يمشون أمام الجنائز وخلفها»^(٤).

والنساء لا تتبع الجنائز ولا تزور المقابر؛ لنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، ولا يجوز أن يتبع الجنائز ما يخالف الشرع، يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعلم أن الصواب والمختار ما كان عليه السلف - رضوان الله عليهم - من السكون والسكوت في حال السير مع الجنائز؛ فلا ترفع أصوات بقراءة ولا بذكر ولا غير ذلك). قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (والحكمة في ذلك ظاهرة، وهي أنه أسكن للخاطر، وأجمع للفكر، قال: ولا تغتر بكثرة المخالفين).

(١) رواه مسلم (٩٦٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٢٥) ومسلم (٩٤٥).

(٣) صحيح أبي داود (٣١٨٢).

(٤) صححه في إرواء الغليل (١٩١/٣).



والدفن في القبر من إكرام الله لابن آدم، قال جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَمَّانَهُ، فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١] ويوسع القبر، ويعمَّق ويُلحِّد، يقول عليه الصلاة والسلام: «احفروا، وأوسعوا، وأعمقوا، وأحسنوا»^(١). ويدخل الميت القبر من قِبَلِ رجله، يقول ابن سيرين: كنت مع أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي جنازة، فأمر بالميت فَشُلَّ من قِبَلِ رجله في القبر، ويوضع على جنبه الأيمن، ووجهه نحو القبلة، ثم يُسَدُّ اللحد ويدفن، ويرفع القبر عن الأرض قليلاً ويجعل مُسْتَمًّا، فإذا فرغوا من الدفن استُحِبَّ أن يدعوا للميت ويستغفروا؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل».

والقبور محترمة لا تُهان، ولا تُتوطأ، ولا يُجلس عليها، ولا يُتَكأ، ولم يكن من هديه عليه الصلاة والسلام ولا سنته تغطية القبور، ولا تشييدها، ولا البناء عليها، وكل هذه بدعٌ منكرة مخالفة لهديه عليه الصلاة والسلام.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله- وزوروا القبور؛ فإنها تذكُر الآخرة، وأكثروا من ذكر هادم اللذات -الموت- فمن أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: أولاً: تعجيل التوبة. ثانياً: قناعة القلب. ثالثاً: نشاط العبادة.

ومن نسي الموت عوقب بثلاث: أولاً: تسويف التوبة.

ثانياً: ترك الرضا بالكفاف. ثالثاً:

الكسل في العبادة. يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكَمْ يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد ﷺ، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) صححه الألباني في تحريج مشكاة المصابيح (١٦٤٤).



الخطبة الثانية:

الحمد لله خلق فسوى، وقدر فهدى، وأسقم وعافى، وأمات وأحيا، وأن عليه النشأة الأخرى.

أحمده سبحانه وأشكره، يُجزي كل نفس بما تسعى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، هدى من الضلالة، وبصر من العمى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، هم المعالم على الهدى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى.

وبعد:

يقول تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، الصلاة عون على مواجهة المصائب والكروب، ولما جاء ابن عباس - وهو في طريق سفره - خبر وفاة أخيه قثم، نزل عن دابته، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم قال: «فعلنا ما أمر الله به».

فلتعلموا - رحمكم الله - أن من آداب الجنائز: الحمد والاسترجاع والرضا، قال سبحانه: ﴿وَشَرَّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وليقل: «اللهم أجرني في مصيبتى واخلفني خيراً منها»^(١). وحزن القلب، وبكاء العين دون نياحة أو تسخُّط هو من طبع النفس وجبَلَّتْها، فلا حرج فيه ولا مؤاخذة، وقد بكى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وذرفت عيناه، وقال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٢).

وتحرم النياحة: وهي شيء زائد عن البكاء، من رفع الصوت، وضرب الوجه، وشق الجيب، وجذب الشعر ونشره، وفي الحديث: «ليس منّا من لطم الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(٣).

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

(٣) رواه البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٣).



قال ابن القيم: (إن الجزع يُشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب أنضى شيطانه وردّه خاسئًا، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزوه، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الحدود وشق الجيوب والدعاء بالويل والثبور والسخط على المقدور).

وقد برئ الرسول ﷺ من الصالقة: وهي التي ترفع صوتها عند المصيبة. ومن الخالقة: وهي التي تتنف أو تحلق شعر رأسها جزعًا. ومن الشاقة: التي تشق جيبها وثوبها تسخُّطًا. يقول عبيد بن عمير: (ليس الجزع أن تدمع العين، ويحزن القلب؛ ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ).

ومن الآداب الشرعية المرعية: تعزية أهل الميت؛ فيعزيهم بما يسليهم، ويكف أحزانهم، ويحملهم على الرضا والصبر، ويأتي من الدعاء والألفاظ بما ثبت في السنة، وما لا يخالف الشرع، كأن يقول: إن الله ما أخذ، والله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. أو: أحسن الله عزاءك، وجبر مصابك، وأعظم أجرك، وغفر لميتك، وأخلفك خيرًا منه، وألهمك الصبر، ورزقك الشكر، والمحروم من حُرَم الثواب، والمأثوم من جزع لأليم المصاب.

إن لله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودرگًا من كل بائس، فبالله فتق، وإياه فارح، فإن المصاب من حرم الثواب، وإياك أن يحبط جزعك أجرك، فتندم على ما فات من ثواب مصيبتك، وإنك لو اطلعت على عظمة ما أعد الله لفضل المصابين لعرفت أن المصيبة قد قصرت عن الثواب.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، ويقول الحسن البصري: (ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة مُحَرَّقة رَدَّها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ رَدَّها صاحبها بحلم).

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله- وتذكروا واعتبروا بسرعة زوال هذه الدار، وقرب الارتحال لدار القرار، فأنتم في دار ممر، لا دار مقر، فليصبر ساكنها فإنها طُبعت على كدر، (وليطفى نار



مصيبته يبرد الناسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد، فلو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظلم زائل؛ إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، ولا سرته بيوم سرور إلا خبات له يوم شرور) ابن القيم.

ومن أصيب بمصيبة فليذكر أعظم المصائب، وهي مصيبة موت النبي ﷺ، كما في الحديث: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب»^(١).

اصبر لكل مصيبة وتجلد
واعلم بأن المرء غير مخلد
وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها
واذكر مصابك بالنبي محمد

ثم صلوا وسلموا على من خاطبه ربه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِنَشْرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربكم؛ فقال عز قائل علياً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





فريضة الزكاة في الإسلام^(١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفبه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فرض الزكاة على عباده تزكية للنفوس، وتطهيراً للقلوب، وتنميةً للأموال، وسدًا لعوز المحتاجين، وتحقيقاً لروح المودة والإخاء، والرأفة والرحمة والصفاء، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، ومصطفاه وخليله، ومجتباه وحببيه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً؛ أما بعد:

أيها المسلمون: اتقوا الله جل وعلا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، واعملوا أن دينكم الإسلامي الذي من الله به عليكم ورضيه لكم، وأكرمكم بالانتساب إليه، قد بني على أسس متماسكة، وقواعد مترابطة، إذا اختل منها شيءٌ تصدع ما سواه. قال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام من استطاع إليه سبيلاً»^(٢).

أيها المسلمون: إن من هذه الأركان العظيمة، ركناً عظيماً تساهل الناس فيه، وعمت الغفلة عنه؛ لضعف الإيمان في النفوس، وإيثار العاجلة بزيتها وأموالها ومتاعها؛ على الآجلة الباقية، ألا وهو الزكاة.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦).



الزكاة - عباد الله - هي الركن الثالث من أركان هذا الدين، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال عز وجل: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. فقد ذكر الله الزكاة في كتابه مقرونةً بالصلاة تعظيماً لشأنها، وتنويهاً بذكرها، وترغيباً في أدائها، وترهيباً من تركها والتساهل فيها.

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١).

فالزكاة يا إخوة الإسلام: ثالث أركان هذا الدين العظيم، من جحد وجوبها كفر، ومن منعها أخذت منه قهراً، ومن حبسها تهاوناً، وأمسكها تكاسلاً، وكتمها بخلاً، وغيبها شحاً، أو أنقصها أو أخرها عن وقت وجوبها، مع إمكان أدائها وداعي إخراجها، فهو عاصٍ وأثم ومعتدٍ وظالمٌ، لا يسلم من تبعثها، ولا يخرج من عهدتها إلا بإخراج ما وجب في ذمته منها وتعلق به من حقها، ومن مضت عليه سنون لم يؤدِّ زكاتها لزمه إخراج الزكاة عن جميعها، والتوبة والاستغفار عن تأخيرها.

في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وقيموا الصلاة، يؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»^(٢). ولذا قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها. وكان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا جاء رمضان خطب الناس وقال: «هذا شهر الزكاة، فأخرجوا فيه زكاة أموالكم». وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ثلاث

(١) رواه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢١).

آيات مقرونة بثلاث، لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه.

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه».

أيها المسلمون: والزكاة في الإسلام حق الفقراء في أموال الأغنياء، وهذا الحق أوجبه الله عزَّ وجلَّ، وهو حق معلوم قد حددت الشريعة مقاديره وأنصبتة المختلفة في أنواع الأموال، وحصيلة الزكاة لا تترك للأهواء، بل حدد الإسلام مصارفها في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]. فيجب إخراج الزكاة على الفور بوضعها في مواضعها، وصرفها في مصارفها، وإيصالها إلى مستحقيها، وهم ثمانية أصناف، لا يجوز صرفها إلى غيرهم من بناء المساجد والقناطر وتكفين الموتى ووقف المصاحف وغيرها من جهات البر والخير.

أيها المسلمون: ولقد ورد الترهيب الشديد والوعيد الأكيد لمناعي الزكاة، وفي حق من قصر فيها، وتساهل في أدائها، تحذيرًا وإنذارًا، وإبداءً وإعذارًا، بأسلوبٍ لو خوطبت به الجبال الصم؛ لخشعت وتصدعت، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦-٧]. وقال تعالى في آية أكثر تفصيلاً لما يحق بمانع الزكاة من الويل والثبور يوم البعث والنشور: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

إن هذه الأموال لما كانت أعزَّ الأموال على أربابها، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة إذا منعوا زكاتها، فيحتمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرَّها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال أهل العلم: لما طلبوا باكتنازها المال والجاه شان الله بها وجوههم، ولما طووا كشحًا عن الفقير إذا جالسهم كويت جنوبهم، ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتمادًا عليها كويت ظهورهم. وقد بينت سنة النبي ﷺ كيفية هذا الكي؛ فقد جاء في



صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(١). إن هذا العذاب ليس في يومٍ أو شهرٍ أو سنة، لكنه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، فقولوا لي بالله عليكم: من ذا الذي يطيق ذلك الهول العظيم؟! ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وروى البخاري عن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا النبي ﷺ الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»^(٢)، أي: إن المال يمثل له في صورة شجاع أقرع، والشجاع الحية الذكر، والأقرع الذي طال عمره وسقط شعره، والزبيبتان نقطتان سوداوان فوق العينين، وهو أخبث الحيات، يطوقه ثم يأخذ بشفتيه فيقول: أنا مالك.. أنا كنزك..

ولم يقف الشرع - عباد الله - عن حد الوعيد بالعقاب الأخرى، بل هدد كل من يبخل بحقه عز وجل بالعقوبة الدنيوية وبالنكال والوبال وإذهاب البركة من المال؛ كما حكى الله عن أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَافِيفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهَمَّ نَاقِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ آغِدُوا عَلَيْنَا حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهَمٌّ يَنْخَفُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدَّوْا عَلَيْنَا حَرِّ قَدْرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُخْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْفَل لَكُمْ لَوْلَا نُسَيْتُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا ذُرُّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣]، فمانع الزكاة مهدد في الدنيا كذلك بزوال ماله،

(١) رواه مسلم (٩٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٥).

وقال ﷺ: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»^(١)، وقال ﷺ: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»^(٢).

أيها المسلمون: في إيجاب الزكاة مواساةً للفقراء، ومَعونةً للْبُؤْسَاءِ والضعفاء، وصِلَة بين ذَوِي الْحَاجَاتِ والأغنياء، وعونٌ على مجانبة البخل والشح والإبَاءِ عن العطاء، كم سَدَّتْ الزكاة مِن خَلَّةٍ، وَكَمْ جَبَرَتْ مِنْ فَاقَةٍ، وَكَمْ فَرَّجَتْ عَنْ مَعْسِرٍ كُرِبَ، فَضَائِلُهَا لَا تَعَدُّ وَبَرَكَاتُهَا لَا تُحَدُّ.

فِيَا مَنْ جَمَعَ الْمَالَ وَأَوْعَاهُ، وَكَنَزَهُ وَأَخْفَاهُ، سَتَنَالُ عِقَابَ مَا بَخِلْتَ، وَسَتُعَايِنُ شَوْمَ مَا عَمِلْتَ.

يَا مَانِعَ الزَّكَاةِ: أَنْسَيْتَ أَنَّ الْأَمْوَالَ عَارِيَةٌ عِنْدَ أَرْبَابِهَا، وَوَدِيعةٌ عِنْدَ أَصْحَابِهَا؟! أَنْسَيْتَ أَنَّ الزَّكَاةَ يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْكَ وَيَرْجِعُ ثَوَابُهَا إِلَيْكَ؟! فَحَذَارِ حَذَارِ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَرَاهَا نَقْصًا وَيَعِدُّهَا غُرْمًا وَخَسَارًا، فَلَا يَنْفِقُ إِلَّا كَرْهًا، وَلَا يَرْجُو لِمَا يُعْطَى ثَوَابًا.

يَا أَهْلَ الْمَالِ وَالرِّيَاشِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ: ارْحَمُوا السَّائِلَ الْمُحْرَمَ، وَأَعْطُوا الْفَقِيرَ الْمَعْدُومَ، وَتَصَدَّقُوا عَلَى الْمَسْكِينِ الْمَهْمُومِ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يَقُومُ بِهِ وَكِفَايَتَهُ وَكِفَايَةَ مَنْ يَعُولُ.

يَا أَهْلَ الْبَدْلِ وَالسَّخَاءِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْعَطَاءِ: أَبْشِرُوا بِحَسَنِ الْجَزَاءِ وَالْحَلْفِ وَالْبِرْكَاتِ وَالنَّهْأِ، فَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»^(٣).

بَارِكْ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَنَفْعِنِي وَإِيَاكُمْ بِهَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ، أَقُولُ مَا سَمِعْتُمْ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ..

(١) صحيح الترغيب (٧٦٣).

(٢) صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين وخاتم النبيين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

ويعد:

عباد الله: إن تكاليف الحياة كثيرة ومتزايدة، التكاليف ترهق الكاسب وتفتن الكاسد، الكاسب تتضاعف عليه النفقة، فما الحال بالمعدم الكاسد؟! لقد وصفهم رسول الله ﷺ فقال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] (١).

فاتقوا الله عباد الله: وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها نفوسكم، فقد أعطى الله الكثير، وطلب أقل القليل، ولو أن الميسورين من المسلمين اليوم قاموا بهذه الفريضة حق القيام، وصرفوا الزكاة في مصارفها، ووضعوا الأمر في نصابه، لما وجد على الأرض من يتسول لفاقة، ومن يلح في مسألة لحاجة، ولا اختفت مظاهر الإجرام والسطو والاختلاس والسرقة.

كم في الناس -عباد الله- من أرملة تضم أيتاماً لا عائل لهم، ولا تستطيع الكسب فتتفق عليهم؟ كم من شيخ كبير وهن منه العظم، وما عنده ما يستعين به على عجزه، ولا ولد بار يسعفه في شيخوخته؟ كم في الناس من عاجز أفعد عن الكسب؟ أولئك -عباد الله- ومن على شاكلتهم في حاجة إلى التخفيف من متاعهم في زمن عصهم فيه الفقر، وأثقلت كواهلهم النفقات.

وأنت -يا عبد الله- يا من وفّقك الله لأداء الزكاة وأعانك على إخراجها، جعلها الله لك طهوراً ونوراً وقربة وهناءً وبركة وسروراً، وأجرك الله فيما أعطيت، وضاعف لك فيما أنفقت، قال جل في علاه: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

(١) رواه البخاري (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩).



أيها المسلمون: يُستحبّ للمسلم أن يليّ توزيع زكاته بنفسه، وله أن يعهد بتوزيعها إلى من يثق به من الأئمة الأقوياء، ولا يجوز للوكيل استثمار أموال الزكاة ولا الاتجار بها، ويجب على من وكل إليه توزيع مالٍ زكويّ أن يعجل بإخراجه لمستحقّيه، ولا يجوز له تأخيرُه بلا مصلحةٍ معتبرة.

ومن تولى قسمة زكاة نيابة عن معيّن فلا يُعدّ من العاملين عليها، ولا يستحقّ فيها، ولا يجوز له الأخذ منها، إلا أن يكون فقيراً فيعطى منها قدر كفايته. وأمّا العاملون عليها الذين هم من أهلها فهم جباتها وسعاتها وحفاظها وقسامها الذين يبعثهم الحاكم لأخذها ويولّيهم على تحصيلها.

أيها المسلمون: الزكاة أنواع وأقسام ولها مسائل وأحكام، فاسألوا أهل العلم عمّا أشكل، وراجعوا أهل الذکر عمّا أفل، فهذا من أوجب العلم، فاستعينوا بالعلم على أداء الواجب، وبالصبر على شكر الواهب، القائل في الكتاب المجيد: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

عباد الله: المطر نعمة لا يعدلها نعمة، به حياة الأرض، وبه حياة الأبدان، إذا جاء المطر فرح به الناس، وما ذاك إلا تيمناً منهم بما يعود به المطر من المعاني التي تصاحبه عند نزوله، وإن حرمان البلدان من الأمطار ما هو إلا إنذار وتهديد من الله لعباده ليعودوا إلى رشدهم وينظروا في أنفسهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59]. يقول ﷺ: «خمس خصال إن ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ»، وذكر منهنّ: «لم يمنع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا»^(١). فانظروا -رحمكم الله- إلى هذا التوافق، لما منع الناس إخراج ما بأيديهم من الزكاة منع الله القطر أن ينزل من السماء: ﴿وَالْوَأَسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، كثيراً ما يستسقي الناس في خطبهم وفي صلواتهم فلا يسقون في كثير من الأحيان، بل ربما أقاموا صلاة الاستسقاء مرة بعد مرة، فلا يظهر لهم معالم استجابته، أفلا يكون هذا نذيراً لأصحاب الأموال أن يخرجوا زكاة ما بأيديهم رحمة بأنفسهم، وأداءً لواجب في أعناقهم وتبرئةً لذمهم؟!!

(١) صحيح الجامع (٧٩٧٨).



نسأل الله أن يفتح على قلوب المسلمين، ويجعلهم إخوة متعاونين متكافلين، يرحم كبيرهم صغيرهم، ويعطي غنيهم فقيرهم..

هذا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على نبي الرحمة والهدى، من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين، وعن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وارض عنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.



فضل الصدقة^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثقلين بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أقام الله به الحجة، وأوضح به المحجة، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وخلفائه الأربعة، أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وعلى سائر أصحابه الأخيار، النجباء الأطهار.

أما بعد:

فاتقوا الله بامثال أوامره واجتنب نواهيه، فذلك سعادة الدنيا والأخرى، والتفلت من التقوى خسران عظيم ومآل وخيم، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عباد الله: إن الأعمال الصالحة تتفاضل عند الله بنفعها لفاعلها ولغيره، ويتضاعف ثوابها بدوام منافعها وعمومها، والحسنات الجارية والصدقات النافعة من الإحسان الذي هو أعلى مراتب الإسلام، فإن الدين إسلام وإيمان وإحسان.

والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ويدخل في مسمى الإحسان نفع الخلق بعموم المنافع ابتغاء وجه الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

وكما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَسَوْفَ يُرْضَى﴾ [الليل: ١٤-٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَبَنِيَامًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

عباد الله: إن الصدقات فيها إحسانٌ إلى المتصدق نفسه؛ لأن الله يشبهه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، فإن همَّ بسيئة فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة»^(١).

والمتصدق يحسن إلى نفسه لأنه بالصدقة يتصف بالرحمة التي هي من أكرم الصفات، كما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي»^(٢). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٣)، وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٤).

والمتصدق يحسن إلى نفسه؛ لأن الله يدفع بالصدقات الشرور والمكروهات، ويجلب بها الخير والبركات، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي

(١) رواه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١).

(٢) صحيح أبي داود (٤٩٤٢).

(٣) صحيح الترمذي (١٩٢٤).

(٤) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).



مصارع السوء و الصدقة خفيا تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم زيادة في العمر، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»^(١)، وعن معاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كما يَطْفِئُ الماءُ النارَ»^(٢)، فأين من يريد أن يطفئ غضب الرب؟ أين من يريد أن يطفئ أثر خطيئته؟ بل أين من يريد أن يستظل في ظل صدقته في يوم شديد حره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «كُلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقته يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس»^(٣)، ومن السبعة الذين يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شاله ما أنفقت يمينه.

الصدقة نماء في المال وبركة في الحال والمآل، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع عبداً لله إلا رفعه الله»^(٤)، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

والمُتَصَدِّقُ أحقُّ بماله من وارثه، فإنَّ النفع الحقيقي للمال هو النفع الأخروي، وأما نفع المال الدنيوي فينتهي بموت الإنسان، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركه للناس»^(٥)، وعن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أيكم مالٌ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله، ما مِنَّا أحدٌ إلا ماله أحبُّ إليه! قال: «فإنَّ ماله ما قدَّم، ومالٌ وارثه ما أخر»^(٦).

وقد كان السلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أحرصَّ الناس على المسارعة إلى كلِّ خير وإلى الإنفاق في كلِّ سبيلٍ برٍّ، عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان أبو طلحةٍ من أكثر الأنصارِ مالا، وكان أحبَّ ماله إليه

(١) صحيح الجامع (٣٧٩٦).

(٢) حسنه الألباني في إرواء الغليل (١٣٨/٢).

(٣) صحيح الترغيب (٨٧٢).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٥) رواه مسلم (٢٩٥٩).

(٦) رواه البخاري (٦٤٤٢).



بَيْرُحَاءٍ، وهي نخلٌ فيها ماءٌ طيبٌ كان يشرب منه النبيُّ وكانت قريبةً من مسجده عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإنَّ أحبَّ أموالِي إليَّ بَيْرُحَاءٍ، وإنِّي قد تصدَّقتُ بها أرجو برَّها ودُخْرَها، فاجعلها يا رسولَ الله حيث شئت، فقال النبيُّ: «بخٍ بخٍ، ذلك مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ»^(١).

جاء عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: الصلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، والصدقة شيء عجيب، والصدقة شيء عجيب! وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن استطعت أن تجعل كنزك حيث لا يأكله السوس، ولا تناله اللصوص، فافعل؛ بالصدقة!».

ورأى الأحنف في يد رجل درهما فقال: لمن هذا؟ قال: لي قال: (ليس هو لك حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر)، وتمثل بقول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك

وقال محمد بن حبان: (كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عُرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام وإكرام الضيف).

وروى ابن الجوزي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ عن ابن أبي حازم عن أبيه قال: (أمست عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا صائمةً وليس عندها إلا رغيفان، فجاء سائلٌ فأمرت له برغيف، ثم جاء آخر فأمرت له بالرغيف الآخر، فأبَّت مولاتها أن تدفعه إليه فطرحته إليه عائشة من تحت الستر، فقالت لها مولاتها: انظري على ما تظفريين؟ فلما أمست عائشة إذا ضاربٌ يضرب الباب، فقالت: من هذا؟ قال: رسول آل فلان، قالت عائشة: إن كان مملوكًا فأدخله، فدخل وإذا به يحمل شاة مشوية عليها خبز، فقالت لها عائشة: اعتدي كم ها هنا خبز هو خيرٌ من رغيفك، فلا والله ما كانوا أهدوا إليَّ قبلها شيئًا).

(١) رواه البخاري (٢٧٦٩) ومسلم (٩٩٨).



وروي أن فقير طرق باب أحد العلماء ليلاً فسأل العالم امرأته فقالت: ليس عندنا إلا عشر بيضات قال: ادفعيهنَّ إليه فأعطتهنَّ إياه إلا بيضةً واحدة، أبقتها لأولادها وبعد وقت طرق الباب رجلٌ وأعطى الشيخ صرةً بها تسعون ديناراً فسأل العالمُ امرأته عما أعطت الفقير؟ قالت: تسع بيضات فقال: وهذه تسعون ديناراً والحسنة بعشر أمثالها.

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يضيع العرف بين الله والناس

وأبوابُ الخير التي تنفع المسلمين كثيرة، وطرق البرِّ متعدّدة، والصدقاتُ إذا وقَّعت في مواقعها ونالت مستحقَّيها فرَّج الله بها كربَ المكروب، وسدَّ بها حاجةَ المحتاج، وأعان الله بها المساكين، وقضى الله بها المنافع، ويسَّر الله بها المصالح، وتحقَّق بها التكافلُ الاجتماعي بين المسلمين، وشكر الله لصاحبها، وضاعف له ثوابها، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «ما تصدَّق أحدٌ بصدقةٍ من طيبٍ ولا يقبل الله إلا الطيبَ إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرَّةً، فتربو في كفِّ الرحمن حتى تكون أعظَمَ من الجبل كما يربِّي أحدكم فُلُوهُ أو فصِيلَهُ»^(١).

قال يحيى بن معاذ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى: (ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة).

والوقفُ الذي تُجعل غلَّته للإحسان إلى المنقطعين للعلم وللفقراء والمحتاجين وبناء المساجد والعناية بها أو بناء المستشفيات والمدارس، وإنشاء المكتبات التي تنشر العلم، وحفر الآبار ومدُّ شبكات الماء، وغير ذلك، كلُّ هذا ونحوه من أفضلِ البرِّ عند الله ومن الصدقة الجارية التي تنال صاحبها في حياته وبعد مماته.

وما أكثرَ سبيلَ الخير، وما أيسرَ الطاعات على من وفقه الله تعالى، والرَّسولُ ﷺ يقول: «ابغوني الضَّعفاء؛ فإننا تُرزقون وتنصرون بضعفائكم»^(٢).

فاحرصوا رحمكم الله على الإحسانِ إلى أنفسكم ولو باليسير من المال الذي منَّ به عليكم، وإلى الإحسانِ إلى أنواعِ المحتاجين من الفقراء والأيتام والمعاقين والشباب الذين يسعون

(١) رواه البخاري (٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤).

(٢) صحيح الجامع (٤١).



للزّواج والمنقطّعين لطلب العلم وحلقات تعليم القرآن والمرضى والمدينين والمعسرين، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، ونفعنا بهدي سيد المرسلين وبقوله القويم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أحمد ربّي سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القوي المتين، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدا عبده ورسوله، بعثه الله بالهدى واليقين، ﴿يُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتّقوا الله أيها المسلمون حقّ التقوى، وتمسّكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، واعلموا أن المجتمع الإسلامي نسيج مترابط، والمسلمون إخوة، وقد جاء الإسلام بالتكافل والتكامل بين أفرادها، ف«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا»^(١).

ولا يليق أبدًا بالعبد إذا أنفق أو أعطى أو أحسن؛ أن يعجب بنفسه ويغتر بعمله، لأن الله الفضل والمنة وحده، فهو الرزق، ثم هو الذي أنعم عليك بأن جعلك المعطي ولم يجعلك الآخذ المحتاج، وهو الذي فتح لك باب العطاء والصدقة، ولو أغنى جميع الناس؛ لأغلق عنك هذا الباب من أبواب الخير.

كان الفضيل بن عياض يقول: (نعم السائلون؛ يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجر، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى). وقال الإمام الشعبي: (من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته؛ فقد أبطل صدقته؛ وضرب بها وجهه). وكان سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ تعالى ينشرح إذا رأى سائلاً على بابه، ويقول: (مرحباً بمن جاء يغسل ذنوبي). بل يقول حكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أصبحت يوماً وليس ببابي صاحب حاجة، إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها».

فيا من يريد سعادة الدارين، ويا من اشتدت عليه الأمور، وشكى ضيق الرزق، وضمنك العيش، وقاسى الهم والغم، وعانى الحزن والقلق، عليك بالإحسان والصدقة والبذل، فإن

(١) رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥).



«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١)، «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»^(٢).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو من ظالم بل من كافر فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرّون به لأنهم جرّبوه).

ويقول ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (فالإنسان إذا بذل الشيء ولا سيما المال يجد في نفسه انشراحاً، وهذا شيء مجرب.. لكن لا يستفيد منه إلا الذي يعطي بسخاء وطيب نفس، ويخرج المال من قلبه قبل أن يخرج من يده، أما من أخرج المال من يده، لكنه في قرارة قلبه فلن ينتفع بهذا المال).

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى في أسباب شرح الصدر: (ومنها الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان، أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًا وغمًا).

عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ يقول: «دأبوا ومرضاكم بالصدقة»^(٣).

هذه امرأة أصيبت بفشل كلوي - نسأل الله العافية والشفاء لمرضى المسلمين - عانت منه كثيرًا، ثم بحث أولادها عن مَنْ يتبرع لها بكلية، فوجدوا فتاة ستبيعها كليتها مقابل مبلغ جزيل من المال، وحضرت تلك المرأة إلى المستشفى، ووافقت على كافة الإجراءات، وتم إحضار المتبرعة لتبيت في المستشفى قبل اليوم المحدد لإجراء العملية وأخذ كليتها، وفي الليل سمعت المرأة المريضة تلك الفتاة تبكي بكاءً شديدًا، فسألتهما عما إذا كانت خائفة أو مكرهة

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٥٨).



على ما أقدمت عليه، فقالت لها: والله ما دفعني للتبرع بكليتي إلا فقري وحاجتي، فما كان من المرأة المريضة إلا أن دعت أولادها، وأخذت منهم المبلغ المتفق عليه، ثم أعطته تلك الفتاة، وقالت: هذا المال لك، اذهبي لشأنك ولا أريد منك شيئاً، وإن كان لي من شفاء وعافية فهي من الله وحده، تعجب أولادها من الموقف، لكنهم لم يجروا على الوقوف أمام رغبة والديهم، وبعد أيام جاؤوا بوالديهم إلى المستشفى للكشف عليها كونها شعرت بتحسّن، فلما تم الفحص تعجب الأطباء إذ لم يجدوا أثراً للمرض، فقد شفاها الله تعالى بفضلته وكرمه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، كقوة القلب، واعتماده على الله تعالى، والتوكل عليه والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة والدعاء، والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جرّبتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته ولا قياسه، وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية).

والستر في البذل والسخاء:	فالصدقة دواء وشفاء
ويستره عنهم جميعاً سخاؤه	ويظهر عيب المرء في الناس بخله
كل عيب والسخاء غطأه	تغط بأثواب السخاء فإنني أرى

ولا تحقرن أيها الكريم من المعروف شيئاً؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويقول تعالى: ﴿يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاْتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ﴾ [القمان: ١٦].

والصدقة متيسرة لكل أحد، المهم صحة النية وصدق العزيمة، فلا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو شربة ماء، بل من لم يجد بتاتاً فلا يبخل ولو بالابتسامة وأن يلقي الناس بوجهه بشوش طليق، فالتبسم في وجوه الناس صدقة، وبكل تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة،



وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وإمطة الأذى عن الطريق صدقة، وهذا من تيسير الله وفضله وكرمه على عباده.

وقد كان أبو مرثد رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَخْطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء، ولو كعكة أو بصلة. وسئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي الصدقة أفضل؟ قال: «الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أْفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ؟» قال القرطبي في تفسير الآية السابقة: (في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال. قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء). وقال بعض أهل العلم: إذا كان الله قد غفر لمن سقى كلبًا على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسا العُراة من المسلمين؟

سأل رجل عبد الله ابن المبارك قائلاً: يا أبا عبد الرحمن! قرحةٌ خرجت في ركبتي منذ سبع سنين، وقد عاجلت بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم أنتفع به، فقال: (اذهب فانظر موضعًا يحتاج فيه الناس إلى الماء، فاحفر هناك بئرًا فإني أرجو أن تنبع هناك عين ويمسك عنك الدم)، ففعل الرجل فشفي بإذن الله.

وإن أفضل الصدقة ما كان على ذي رحم، فإنها صدقة وصله، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أتاه الله منكم مالًا فليصل به القرابة، وليحسن فيه الضيافة، وليفك به العاني الأسير وابن السبيل والمساكين والفقراء والمجاهدين، وليصبر فيه على النائبة؛ فإن هذه الخصال ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة».

وليحرص العبد على أن يبقى له أثر طيب بعد مماته، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم. ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

عباد الله: إن الله أمركم بأمير بدأ فيه بنفسه فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقد قال: «من صلى عليَّ صلاةً واحدة صلى الله عليه بها عشراً». فصلُّوا وسلِّموا على إمام المرسلين، وسيِّد الأوَّلين والآخرين.

أحكام الصيام (١)

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى، واعلموا أن الله خلقكم لعبادته كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿[الذاريات: ٥٦-٥٨]، وقد بين الله لكم طريق عبادته، ومن عليكم بمواسم الخير تتكرر عليكم وتتوالى بما فيها من الفضائل والمكارم وعظيم الأجور، فعظموها - رحمكم الله - هذه المواسم، واقدروها حق قدرها، بفعل الطاعات والقربات، واجتناب المعاصي والموبقات، فإن الله لم يجعل هذه المواسم إلا لتكفير سيئاتكم، وزيادة حسناتكم، ورفع درجة درجاتكم.

أيها الناس: إن من المواسم العظيمة التي ينبغي للإنسان أن يتنزه فرصها بطاعة الله ذلكم الشهر الكريم، الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، شهر الخير والبركات والرحمة.

هذا الشهر جعله الله تعالى ميداناً للتسابق إلى الخيرات، فإنه شهر تضاعف فيه الحسنات، وتعظم فيه السيئات، «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



من ذنبه»^(١)، «ومن قامه إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»^(٢)، «ومن أتى فيه بعمرة كان كمن أتى بحجة»^(٣)، فيه تفتح أبواب الجنة وتكثر الطاعات من أهل الإيمان، وتغلق أبواب النار فتقل المعاصي من أهل الخير، وتغل فيه الشياطين فلا يخلصون إلى أهل الإيمان بمثل ما يخلصون إليهم في غيره.

أيها الناس: «صوموا لرؤية هلال رمضان»^(٤)، ولا تقدموا عليه بصوم يوم أو يومين؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين»^(٥)، إلا إذا كان على الإنسان قضاء من رمضان الماضي فليقضه، أو كان له عادة بصوم فليصمه، فإذا كان للإنسان عادة أن يصوم يوم الاثنين وصادف أن يكون قبل رمضان بيوم أو يومين فلا حرج عليه أن يصومه، وكذلك من كان يصوم من الشهر ثلاثة أيام فلم يتيسر له أن يصومها إلا في آخر شعبان فلا حرج عليه في ذلك، ولا تصوموا يوم الشك: وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا كان في ليلته ما يمنع رؤية الهلال من غيم أو قتر، ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تُفْطِرُوا حتى تَرَوْهُ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدَرُوا لَهُ»^(٦)، ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «فإن غبى عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين»^(٧)، وقال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبي القاسم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٨).

وصوم رمضان أحد أركان الإسلام، فرضه الله على عباده، فمن أنكر فرضيته وقال بعدم وجوبه فهو كافر مرتد والعياذ بالله؛ لأنه مكذب لله ورسوله، وإجماع المسلمين، قال الله تعالى:

(١) رواه البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٧٥٩).

(٣) صحيح الجامع (٤٠٩٨) بمعناه.

(٤) صحيح الجامع (٣٨٠٩) بمعناه.

(٥) رواه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).

(٦) صحيح البخاري (١٨٠٧).

(٧) رواه البخاري (١٩٠٩) ومسلم (١٠٨٨) بلفظ «أغمي».

(٨) صحيح ابن حبان (٣٥٩٥).



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالصوم واجب على كل مسلم، بالغ، عاقل، قادر، مقيم، ذكراً كان أم أنثى، غير الحائض والنفساء، فلا يجب الصوم على كافر، ولو أسلم في أثناء رمضان لم يلزمه قضاء ما مضى، ولو أسلم في أثناء اليوم من رمضان أمسك بقية اليوم ولم يلزمه قضاءه، ولا يجب الصوم على صغير لم يبلغ، لكن إن كان لا يشق عليه أمر به؛ ليعتاده، فقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُصَوِّمُونَ أولادهم الصغار حتى إن الصبي ليكي من الجوع فيعطونه لعبة يتلهى بها إلى الغروب، كما جاء في الحديث المتفق عليه من حديث الرُّبِيع بنت مسعود رضي الله تعالى عنها (١).

ويحصل بلوغ الصغير إن كان ذكراً بواحد من أمور ثلاثة: أن يتم له خمس عشرة سنة، أو تنبت عانته، أو ينزل منياً بشهوة باحتلام أو غيره، وتزيد الأنثى بأمر رابع: وهو الحيض، فمتى حصل للصغير واحد من هذه الأمور فقد بلغ ولزمته فرائض الله وغيرها من أحكام التكليف إذا كان عاقلاً، وهنا نقف لننبهكم على أن بعض النساء تبلغ بالحيض وهي صغيرة، فقد تحيض لإحدى عشر سنة ولكنها لا تصوم إما لجهلها أو لجهل أهلها، وعلى هذا فيجب البحث عن هذا الأمر ونشره بين الناس حتى يعرف؛ لأن السؤال عنه كثير، فإن بعض النساء تحيض وهي في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة وتظن هي أو أهلها أنه لا يجب عليها الصوم حتى تبلغ خمس عشرة سنة وهذا خطأ، فمتى حاضت ولو لتسع سنين وجب عليها الصوم؛ لأنها صارت مكلفة.

ولا يجب الصوم على من لا عقل له كالمجنون، والمعته، ونحوهما، وعلى هذا فإن المعتوه لا يلزمه الصوم، ولا الإطعام عنه، ولا الطهارة، ولا الصلاة؛ لأنه فاقد للتمييز فهو بمنزلة الطفل، ولا يجب الصوم على من يعجز عنه عجزاً دائماً كال كبير والمريض مرضاً لا يرجى برؤه، ولكنه يطعم بدلاً عن الصيام عن كل يوم مسكين بعدد أيام الشهر، لكل مسكين خمس

(١) رواه البخاري (١٩٦٠) ومسلم (١١٣٦).



صاع من البر، أي: أن الصاع المعروف عندنا هنا يكفي لخمسة فقراء عن خمسة أيام، والأحسن أن يجعل مع الطعام شيئاً يأدمه من لحم أو دهن، ويجزئ عن البر الرز، بل هو خير منه في بعض الأحوال، وأما المريض بمرض يرجى برؤه فإن كان الصوم لا يشق عليه ولا يضره وجب عليه أن يصوم؛ لأنه لا عذر له، وإن كان الصوم يشق عليه ولا يضره فإنه يفطر ويكره له أن يصوم، وإن كان الصوم يضره فإنه يحرم عليه أن يصوم، ومتى برء من مرضه قضى ما أفطر، فإن مات قبل برؤه فلا شيء عليه.

والمرأة الحامل التي يشق عليها الصوم لضعفها أو ثقل حملها يجوز لها أن تفطر ثم تقضي إن تيسر لها القضاء قبل وضع الحمل أو بعده إذا طهرت من النفاس، والمرضع التي يشق عليها الصوم من أجل الرضاع أو ينقص لبنها بالصوم نقصاً يخل بتغذية الولد تفطر ثم تقضي في أيام لا مشقة فيها ولا نقص على الولد.

وأما المسافر فإن قصد بسفره التحيل على الفطر فالفطر حرامٌ عليه، ويجب عليه الصوم حتى في سفره؛ لأن هذا سفر لا تستباح به الرخص، وإن لم يقصد بسفره التحيل على الفطر فهو مخير، إن شاء صام، وإن شاء أفطر وقضى عدد الأيام التي أفطر، والأفضل له فعل الأسهل عليه، فإن تساوى عنده الصوم والفطر فالصوم أفضل؛ لأنه فعل النبي ﷺ؛ ولأنه أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أخف من القضاء غالباً، فإن كان الصوم يشق عليه بسبب السفر كره له أن يصوم، وإن عظمت المشقة واشتدت حرم أن يصوم؛ لأن النبي ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان فقبل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا ﷺ بقدر من ماء بعد العصر، فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب والناس ينظرون، فقبل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»^(١).

أيها المسلمون: أتدرون متى كان سفر النبي ﷺ هذا؟ إنه كان سفره في فتح مكة، وقد فتحها النبي ﷺ في أثناء الشهر، قيل: في اليوم العشرين من الشهر، وبقي مفطراً في مكة عشرة

(١) رواه مسلم (١١٤).



أيام بقية الشهر لم يصم ﷺ، وبهذا نعرف خطأ ما يتكلفه بعض الناس من الصوم إذا ذهبوا للعمرة، فتجد الصوم يشق عليهم في مكة ومع ذلك يصومون، وهذا خلاف هدي النبي ﷺ، فوالله ما هم أشد عزيمة ولا حباً للطاعة من رسول الله ﷺ، ولا هم أكمل هدياً من هدي النبي ﷺ، ومع ذلك لم يصم في مكة في العشر الأواخر من رمضان، بل ترك الصوم؛ لأن الفطر كان في ذلك الوقت أيسر له، وعلى هذا فإذا وصل الإنسان إلى مكة وهو معتمر وكان يشق عليه أن يؤدي العمرة وهو صائم قلنا له: أفطر ولو في أثناء اليوم، وأدّ العمرة بخشوع وراحة، وقد وسع الله عليك، فلا تشق على نفسك.

أقول ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

أيها المسلمون: (إنه لا فرق في المسافر بين أن يكون سفره عارضاً لحاجة أو مستمراً في غالب الأحيان، مثل: أصحاب سيارات الأجرة أو غيرها من سيارات النقل الكبيرة، والذين لا يزالوا معظم أوقاتهم في سفر وتنقل، فإنهم متى خرجوا من بلدهم فهم مسافرون، تجري عليهم أحكام المسافر، فيجوز لهم ما يجوز للمسافرين الآخرين من الفطر في رمضان، ويجوز لهم قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، والجمع بين الظهر والعصر، أو بين المغرب والعشاء عند الحاجة، والفطر لهم أفضل من الصيام إذا كان الفطر أسهل لهم، ويقضونه في أيام الشتاء؛ لأن أصحاب هذه السيارات لهم بلد يتمون إليها، وأهل فيها يأوون إليهم، فمتى كانوا في بلدهم فهم مقيمون، وإذا خرجوا منها فهم مسافرون، لهم ما للمسافرين وعليهم ما على المسافرين، ومن سافر في أثناء اليوم في رمضان وهو صائم فالأفضل أن يتم صومه، فإن وجد مشقة فليفطر، ثم يقضيه بعد ذلك، ولا يتقيد السفر بزمن، فمتى خرج من بلده مسافراً فهو على سفر حتى يرجع إلى بلده، ولو أقام مدةً طويلة إلا أن يقصد بتطويل مدة الإقامة التحيل على الفطر فإنه يحرم عليه الفطر، ويلزمه الصوم؛ لأن فرائض الله لا تسقط بالتحيل عليها)، (ولا يجب الصوم على الحائض والنفساء ولا يصح منهما)، (إلا أن تطهرا قبل الفجر ولو بلحظة فيجب عليهما الصيام، ويصح منهما وإن لم تغتسلا إلا بعد طلوع الفجر، ويلزمهما قضاء ما أفطرتاه من الأيام).

أيها المسلمون: هذه جملة من أحكام الصوم، وإذا كان الناس في رمضان يصومون ويقومون فإن من المهم أن تبين أحكام القيام في هذا الشهر المبارك، فلقد رغب النبي ﷺ في قيام هذا الشهر وقال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١)، وإن صلاة التراويح من قيام رمضان فأقيموها، وأحسنوها، وقوموا مع إمامكم حتى ينصرف،

(١) رواه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٧٥٩).



فإن «من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة تامة»^(١)، وإن كان نائماً على فراشه، وإن على الأئمة أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ في هذه التراويح، فيراعوا من خلفهم، ويحسنوا الصلاة لهم فيقيمونها بتأنٍ وطمأنينة، ولا يسرعوا فيها، فيحرموا أنفسهم ومن وراءهم الخير، أو ينقروها نقر الغراب لا يطمئنون في ركوعها ولا سجودها، ولا قيامها ولا قعودها، إن على الأئمة أن لا يكون هم الواحد منهم أن يخرج قبل الناس، أو أن يكثر عدد التسليّيات دون إحسان الصلاة، فإن الله تعالى يقول: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] ولم يقل: أيكم أسرع نهاية أو أكثر عملاً بلا إحسان.

وقد كان نبيكم ﷺ وهو أحرص الناس على الخير والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر (كان لا يزيد على إحدى عشرة ركعة لا في رمضان ولا في غيره)^(٢)، ولكنه يطيل ذلك، وفي الصحيحين: «كان النبي ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة»^(٣)، فمن صلى التراويح إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة فلا حرج عليه، وقد صح عن النبي ﷺ «أنه قام بأصحابه في رمضان، ثم ترك ذلك خشية أن تفرض على الناس فيعجزوا عنها»^(٤)، (وصح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه أمر أبي بن كعب وتميم الداري أن يقوموا في الناس بإحدى عشرة ركعة)^(٥)، فهذا العدد الذي قام به النبي ﷺ وواظب عليه واتبعه فيه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو أفضل عدد تصلى به التراويح، ولكن ينبغي أن يطيل الإنسان فيها حتى يتمكن الناس من الدعاء، ولو زاد الإنسان على هذا العدد رغبة في الزيادة لا رغبة عن السنة لم يُنكر عليه؛ لورود ذلك عن بعض السلف، وإنما المنكر ما يحصل من البعض من الإسراع الفاحش الذي يفعله بعض الأئمة فيفوتوا الخير على أنفسهم وعلى من خلفهم.

(١) صحيح الترمذي (٨٠٦).

(٢) رواه البخاري (٣٥٦٩) ومسلم (٧٣٨).

(٣) رواه البخاري (١١٦٤) ومسلم (٧٣٨).

(٤) صحيح ابن حبان (٢٥٤٣).

(٥) صححه الألباني في صلاة التراويح (٥٣).



عباد الله: ينبغي على المسلم أن يعرف أحكام دينه، وينبغي على من أراد أن يصلي أن يتعلم أحكام الصلاة، وعلى من أراد أن يحج أن يتعلم أحكام الحج، ومن أراد أن يزكي أن يتعلم أحكام الزكاة، وكذلك ينبغي على من أراد أن يصوم أن يتعلم أحكام الصيام، سواء كان ذكرًا أو أنثى، الموفق من أراد الله به الخير فوفقه للتفقه في أحكام الدين، ولذا فلم يأمر الله نبيه بطلب الزيادة من شيء من الخير إلا من العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ثم اعلّموا رحمكم الله أن رمضان شهر القرآن، وشهر التوبة الغفران، والجود والإحسان، فيه تفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران، وتصفد الشياطين، وفيه ليلة خير من ألف شهر، لذا فقد عرف السلف الصالح قيمة هذا الموسم المبارك، فشمروا فيه عن ساعد الجد واجتهدوا في العمل الصالح طمعًا في مرضاة الله ورجاء في تحصيل ثوابه، فقد ثبت أنهم كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم، وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: (أدرکتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهم: أيقبل منهم أم لا؟).

وقد كانوا أكثر ما يجتهدون في القيام وتلاوة القرآن، فقد كان مالك بن أنس إذا دخل رمضان يفر من الحديث ومجالسه أهل العلم ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف، وكان سفیان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العباد وأقبل على قراءة القرآن، وكان منهم من يجتهد في ثلاث، ومنهم من يجتهد في أقل من ذلك، فشمروا وبادروا، وسارعوا وتسابقوا، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا جميعًا لاغتنام الأوقات بالطاعات، وأن تحميننا من فعل المنكر والسيئات، اللهم اهدنا صراطك المستقيم، وجنبنا صراط أصحاب الجحيم، اللهم اجعلنا ممن يصوم رمضان ويقومه إيمانًا بك، واحتسابًا لثوابك، إنك جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



انتصارات رمضان^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله ذي القوة والجبروت، والقهر والملكوت، قديرٌ فما شيء عليه يفوت، عليمٌ الحال بالجهر والسكوت، والظهور والخفوت، وأشهد ألا إله إلا الله وحده الحي الذي لا يموت، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ذوي اليمن والقنوت.

أما بعد: فاتقوا الله عبادَ الله.

أيها المؤمنون: تلمسُ المنح واستبصار الفضائل سبيلٌ للظفر وحياسة المغانم، ورمضان منحة ربانية تحمل في طياتها صنوف البر والخيرات. ومن مفردات تلك المنح: تنزل النصر فيه؛ فللنصر مع رمضان اقتران قدرِي وثيق الارتباط، ترتبت فيه النتائج على الأسباب بأمر الله سبحانه.

عشر الصائمين: أيام رمضان مآثر لعزِّ الأمة المعقود، ومفاخر لأملها المنشود؛ ففي هذا الشهر من ثاني سنِّي الهجرة النبوية فرض الله الجهاد على الأمة مع افتراض شعيرة الصيام؛ فكان رمضان موسم نصر للمسلمين على امتداد التاريخ، حين شهدت أيامه الخالدة معارك خاضها المسلمون مع الأعداء على تنوع دياناتهم ومللهم، واختلاف أقطارهم وأمصارهم، وتفاوت عددهم وعُدَّتهم، أكرمَ الله فيها أوليائه بالنصر المبين، فكانت تلك المواقع الرمضانية فيصلاً في تاريخ الأمة، ونقطة تحوُّل في مسيرتها واتساع رقعتها، وشامة في جبين عزاها ومجدها.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



ففي رمضان من السنة ٢هـ كان يوم الفرقان حين انتصر المسلمون على كفار قريش في غزوة بدر، وفي رمضان من السنة ٨هـ كان فتح مكة.

وفي رمضان من السنة ١٣هـ كانت موقعة البويب مع الفرس على يد الصحابي المشنى بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي رمضان من السنة ١٥هـ كانت معركة القادسية الشهيرة بقيادة الصحابي سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي رمضان عام ٥٣هـ استعاد المسلمون جزيرة رُودُس على يد القائد جنادة بن أبي أمية بأمر الخليفة الصحابي معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وفي رمضان من عام ٩٣هـ فتحت الأندلس على يد القائد طارق بن زياد.

وفي رمضان من السنة ٩٤هـ افتُتحت بلاد الهند والسند على يد القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي.

وفي رمضان من عام ٢٢٣هـ كان فتح عمورية المشهور في عهد الخليفة المعتصم العباسي.

وفي رمضان من عام ٢٦٤هـ فتحت مدينة سر قوسة في جزيرة صقلية الأوربية.

وفي رمضان من عام ٥٨٣هـ كان تحرير مدينة صغد من قبضة الروم على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

وفي رمضان من عام ٦٥٨هـ كانت هزيمة المغول في معركة عين جالوت بقيادة المظفر قطز.

وفي رمضان من عام ٦٦٦هـ كان فتح أنطاكية.

وفي رمضان من عام ٦٧٣هـ افتتحت أرمينيا الصغرى.

وفي رمضان من عام ٧٠٢هـ كُسرت شوكة المغول في معركة شقحب.

وفي رمضان من عام ٧٩١هـ فتحت بلاد البوسنة والهرسك على يد القائد العثماني السلطان مراد.

وفي رمضان من عام ٨٨٩هـ قُتل حُدُ الروس على يد العثمانيين في واقعة القَرَم.

وفي تاريخنا المعاصر في رمضان عام ١٩٧٣م حطّم المصريون المسلمون خط بارليف اليهودي، وجرعوا اليهود هزيمة نكراء، فكانت الهزيمة الوحيدة لهم في تاريخنا المعاصر كذلك في شهر رمضان...

معشر الصائمين: إن المتأمل في أسباب إنزال الله النصر على عباده يجد أنها فضل من الله أفاضه على أوليائه حين انتصروا على نفوسهم وحققوا تقوى ربهم، والذي كان الصيام أحد وسائل تحقيقها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فكانوا مؤهلين لتنزل النصر عليهم، ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مِنْ بَنِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وفي رمضان نجد الانتصار على النفوس أقوى ما يكون؛ انتصار على الرياء وملاحظة الخلق بتصفية العمل للخالق ابتداءً بتبني نية الصوم، يقول ﷺ: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يَبْتَ الصَّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ»^(١).

وانتصاراً على الشياطين بالتصفيد وتضييق مجاريهم بالصيام، يقول الرسول ﷺ: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانَ فَتُحْتَبَرُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ»^(٢).

وانتصار على الشهوات التي كثيراً ما يكون داعيها الفرج والبطن واللسان، قال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَأَكَلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي»^(٣). ويقول الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدْعِ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَلَيْسَ اللَّهُ حَاجَةً فِي أَنْ يَدْعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(٤).

وانتصار على الشح والبخل والأثرة، يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»^(٥).

(١) صحيح النسائي (٢٣٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٠٧٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٢) ومسلم (١١٥١).

(٤) رواه البخاري (٦٠٥٧).

(٥) رواه البخاري (٣٢٢٠) ومسلم (٢٣٠٨).



وانتصار على سوء الخلق، يقول الرسول ﷺ: «الصَّيَّامُ جُنَّةٌ، فَلَا يَزُفُّهُ وَلَا يَجْهَلُ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيُقْلُ: إِنِّي صَائِمٌ. إِنِّي صَائِمٌ»^(١).

وانتصار بالاجتماع وعدم التفرق، يقول الرسول ﷺ: «الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَالْفِطْرُ يَوْمَ تَفْطِرُونَ، وَالْأَضْحَى يَوْمَ تُضْحُونَ»^(٢).

وانتصار بالاعتزاز بالإسلام، وخلع ربقة التقليد المهين للخارجين عن طاعة رب العالمين، يقول الرسول ﷺ: «فَضَّلْ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةَ السَّحَرِ»^(٣).

ويضاف لهذه الانتصارات أن رمضان وقت تنزل القرآن، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والقرآن من أعظم ما يُجاهد به الكافرون، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكٰفِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

كما أن رمضان شهر الصبر، والنصر قرين الصبر، يقول الرسول ﷺ: «النصر مع الصبر»^(٤).

وفي رمضان الأدعية التي لا تُردّ، يقول الرسول ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُم: الصَّائِمُ حَتَّىٰ يَفْطُرَ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالْمَظْلُومُ»^(٥). فلأجل ذا غدا رمضان من أعظم مواسم نصر المؤمنين...

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، وجعلني وإياكم بآياته من العاملين...

(١) رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١).

(٢) السلسلة الصحيحة (٢٢٤).

(٣) رواه مسلم (١٠٩٦).

(٤) السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).

(٥) صحيح ابن ماجه (١٤٣٢).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

إن رمضان لم يزل محطة انتصار المسلمين على الصعيد الشخصي والأمي، وإن في تلك الانتصارات الرمضانية عبرة وأي عبرة، ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار، وإن الأمة التي لا تقرأ تاريخها ولا تستفيد من ماضيها لحاضرها ومستقبلها هي أمة مقطوعة بتة، فالماضي والتاريخ ليس مفتاحاً لفهم الحاضر فحسب، بل هو أساس من أسس إعادة صيغة الحاضر وبناء المستقبل، ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

أيها الأخوة: يشهد التاريخ الإسلامي أن أغلب الغزوات والمعارك التي قادها المسلمون في شهر رمضان كانت تُكَلَّل بالفوز والانتصار، ومن هنا حرص الرسول الكريم ﷺ أن تكون أغلب غزواته في شهر رمضان؛ تقريباً إلى الله عزَّ وجلَّ وإرشاداً للمسلمين إلى سبيل الاستعداد لاحتمال الشدائد في الجهاد، وهنا تجتمع - لدى المجاهد الصائم - مجاهدة النفس ومجاهدة الأعداء؛ فإن انتصر تحقَّق له انتصاران: هما الانتصار على هوى النفس، والانتصار على أعداء الله..

إن واقع الأمة اليوم في كثير من بقاعها وأصقاعها وأحوالها وأوضاعها يستدعي النظر والاعتبار، والتفكير والادكار، ولو أن المسلمين استوعبوا دروس الماضي لما أخطئوا في كثير مما أخطئوا فيه، والذي ينظر في تغيرات الأمم في مللها وأخلاقها، ويتأمل في تقلبات الدول في سياساتها واقتصادها هو أقدر على تفهم الحوادث الماضية، والتي هي صورة مشابهة لكثير من الوقائع المعاصرة، ألم يكن لهذه الأمة أعداء من قبل؟ ألم تغلب عليهم رغم فارق القوة والعدد والعدد؟ ثم ألم تنعكس هذه العبادات كالصيام مثلاً على قيمهم وأجسادهم وحضاراتهم؟ إذاً: فلنتق بنصر الله، وبوعد الله، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.



وإمعاناً في حسن الظن بالله، وامتداداً لعوائد نصره الرمضاني، فإننا نترقب مخايل تنزل النصر على هذه الأمة في هذا الشهر الكريم، ونرقب بعين الأمل بزوغ شمس الحق وهيمنتها؛ فانتصارات رمضان أثبتت أن طريق تنزل النصر الإلهي الوحيد للأمة إنما يكون بانتصارها على ذاتها، حين تستقيم على صراط الله المستقيم، الذي يظل رمضان أقوى محطة تزود للسائر فيه. هذا وصلُّوا وسلِّموا..



قنوات تسرق منا رمضان^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتصف بصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال، أحمده سبحانه على الإنعام والإفضال والعطاء والنوال، وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة أذخرها ليوم لا يبيع فيه ولا خلال، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى أسدِّ الأقوال وأحسن الأفعال، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه خير خيرٍ صحبٍ وخير آل.

أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى واحمدوه واشكروه على أن بلغكم شهر رمضان، رمضان النور والذكر والخير والطهر، فيه ليلة القدر، والعطايا الكثير، فيه عزُّ الفتح وفيه نصر بدر، وفي ختامه بهجة العيد وفرحة الفطر.

أيها المسلمون: نسمع عن سرقة الجواهر والأثاث والدنانير وعن الاعتداء وقطع الطريق، لكن كيف يسرق من الناس شهر رمضان؟! نعم أيها الكرام، من هم أولئك الذين يسرقون منا رمضان ثم يعلنون سرقاتهم هذه على رؤوس الأشهاد ويبشرون بها قبل حلول الشهر سائر العباد؟! وكيف اتَّهَمَ الجراءة ليسرقوا من الناس شهرهم، بعد أن مثلوا وخرَّبوا أوقاتِ الشهور الأخرى التي لم يكفهم الفساد فيها فجلبوه إلى رمضان؟! بقول ملقَّق، وزخرف منمَّق!

في زخرف القول تزيينٌ لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

لعلكم إذا عرفتم هؤلاء السارقين، إنهم من اعتدى على الأمة قبل وبعد وأثناء رمضان، فانبروا بقنواتهم الفضائية المهترئة وباسم الترفيه عن الصائمين والتسلية عليهم بطرح برامج

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



قنوات تسرق منا رمضان

ومسلسلات لهم تتنافس فيما بينها لسرقة ساعات رمضان وجوه الروحاني من عباد الرحمن الذين رضوا بها فشاها وها مضيعين معنى الصوم الحقيقي والوصول إلى التقوى.

أيها الإخوة: في رمضان يعطى السائل ويغفر للتائب، تتصل القلوب ببارئها، وتمتلئ المساجد بروادها؛ هذا مُصلِّ، وهذا ذاكر، وآخر يتلو كتاب ربّه، كلهم يرجون الأجر والتخلّص من أوزار الذنوب. ترى هؤلاء وتحمّد الله على هذا الإقبال الذي يتحقق به مقصود الصيام وثمرته.

لكنك بالمقابل تحزن حين ترى فئامًا من الناس يستقبلون رمضان انتظارًا لأن تتسلّط عليهم هذه القنوات ببرامجها التي تحمل شرًا وهوًا ولغوًا، بل قد تحمل استهزاء بدين الله وشرائعه وتشويهًا للتاريخ ومراجعته، فما الذي دهى القوم؟! قد يكون هدف هذه القنوات ماديًا لجلب المال، ولكن بالمقابل كيف بمن أضع فرصة رمضان العظيمة بالمغفرة والرحمة والعتق من النار ليشتري بدلًا منها هوًا وعبثًا أو وزرًا وإثمًا؟! ثم ألم يكف هذه القنوات ورجالها ما أفسدوه خلال العام في بيوت المسلمين ليعتدوا على حرمة هذه الشهر الكريم بهذا الفسق والفجور بالبرامج الرمضانية كما يسمونها؟! ما الذي دهى القوم؟! وأيّ فاعات تسرّبت إليهم ليجعلوا من شهر التقى والعفاف موسم حياة لاهية وسمر عابث؟! أين هم من النداء الرمضاني: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، والله عتقاء من النار في كل ليلة؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله أن لا يجرنا بذنوبنا.

أيها المسلمون الصائمون: إن البرامج الفضائية كما هو مشاهد تنشط في رمضان بشكل عجيب، ويتضاعف جهود المحطات وقنوات البث، وقد يتساءل البعض حول حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه أن رسول الله قال: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين» وفي رواية مسلم: «وصفدت الشياطين»^(١)، وفي رواية الترمذي وابن ماجه: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ

(١) رواه البخاري (٣٢٧٧) ومسلم (١٠٧٩).



الْجِنَّ، وَغَلَّقَتْ أَبْوَابَ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ...» الحديث (١).

فهل ما يقع من معاصٍ ومنكرات يتعارض مع هذا الحديث؟ والجواب: أن فتحة أبواب الجنة في رمضان وغلق أبواب النار وتصفيد الشياطين، الصحيح أنه محمول على حقيقته، وهو ظاهر الحديث، وأن الجنة تفتح حقيقة في رمضان، وتغلق أبواب النار، وتُسلسل الشياطين، ولا شيء يصرف الكلام عن ظاهره.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: (فإن قيل: فنرى الشرور والمعاصي تقع في رمضان كثيرًا، فلو كانت الشياطين مُصَفَّدة لما وقع شرٌّ؟ فالجواب من أوجه:

أحدها: أنها إنما تغل عن الصائمين الصوم الذي حُوْفِظَ عَلَى شُرُوطِهِ وَرُوِعِيَتْ آدَابُهُ، أمَّا ما لم يُحَافِظْ عَلَيْهِ فَلَا يُغَلُّ عَنْ فاعله الشيطان. الثاني: أننا لو سلمنا أنها صُفِّدَتْ عَنْ كُلِّ صَائِمٍ، لكن لا يلزم من تصفيد جميع الشياطين ألا يقع شرٌّ؛ لأنَّ لوقوع الشرِّ أسبابًا أُخْرَ غير الشياطين، وهي: النفوس الخبيثة، والعادات الركيكة، والشياطين الإنسيَّة. والثالث: أن يكون هذا الإخبار عن غالب الشياطين والمردة منهم، وأمَّا من ليس من المردة فقد لا يُصَفَّدُ. والمقصود: تقليل الشرور، وهذا موجود في شهر رمضان؛ لأنَّ وقوع الشرور والفواحش فيه قليل بالنسبة إلى غيره من الشهور) (٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا قال النبي ﷺ «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانَ فَتُحَتُّ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ»؛ فَإِنَّ مَجَارِيَ الشَّيَاطِينِ، الَّذِي هُوَ الدَّمُ، صَاقَتْ؛ وَإِذَا صَاقَتْ انْبَعَثَتْ الْقُلُوبُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، الَّتِي بِهَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَإِلَى تَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ الَّتِي بِهَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ فَضَعُفَتْ قُوَّتُهُمْ وَعَمَلُهُمْ بِتَصْفِيدِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَفْعَلُوا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي غَيْرِهِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُمْ قَتَلُوا وَلَا مَاتُوا؛ بَلْ قَالَ: (صُفِّدَتْ) وَالْمُصَفَّدُ مِنَ الشَّيَاطِينِ قَدْ يُؤْذِي، لَكِنَّ هَذَا أَقَلُّ

(١) رواه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٩).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ١٣٦).



وَأُضْعِفُ مِمَّا يَكُونُ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ؛ فَهُوَ بِحَسَبِ كَمَالِ الصَّوْمِ وَنَقْصِهِ؛ فَمَنْ كَانَ صَوْمُهُ كَامِلًا دَفَعَ الشَّيْطَانَ دَفْعًا لَا يَدْفَعُهُ الصَّوْمُ النَّاقِصُ؛ فَهَذِهِ الْمُنَاسِبَةُ ظَاهِرَةٌ فِي مَنَعِ الصَّائِمِ مِنَ الْأَكْلِ^(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا من معونة الله للمسلمين، أن حبس عنهم عدوهم الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، ولذلك نجد عند الصالحين من الرغبة في الخير والعزوف عن الشر في هذا الشهر أكثر من غيره)^(٢).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (وقيل: في هذا إشارة إلى رفع عذر المكلف، كأنه يُقال له: قد كُفِّتِ الشَّيَاطِينُ عَنْكَ؛ فَلَا تَعْتَلِّ بِهِمْ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ وَلَا فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ)^(٣).

فالذين وراء هذه البرامج هم مردة شياطين الإنس، بل هم من هذه الأمة، لكنهم مع الأسف يتنكرون لدينها وأهلها، وأحكامها الشرعية وآدابها المرعية بهذه البرامج ودعمها المادي وهي التي لا هدف لها إلا تفويت الأجر والثواب وجرح شعيرة الصيام، فهي تعمل طوال ساعات الليل والنهار، حتى انشغل بها الكثيرون في نهار رمضان وليله عن الذكر والاستغفار وقراءة القرآن، وجلسوا أمام الشاشات مكتفين من الصيام بالإمساك عن الطعام فقط، وهذا عام سواء في شاشات القنوات، أو شاشات الصفحات والانشغال بما يعج في الشبكة العنكبوتية من منشورات ومقاطع وصور ومراسلات في شتى المواقع والحسابات.

أيها المسلمون: هل ينكر أحدٌ منا أن الله حرم علينا معاشر الرجال النظر إلى المرأة الأجنبية؟! فكيف حين تظهر بكامل زينتها أمام الملايين من الناس؟ سواء في نشرة إخبارية، أو برامج ومسلسلات مُحَلَّةٌ بالآداب، أو حفلات غنائية ماجنة، نسأل الله العفو والعافية.

إن كثيرًا مما نراه يُعرض على الناس في رمضان أو في غير رمضان هي برامج تتعارض مع الآداب والمبادئ والقيم، قنوات حرمت الناس السكينة والهدوء بأفلام رعاية البقر ومسلسلات الخلاعة والعنف والجريمة، تبث على مدار الساعة ولا تستحي أن تتوقف حتى

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/٢٤٦).

(٢) مجالس شهر رمضان لابن عثيمين (ص ٨) بتصرف.

(٣) فتح الباري (٤/١١٤).



في رمضان، تُرى هل صارت المرأة سلعةً يتاجر باستعراضها وبأعراضها أصحاب القنوات سعيًا لجذب الجماهير وكسب الأموال؟ هل تبلّدت أحاسيس الناس؟! وهل ماتت النخوة والغيرة والعفة؟ حتى صرنا لا ننكر مثل هذه المشاهد التي لا يرضاها دين ولا يقرّها عُرف، وصار من الطبيعي أن تظهر المرأة حاسرة الرأس كاشفةً لما ينبغي ستره، وتقبّلنا كلّ هذا على أساس أنه تمثيل، وأصبح الرجل الخليع الماجن يوصف بأنه ممثل قدير، وما هو في الحقيقة إلا جاهل يلهث وراء الشهرة والمال حتى ولو كان ذلك على حساب الآداب والقيم، وحتى لو تعارض مع شرع الله وأمره ونهيه!

أيها الصائمون: أسألكم وأتمتعون الجواب: هل يتناسب كل ما ذكر مع رمضان شهر جمع الحسنات وشهر نزول الرحمات والبركات؟! كيف تنزل علينا الرحمات؟! ما هذه التناقضات التي نعيشها؟! نمسك عن الطعام والشراب ولا نمسك عن النظر والاستماع لما لا يليق؟ هل الصيام فقط الامتناع عن الأكل والشرب؟! من كان لا يعرف الصيام إلا بهذه الصورة فهو مخطئ، الصيام هو صيام الجوارح كلها لكي تصل في النهاية إلى الغاية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فهل مشاهدة هذه البرامج تُكسب التقوى؟! إنها تقضي على البقية الباقية من إيمان العبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا كان تركها والتنزه عنها هو الحق والصواب، فهو في رمضان أحق وأصوب.

يا من ابتلي بمشاهدة هذه المحرمات، إننا نخاطب الإيمان الذي في قلوبكم ونخاطب الصيام الذي تصومون أن تتقوا الله جل وتعالى وأن يستحي الواحد منا من ربه فلا يعصيه ويخالفه وهو صائم أو مفطر، ولا يعصيه بنعمه التي أنعمها عليه، فهل هذا شكرٌ لله أن بلغك رمضان حين حال الموت بين البعض وبين بلوغهم رمضان فماتوا قبل رمضان فلم يدر كوه؟! أيها المسلمون الصائمون: إننا نخاطب الإيمان الذي في قلوبكم أن تحفظوا نعمة البصر ولا تطلقوها في النظر إلى ما حرم الله، فإن النظر نعمة، وإن النظرة إلى الحرام سهّمٌ مسموم من سهام إبليس، إن النظر بمنزلة الشرارة في النار، ترمى في الحطب اليابس، وقد تحرقه كله.



قنوات تسرق منا رمضان

كل الحوادث مبدؤها من النظر
كم نظيرة فعلت في قلب صاحبها
والمراء ما دام ذا عين يقلبها
يسر مقلته ما ضر مهجته
ومعظم النار من مستصغر الشرر
فعل السهام بلا قوس ولا وتر
في أعين الغيد موقوف على الخطر
لا مرجباً بسرور عاد بالضرر

إن من غض بصره عما حرم الله عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره في محارم الله، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة والذنوب كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي.

ثم بعد هذا كله أيها الآباء، ما ذنب الأولاد والنساء المحصنات في البيوت أن نربيهم على مسلسلات الخلاعة والمجون ويكبرون على التناقضات، فيترى الطفل منذ الصغر والمرأة في المنزل وعندهم أن لا مانع من النظر إلى النساء والاختلاط والمناظر المخلة بالأداب والقيم، ثم يشتكي الواحد منا بعد ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي تسببها هذه الأحوال الناتجة عن التفریط والإهمال.

بل صارت هذه الشاشات والصفحات سواء في النت أو الفضائيات سبباً لتفريق الأهل واختلال نظام الأسرة، لم يعد الاجتماع والألفة بينهم كما كانت، حتى إنهم ربما يجتمعون بأجسادهم وهم متفرقون بأذهانهم وقلوبهم وعقولهم، فكل منهم ينظر في شاشة جهازه منشغلاً بالمطالعة والتواصل مع غير من يجالسه، ولم يعلم أن من يجاوره في مجلسه أحق بالإقبال عليه ممن يرأسه في هاتفه.

أين هذا الحال الرمضاني الذي نتكلم عنه عن حال سلفنا وقدواتنا في رمضان حين كانوا يقيمون ليله بالقرآن ويصومون النهار؟ بل أين هدوء ليالي رمضان التي كنا نعرفها قديماً، حين كان ليل رمضان جوّه الخاص في المسجد وشفافيته الفياضة وروحانيته الخاصة في الأسرة، بين صلاة تراويح وتدارس لكتاب الله واستغفار بالأسحار وتبكير إلى الصلوات؟ نسأل الله العون على مرضاته.

بارك الله لي ولكم في الفرقان العظيم، ونفعنا وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى وتوبوا إليه، واعلموا أن ربكم بفضله ومنه قد جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه بطاعته، فبادروا وفقكم الله إلى الخيرات، وأصلحوا من أحوالكم، فالمسؤولية عظمى والمحاسبة دقيقة.

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَاوُنُسٌ وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنَاطِقِي صَمْتُ
فَحَطِّي إِذْنٌ مِنْ صَوْمِي الْجُوعُ وَالظَّمَا فَإِنْ قُلْتُ إِيَّيْ صُمْتُ يَوْمِي فَمَا صُمْتُ

لقد كان الصالحون لا يدعون شيئاً يزاحم القرآن في رمضان، كان الإمام أحمد يُغلق الكتب ويقول: (هذا شهر القرآن). وكان الإمام مالك بن أنس لا يفتي ولا يدرّس في رمضان، ويقول: (هذا شهر القرآن).

يا عبد الله: يا من أيام عمره في حياته معدودة، يا من عمره يقضى في الساعة والساعة فيما لا فائدة منه، يا كثير التفریط في قليل البضاعة، يا شديد الإسراف، يا قوي الإضاعة، كأني بك عن قليل ترمى في جوف قاعة مسلوباً لباس القدرة وبأس الاستطاعة، وجاء منكروك ونكير في أفضع الفطاعة، كأنها أخوان من الفطاعة من لبان الرضاعة، وأسميت تجني ثمار هذه الزراعة، وتمنيت لو قدرت على لحظة لطاعة، وقلت: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وما لك كلمة مطاعة، يا متخلّفاً عن أقرانه قد آن أن تلحق الجماعة، وتعلن التوبة عن تلك الآثام هذه الساعة.

انظر لآثار الصالحين وأفعالهم يا عبد الله، واقتد بهم، واستكثروا من الطاعات والنوافل من بعد الفرائض استغلالاً لشهركم، واسعوا في قضاء حوائج المحتاجين، وتفقدوا أحوال المساكين، يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (أحبُّ للصائمين الزيادة في الجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله ﷺ).

أوصى أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصحابه يوماً فقال: «إن سفر القيامة طويل، فخذوا ما يصلحكم، وصوموا يوماً شديداً الحرِّ الحرِّ يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور،



وتصدقوا بصدقة السر ليوم العسر»، ولما قيل للأحنف بن قيس إنك شيخ كبير والصوم يضعفك قال: (إني أعدّ لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله).

إنه شهر القرآن عباد الله، فيه تصفو القلوب، وتزكو النفوس بالإقبال على الصلاة وقراءة آي القرآن الكريم، من صامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، بشر بقدمه رسول الله صحابته فقال: «أتاكم شهر رمضان، شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»^(١).

هذا وصلوا وسلموا...



(١) صحيح الترغيب (٩٩٩).

العشر الأواخر من رمضان^(١)

الخطبة الأولى:

• إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل الصوم جنةً، وسبباً موصولاً للجنة، ورياضةً للنفوس المطمئنة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أعبد الخلق وأتقاهم، وأكملهم وأزكاهم، الذي كان إذا أقبلت العشر جدًّا وشدَّ المنزر، وأحيا ليلته، وأيقظ أهله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

جَرَتِ السَّنُونَ وَقَدْ مَضَى الْعَمْرُ	وَالْقَلْبُ لَا شُكْرًا وَلَا ذِكْرًا
وَالْغَفْلَةُ الصَّمَاءُ شَاهِرَةٌ	سَيْفًا بِهِ يَتَصَرَّمُ الْعَمْرُ
حَتَّى مَتَى يَا قَلْبُ تَغْرُقُ فِي	لَجَجِ الْهَوَى، إِنَّ الْهَوَى بِحَرِّ
هَاقِدٍ حَبَاكَ اللَّهُ مَكْرَمَةً	طَرَقَتْ رِحَابِكَ هَذِهِ الْعَشْرُ

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



عباد الله: ها هو شهر رمضان، شهر الإحسان وتلاوة القرآن، وشهر المغفرة والعتق من النيران، يتهيأ للرحيل والزوال، تصرمت ساعاته، وانقضت ليلاليه وأيامه كغيرها من الليالي والأيام التي مرت علينا وكأنها أضغاث أحلام، لم نكد نفرح بقدمه حتى صرنا نحزن لانقضائه، ولم نكد نستقبله حتى أصبحنا نودعه.

أيها المسلمون: مضت أكثر أيام شهركم، وانقضت ليلاليه شاهدة عليكم بما عملتم، وحافضة لما أودعتم، تدعون يوم القيامة يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، فينادي ربكم سبحانه: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١).

عباد الله: هذا هو شهركم وهذه نهايته، ولربما يكون هذا الشهر آخر شهر يصومه بعضنا، فكم من مستقبل لرمضان لم يستكمله! وكم من مؤمل بعود إليه لم يدركه! وتلك الأيام نداؤها بين الناس.

أيها المسلمون: لئن مضى من شهركم الكثير فقد بقي فيه بقية هي خير مما مضى، بقيت من شهركم العشر الأواخر، وإن من رحمة الله بعباده - وهو الغني عنهم - أن جعل أفضل أيام رمضان آخره، كما جعل أفضل الليل آخره، وكما جعل أفضل ساعات الجمعة آخرها؛ إذ النفوس تنشط عند قرب النهايات، وتستدرك ما فاتها رغبةً في التعويض.

ولذا كان رسول الله ﷺ يحتفي بالعشر الأواخر احتفاءً عظيماً، ويعظمها تعظيماً جليلاً، ويوليها عنايةً خاصة، ويجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها، ويزيد فيها من العبادة ما لا يزيد فيها سواها من أيام وليالي الشهر، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»^(٢). وكانت تقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما عند مسلم: «كان يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها»^(٣).

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٤).

(٣) رواه مسلم (١١٧٥).



عباد الله: ومن بعده عليه الصلاة والسلام سارت قوافل الصالحين المقربين على الطريق ذاته، تقف عند العشر وقفة جد وصرامة، تنهل من معينها، وترتوي من فيض عطاءاتها، وتعمل فيها ما لا تعمل في غيرها، فلقد كان السلف الصالح من أسرع الناس امتثالاً واتباعاً للنبي في اغتنام العشر، فكان كثير منهم يجتهدون في ليالي العشر اجتهاداً عظيماً، قال أبو عثمان: (كانوا يعظمون ثلاث عشرات: العشر الأول من محرم، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأواخر من رمضان).

وكان قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَحْتَمِ القرآن في كل سبع ليال مرة، فإذا دخل رمضان ختم في كل ثلاث ليال مرة، فإذا دخلت العشر ختم في كل ليلة مرة.

ومن شدة تعظيمهم لهذه الأيام كانوا يتطيبون لها ويتزينون، وكان بعضهم يغتسل كل ليلة ليكون أنشط له في العبادة، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه ليخلو في محرابه يدعو الله ويعبده وهو في أكمل هيئة وأبهى صورة. قال ابن جرير: (كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر، وكان النخعي يغتسل كل ليلة).

ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، فقد روي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل وتطيب ولبس حلة إزار ورداء، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسها إلى مثلها من قابل. وكان أيوب السخيتاني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر. وكان ثابت البناني وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيبان المسجد في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر! قال ثابت: (وكان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم وكان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر).

هكذا كانوا تعظيماً لهذه العشر، وهكذا كانوا اجتهاداً في العبادة وانقطاعاً لها في هذه الليالي المباركات.

عباد الله: ولقد كان نبيكم ﷺ لشدة عنايته باستغلال هذه العشر الأواخر من رمضان يحرص على الاعتكاف فيها، وهو لزوم المسجد لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فاعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجه من بعده.



أيها المسلمون: الاعتكاف سنة متبوعة، وفضيلة مشروعة، والمعتكف ذكر الله أنيسه، والقرآن جليسه، والصلاة راحته، ومناجاة الحبيب متعته، والدعاء والتضرع لذته، إذا أوى الناس إلى بيوتهم وأهليهم ورجعوا إلى أموالهم وأولادهم لازم هذا المعتكف بيت ربه، وحبس من أجله نفسه، يقف عند أعتابه يرجو رحمته ويخشى عذابه، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «السنة للمعتكف أن لا يخرج إلا لحاجته التي لا بد منها، ولا يعود مريضاً، ولا يمس امرأته، ولا اعتكاف إلا في مسجد جماعة، والسنة لمن اعتكف أن يصوم» اهـ. ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (شرع الله الاعتكاف الذي مقصوده وروحه: عكوف القلب على الله تعالى والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، فيصير أنسه بالله بدلاً من أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه يوم الوحشة في القبور حيث لا أنس له يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم). اللهم وفقنا لاغتنام الخيرات، وضاعف لنا الدرجات.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

عباد الله: إن مما يزيد العشر الأواخر فضلاً وبركة أن فيها ليلة القدر، وهي ليلة عظيمة وشريفة تعدل عبادتها ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، هي دُرّة الليالي، وواسطة العقد، وهي خير ليالي السنة ومكانها في ليالي العشر الأواخر من رمضان كمكان يوم عرفة - الذي هو خير أيام السنة - من أيام العشر الأول من ذي الحجة، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١). قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: (بلغني أن رسول الله أُري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغه غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر).

أيها الأحبة إن من الخُذْلان تضييع هذه المواسم والأزمان، وتفويت هذه الليالي والأيام، وليت شعري إن لم نغتنم هذه الأيام فأَيُّ موسم نغتنم؟ وإن لم نُقرِّغ الوقت الآن للعبادة فأَيُّ وقت سنفرِّغه لها؟

سبحان الله! أَيُّ غبنٍ وخُذْلان أن تُهَجَّرَ المساجد وتُعمَّرَ الأسواق في أعظم ليالي السنة وأفضلها، بل وفي الساعة الشريفة التي ينزل فيها ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ليعطي السائلين، ويغفر للمذنبين، ويتوب على التائبين المنيين، في الثلث الأخير من الليل!

أيها المسلمون: إن ليلة القدر تُطلب في أوتار العشر الأواخر من رمضان، فإن ضعف العبد أو عجز عن قيام العشر كلها فلا يُغْلِبَنَّ على السبع الأواخر، لما روى ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله «التمسوها في العشر الأواخر يعني: ليلة القدر، فإن ضعف أحدكم أو عجز، فلا يُغْلِبَنَّ على السبع البواقي»^(٢).

(١) رواه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠).

(٢) رواه مسلم (١١٦٥).



فاجتهدوا رحمكم الله في هذه البواقي من ليالي الشهر، أحيوها بالعبادة، وأكثروا فيها من الصلاة والأذكار والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، كما كان نبيكم يفعل، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله، أرأيت إن علمتُ أي ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»^(١).

عباد الله: ليلة القدر يفتح فيها الباب، ويقرب فيها الأحاب، يسمع الخطاب، ويرد الجواب، ليلة ذاهبة عنكم بأفعالكم، وقادمة عليكم غداً بأعمالكم، فيا ليت شعري ماذا أودعتموها؟! وبأي الأعمال ودّعتموها؟! أتراها ترحل حامدة لصنيعكم أم ذامة تضييعكم؟! هذا أوان السباق فأين المتسابقون؟! وهذا أوان القيام فأين القائمون؟! تَرَحَّلَ الشَّهْرُ وَاهْتَفَاهُ وَانْصَرَمَا وَأَصْبَحَ الْغَافِلُ الْمُسْكِينُ مُنْكَسِرًا مَن فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ الْبَذَارِ فَمَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كفى تقصيراً وغفلة واتباعاً للهوى، كفى إعراضاً عن ذكر الله وشكره، فقد انقضى الثلثان من شهر رمضان كلمح البصر، ولكن بقي الثلث، والثلث كثير أو كبير.

أخي الحبيب: إنها والله لنعمة كبرى أن تفضل الله عليك ومدّ في عمرك حتى بلغت هذه العشر المباركة، وإن من تمام شكر هذه النعمة أن تغتنمها بالاستكثار من الأعمال الصالحة. تذكّر أنها عشرٌ ليالٍ فقط تمرُّ كطيف خيالٍ في المنام، ثم تنقضي كلمح البصر ولا تعود إلا بعد عام، لا تدري ما الله صانعٌ فيه، ولا تدري على من تعود!

فليكن همُّك فيما بقي من ليالي هذا الشهر المبارك أن تُريَ الله من نفسك خيراً، بالاجتهاد في الطاعات، وعدم تفويت هذه الساعات، استعن بالله وكن عوناً لمن حولك ومن هم تحت يدك على القيام والتلاوة وذكر الله تعالى، يقول سفيان الثوري: (أحب إليّ إذا دخل العشر الأواخر أن يجتهد بالليل، ويُنهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك).

(١) صحيح الترمذي (٣٥١٣).



وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: (لم يكن النبي ﷺ إذا بقي من رمضان عشرة أيام يدع أحدا من أهله يطيق القيام إلا أقامه).

فأنزلوا هذه الليالي منزلتها، واقدروها حق قدرها، وأحيوها في مساجدكم وفي بيوتكم، وتهيأوا لها وفرغوا لها أوقاتكم، لعلها أن تترك أثراً طيباً على ذريبتكم وأهليكم، ولا تجعلوها كغيرها من سائر الليالي، فإن لها عند الله تعالى شأنًا عظيمًا، وإن التقرب إلى الله تعالى فيها بالطاعة أكبر فضلًا وأعظم أجرًا، فالمحروم من حُرْم خيرها وبركتها.. جعلنا الله ممن يوفق فينال ثوابها، ويجوز بركتها.

هذا وصلُّوا وسلِّموا على البشير النذير، والسراج المنير، محمد صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر.





رمضان مدرسة لتجديد الإيمان^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي يمنُّ على عباده بمواسم الخير أفراحًا، ويدفع عنهم بلطفه أسباب الردى شروراً وأتراحًا، أحمه تعالى حمدًا يتجدد غدوًا ورواحًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مبدع الكائنات أرواحًا وأشباحًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله رافع لواء الدين دعوة وإصلاحًا، والهادي إلى طريق الرشاد سعادة وفلاحًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خيار هذه الأمة تقىً وصلحاءً، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقبت الليالي والأيام مساءً وصباحًا، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأوصيكم -عباد الله- ونفسي بتقوى الله جل وعلا، فهي العدة العتيدة لمن رام خيرًا وصلحاءً، ونشد عزًا وفلاحًا، وقصد برًا وتوفيقًا ونجاحًا.

يَا ذَا الَّذِي مَا كَفَاهُ الذَّنْبُ فِي رَجَبٍ حَتَّى عَصَى رَبَّهُ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ
لَقَدْ أَظْلَلَكِ شَهْرُ الصَّوْمِ بَعْدَهُمَا فَلَا تُصَيِّرْهُ أَيضًا شَهْرَ عِضْيَانَ
وَاتْلُ الْقُرْآنَ وَسَبِّحْ فِيهِ مَجْتَهِدًا فَإِنَّهُ شَهْرُ تَسْبِيحٍ وَقُرْآنٍ
كَمْ كُنْتَ تَعْرِفُ مَمَّنْ صَامَ فِي سَلَفٍ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ وَجِيرَانٍ وَإِخْوَانٍ
أَفْنَاهُمُ الْمَوْتُ وَأَسْتَبْقَاكَ بَعْدَهُمْ حَيًّا فَمَا أَقْرَبَ الْقَاصِي مِنَ الدَّانِي

في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين»^(٢).

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.

(٢) رواه مسلم (١٠٧٩).



يا لها من فرصة عظيمة، ومناسبة كريمة، تصفو فيها النفوس، وتهفو إليها الأرواح، وتكثر فيها دواعي الخير، تفتح الجنات، وتنزل الرحمات، وترفع الدرجات، وتغفر الزلات، وتحط الأوزار والخطيئات، يجزل الله فيها العطايا والمواهب، ويفتح أبواب الخير لكل راغب، ويعظم أسباب التوفيق لكل طالب، فله الحمد والشكر على جزيل نعمائه، وترادف مننه وآلائه، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

أيها المسلمون: أرايتم بماذا تقاس أفرح أهل الإيمان؟! إنها أفرح علوية، ومسرات روحية، تطلق النفوس من قيد المطامع الشخصية، وتحررها من أسر الأغراض المادية، وتحلق بها في آفاق أسمى وأولى، وتترقى بها في طموحاتٍ أرحب وأعلى، لذلك كانت أفرح أهل الإيمان عن الملذات تتسامى، وعن المشتبهات تترفع وتتعالى، أفرح المؤمنين تتجدد بتجدد مواسم الخير والعطاء، ومناسبات الطهر والصفاء، والمحبة والمودة والإخاء، والبر والسعادة والهناء، وكيف لا يفرح المؤمن بفتح أبواب الجنان؟! وكيف لا يفرح المذنب بإغلاق أبواب النيران؟! فيا بشرى للمسلمين بحلول شهر الصيام والقيام!

ويا لها من فرحة غامرة تعيشها الأمة الإسلامية هذه الأيام، فهي إزاء دورة جديدة من دورات الفلك السيار، والزمن الدوار، وإن في مرور الليالي والأيام لعبراً، وفي تصرُّم الشهور والأعوام لمزدجراً ومدكراً.

تمر الأيام وما أسرعها! وتمضي الشهور وما أعجلها! يهل علينا رمضان بعد مضي عام كامل، كم في هذا العام من عزيز مفقود، وكريم مولود، كم فيه من عزيز ذل، وذليل عز، ووضع ارتفع، ورفيع أتضع.

يطل علينا موسمٌ كريم، وشهر عظيم، ويفد علينا وافدٌ حبيب وضيف عزيز، شهر رمضان المبارك بأجوائه العبقية، وأيامه المباركة الوضاعة، ولياليه الغر المتلاثلة، ونظامه الفريد المتميز، وأحكامه وحكمه السامية.

معاشر المسلمين: إن الأفراد والأمم لمحتاجون لفترات من الراحة والصفاء لتجديد معالم الإيمان، وإصلاح ما فسد من أحوال، وعلاج ما جد من أدواء، وشهر رمضان المبارك هو المحطة الروحية التي تجد فيها هذه الأمة فرصتها الثمينة لاستجلاء تاريخها، واستنهاض

هممها، وإعادة أمجادها، وإصلاح أوضاعها، إنه محطة لتعبئة القوى الروحية والخلقية التي تحتاج إليها الأمة، بل يتطلع إليها كل فرد في المجتمع، إنه مدرسة لتجديد الإيمان، وتهذيب الأخلاق، وتقوية الأرواح، وإصلاح النفوس، وضبط الغرائز، وكبح جماح الشهوات، إنه مضمار يتنافس فيه المتنافسون، ويستبق العاملون، للوصول إلى قمم الفضائل، وكريم الشرائع، وبه تتجلى وحدة الأمة الإسلامية وأخوتها.

أيها الأحبة: الصيام مدرسة للبذل والجود، والبر والصلة، فهو حقاً معين الأخلاق ورافد الرحمة، ومنهل عذب لأعمال الخير في الأمة، فما أجدرها وهي تستقبل شهرها أن تقوم بدورها، وتحاسب نفسها، وتراجع حساباتها، وتعيد النظر في مواقفها، ما أحوجها إلى استلهاهم حكم الصيام، والاستفادة من معطياته، والنهل من معين ثمراته ونمير خيراته.

أمة الإسلام: بماذا عسانا أن نستقبل شهرنا الكريم، وموسمنا الأغر العظيم؟! إن الناظر في واقع الناس اليوم إزاء استقبال هذا الشهر الكريم يجدهم أصنافاً:

فمنهم من لا يرى فيه إلا جوعاً لا تتحمله البطون، وعطشاً لا تقوى عليه العروق. ومنهم من يرى فيه موسمًا سنويًا للموائد الزاخرة باللذيذ المستطاب من الطعام والشراب، وفرصة سانحة للسمر والسهر واللهو إلى هجيع من الليل، بل إلى بزوغ الفجر، ممتطين صهوة الفضائيات، وما تقذف به شتى القنوات، وما تعج به شبكات المعلومات، يتبع ذلك استغراق في نوم عميق نهاراً، فإذا كان من ذوي الأعمال تبرّم بعمله، وإذا كان من أصحاب المعاملات ساءت معاملاته وضاق بها صدره، وإذا كان موظفاً ثقل عليه الالتزام بأداء مسؤولياته، وقلّ إنتاجه وعطاؤه، وغالب هذا الصنف هم من يملؤون الأسواق هذه الأيام تكلفاً وتخزيناً للمواد الغذائية المتنوعة، زاعمين أن ذلك يترجم الاستقبال الأمثل لرمضان، وهذا كله إنما يصدر ممن ليس له عناية بمغزى هذا الشهر الكريم والغاية من فرض الصيام.

ثم هناك صنف في الأمة -هم بحمد الله الأكثرون إن شاء الله- وهم من يرى في رمضان غير هذا كله، وأجلّ منه جميعه، إذ يرون فيه دورة إيمانية تدريبية لتجديد معانٍ عظيمة في النفوس، من تحقيق التقوى، والإيمان العميق، والخلق القويم، والصبر الكريم، والعمل



النبيل، والإيثار الجليل، والتهديب البليغ، والإصلاح العام للأفراد والمجتمعات، ﴿كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، لا تشديدًا عليكم، بل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فإن العبادات لم تُفرض ليعاني الناس مشقتها ويكابدوا عنتها، إنما فرضت لتطهير القلوب وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق وكبح جماح الشهوات، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وإن من أول ما ينبغي أن تُستقبل به هذه المحطة الإيمانية والمنحة الربانية: التوبة الصادقة من جميع الذنوب والمعاصي، وأي عبدٍ لم يَلْمِ بشيءٍ من ذلك؟! كما يجب الخروج من المظالم، وأداء الحقوق إلى أصحابها، وفتح باب المحاسبة الجادة للنفوس، والمراجعة الدقيقة للمواقف، والعمل على الاستفادة من أيامه ولياليه صلاحًا وإصلاحًا، بهذا الشعور والإحساس يتحقق الأمل المنشود، وتسعد الأفراد والمجتمعات بإذن الله.

أما أن يدخل رمضان ويراه بعض الناس تقليدًا موروثًا، وأعمالًا صورية محدودة الأثر وعادات روتينية ضعيفة العطاء، فهذا لقلة العناية بمقاصد الشرع، وقلة الفقه لمراد الله تعالى، بل لعل بعضهم أن يزداد بحلول رمضان سوءًا وانحرافًا وتضييعًا لبعض العبادات والصلوات والعياد بالله، فهو للعبث واللغو في الليل، وللنوم والسهو في النهار، وذلك والله انهزام نفسي، وعبثٌ شيطاني، له عواقبه الوخيمة على الفرد والمجتمع، وقد قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

فإذا لم يتقرب العبد إلى ربه في هذا الشهر فمتى يتقرب؟ وإذا لم يسارع إلى الخيرات ويكر إلى الصلوات ويحرص على التلاوات فيه فمتى؟ وإذا لم يتخلص من قيود الأهواء والشهوات فيه فمتى عساه يفعل؟

(١) رواه البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠).



أيها المسلمون: إن رمضان فرصة للمذنبين للتوبة والإنابة، وفرصة للمقصرين للمبادرة إلى الأعمال الصالحة وتعوُّد المداومة عليها، كما أنه فرصة للطائعين للاستزادة من العمل الصالح، يا لها من فرصٍ لا يُرحم فيها إلا مرحوم، ولا يجرمها إلا محروم!

فالله الله -عباد الله- في الجِد والتشمير دون استئقالٍ لصيامه، واستطالة لقيامه، واستبطاءٍ لأيامه، وحذار حذار من الوقوع في نواقضه ونواقصه، أو تعاطي مفطراته الحسية والمعنوية، من الغيبة والنميمة، واللغو واللغو، والنظر إلى الحرام، فإن ذلك مما يجرح الصيام وينقص أو قد يبطل ثوابه، وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(١).

إخوة الإيمان: جاء شهر الخيرات والبركات، فالذين يستقبلونه على أنه شهر جوعٍ ونومٍ، وحرمانٍ نهاري، وشبع وسهر ليلي، وأعمالٍ وأقوالٍ لا تتجاوز اللسان، ولا يعمر به جنان، لن يستفيدوا من معطياته، ولن ينهلوا من خيراته، وأما الذين يستقبلونه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان، ومحطة لتهديب الأخلاق والسلوك، وتقوية الضمائر والأرواح، وتحرر من أغلال الشهوة، وتحكُّم العادة، ووحل المعصية، وانطلاقة جادة لحياة أفضل، ومستقبل أكمل، فهؤلاء هم المستشعرون لما فيه من الفضل، المستثمرون له على الحقيقة، قد أغدوا السير وجدوا في المسير لتحصيل بركاته، والنهل من خيراته، هؤلاء هم الخلقون بالرحمات، الحقيقيون المكرمات، الجديرون بالعطايا والهبات، المبشرون حقًا بفتح أبواب الجنات، هؤلاء -ياذن الله- هم المعول عليهم -بعد الله- في صلاح الأوضاع، واستنزال النصر، واستنهاض الهمم، والارتقاء للقمم، وكسب الجولات، في إسعاد المجتمعات، ومواجهة التحديات.

وما أحوجنا إلى هذا الجيل الإيماني اليوم ونحن نواجه المؤامرات من قوى الشر والطغيان، وإن الغيور ليتساءل بحرقه وأسى: بأي حالٍ يستقبل رمضان أولئك الصائمون من الفقراء والمعوزين، والمساكين والمعدمين، والمظلومين والمستضعفين؟ إن كنا في سترٍ وعافية، فلنتذكر من ضاقت به الحيلة، وتقطعت به السبل، وأوصدت أمامه الأبواب.

(١) رواه البخاري (٦٠٥٧).



إن الواجب علينا - يا عباد الله - شكر نعمة الله على ما نعيشه من أمن وأمان، وأن نتفقد إخوتنا ونقدم لهم ما نستطيعه من دعاءٍ وبذلٍ وعطاء، لا سيما من ذوي المال واليسار، والغنى والافتقار، في تلمُّس احتياجات إخوانهم الذين تربطهم بهم عقيدة الإسلام والجوار والرحم، كيف لا وقد حلَّ فينا شهر الخير والبركة، وهو شهر الجود والبذل والعطاء، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، بل يكون أجود بالخير من الريح المرسلة، فلنتحسس إخواننا المحتاجين من قريبٍ وبعيدٍ، ونمد لهم يد العون والمساعدة، وهذا من واجب الأخوة ومقتضيات المروءة.

اللهم أهلَّ علينا شهر رمضان بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحبه وترضاه يا ذا الجلال والإكرام، واغفر اللهم لنا ما سلف وكان، من الذنوب والخطايا والعصيان، اللهم اجعله شهر عزٍّ ونصرٍ للإسلام والمسلمين في كل مكان، اللهم وأعنا فيه على الصيام والقيام، واجعلنا ممن يصومه ويقومه إيمانًا واحتسابًا، إنك خير مسؤول وأكرم مرتجى مأمول.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله يمنُّ على عباده بمواسم الخيرات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب البريات، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله المبعوث بكريم السجايا وشريف الصفات، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والمكرامات، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما دامت الأرض والسموات؛ أما بعد:

إذا رمضان أتى مقبلاً فأقبل فبالخير يُستقبل
لعلك تخطئه قابلاً وتأتي بعذر فلا يقبل

اتقوا الله - عباد الله - واشكروه على ما منَّ به عليكم من قرب حلول شهر الصيام والقيام، واعلموا - يا رعاكم الله - أن إدراك شهر رمضان نعمة عظيمة ومنة كبرى، فكم من أناسٍ حال بينهم وبينه هادم اللذات ومفرق الجماعات، ولقد كان رسولكم ﷺ يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان، يستحث بذلك عزائم المؤمنين، ويشرح صدور المسلمين للإقبال على طاعة رب العالمين، ويشوقهم ويرغبهم فيما عند الله من الفضل العظيم والخير العميم، فقد روى ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والبيهقي من حديث سلمان رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يومٍ من شعبان فقال: «أيها الناس: قد أظلكم شهرٌ كريم مبارك، شهرٌ فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر...»^(١).

وفي الحديث الآخر: «أتاكم شهرٌ رمضان، شهرٌ مبارك، فرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغلُّ فيه مردةُ الشياطين، لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، من حُرِّمَ خيرها فقد حُرِّمَ»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان صُفِّدَت الشياطينُ ومردةُ الجنِّ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير: أقبل، ويا باغي الشر: أقصر، والله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة»^(٣).

(١) تمام المنة (٣٩٥) قال الألباني: (صحيح لغيره).

(٢) صحيح الترغيب (٩٩٩).

(٣) صحيح الجامع (٧٥٩).



أيها الأحبة: إن شهر رمضان هو شهر القرآن، فينبغي أن يكثُر العبد المسلم من قراءته، وقد كان من حال السلف العناية بكتاب الله، فكان جبريل يدارس النبي القرآن في رمضان، وكان عثمان بن عفان يختم القرآن كل يوم مرة، وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع، وبعضهم في كل عشر، فكانوا يقرءون القرآن في الصلاة وفي غيرها، قال مسبِّح بن سعيد: (كان محمد بن إسماعيل البخاري يختم في رمضان في النهار كل يوم ختمة، ويقوم بعد التراويح كل ثلاث ليالٍ بختمة).

فيا من هجر كتاب الله طوال العام، هذه فرصة لأن تفتح صفحةً بيضاء وتعدّد عهدًا وثيقًا مع القرآن، فإنه روح الحياة، وحياة الروح ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو المبارك، وما زاحم القرآن شيئًا إلا باركه: ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، فلا تكن ممن علا الران قلوبهم، وأقفلت الغفلة أفئدتهم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا﴾ [محمد: ٢٤]، ولا تكن ممن يشكوهم النبي يوم القيامة إلى ربه بهجرهم كتاب الله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، اجعل القرآن ربيعًا لقلبك، ونورًا لصدرك، وجلاء لحزنك، وذهابًا لهمك وغمك، وتسليّة وتزكية لنفسك.

تأسّ بنبيك ﷺ، فقد كان إذا جاء رمضان استعد له، لا بالماكل والمشارب، بل بالطاعة والعبادة والجلود والسخاء، فإذا هو - مع ربه - العبد الطائع والمنيب الخاشع، ومع عباده الرسول الجائع السخيّ الجواد الكريم.

وأعدوا أنفسكم للتخلق بأخلاقه، والاستفادة من حكمه وأسراره، فيا من يريد تجارة لن تبور، ورزقًا لا ينفد، وربحًا لا يحد ولا يعد: في هذا الشهر تدرك، وبالصيام فيه تلحق بركب الفائزين، ها هي سوق الخير نصبت فأين المتاجرون؟! وساحة العفو اتسعت فأين المتنافسون؟!

وهمسة محبٍ ناصح في أذن كل من يواقع معصية، أو يقترف خطيئة، إن شهر رمضان فرصة للإقلاع والندم والتوبة والإنابة، وهو مدرسة الصبر والتحمل والقوة والإرادة، فلنبادر جميعًا إلى الكف عن الوقوع في أي لونٍ من ألوان المحرمات في حقوق الله أو في حقوق عباد



الله، لاسيما والأجواء الإيمانية والأوقات الروحانية تعين على ذلك، كيف لا والعمر قصير، والأجل يأتي بغتة. والله المستعان.

كما أن رمضان دعوة وذكرى للقائمين على وسائل الإعلام، والمسؤولين عن القنوات الفضائية، أن يتقوا الله في الأمة في هذا الشهر الكريم، فيثوا الخير والفضيلة، ويكفوا عن الشر والرذيلة، تادبًا مع قدسية الزمان، ورعاية لحرمة شهر رمضان، هذا إن رُمنّا الاستفادة من هذا الشهر الكريم، وإننا لفاعلون إن شاء الله.

هيا أيها المؤمنون: قد فتحت أبواب الجنة، فأين الراغبون؟!

ويا أيها المذنبون: قد أغلقت أبواب النار، فأين التائبون توبة صادقة نصوحًا شاملة

لكل جوانب الحياة؟!

قال الحسن البصري: (إن الله جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب اللاهي، في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبتلون).

فأروا الله من أنفسكم خيرًا، وتذكروا أنها هو أيام معدودات، وساعات تمر كلمح البصر، فاجعلوا رمضانكم هذا ليس كأبي رمضان مضى، وافتحوا فيه صفحة جديدة من حياتكم، مسطرة بأحرف الخير والبر والتقوى والعمل الصالح.

أتى رمضان مزرعة العبادِ لتطهير القلوب من الفسادِ

فأدِّ حقوقه قولاً وفعلاً وزادك فاتخذته إلى المعادِ

فمن زرع الحبوب وما سقاها تأوه نادماً يوم الحصادِ

هذا، وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على خير الورى وأفضل من وطئ الثرى، كما أمركم بذلك المولى جل وعلا، فقال تعالى قولاً كريماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



أحوال الناس بعد رمضان^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله مُقلِّب الأيام والشهور، والسنين والدهور، كريم ودود، غفور شكور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الحريص الصبور، دعا فأبلغ، وبشّر وأنذر، وبلّغ رسالة ربه في جميع الأمور، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الميامين البدور، وعلى أصحابه أهل البرِّ والأجور، ومن تبعهم بإحسان ما سطع ضياءً، ولا ح نور.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه، والثبات على دينه، والعزيمة على الرشد، والغنيمة من كل برٍّ، وإياكم والقصور والفتور؛ فإنها يهلكان العبد ويُبعدانه عن التزوُّد بمعالي الأمور: ﴿وَتَكَرَّوْا فَمَا كَانَ حَيْرَ الزَّادِ النَّفْوَى وَأَنْتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أيها المسلمون: الفرص الثمينة ما لفواتها عَوْض، وإن انتهازها لدليلٌ جليٌّ على قوة الإرادة النابعة عن عزمٍ موفقٍ، ومن فرح بالبطالة جبنٌ عن العمل، ولا يغرن المرء رغبته الصالحة مجرّدة عن العمل، فإنه لن يستفيد منها إلا إذا انتهز كلَّ فرصة سانحة له، وعموم الأعمال الصالحة لا تُكلف المرء وقتاً طويلاً ما لم يشقَّ على نفسه ويُرهقها عُسراً.

ولذا -عباد الله- فإن الميدان سباق، والأوقات تُنتهب، وما فات ما فات إلا بالخلود إلى الكسل، ولا ينيل خيرٌ إلا بالجِدِّ والعزم، وثمره الأمرين -عباد الله- أن تعب المُحصِّل للفضائل راحةٌ في المعنى، وراحة المُقصر في طلبها تعبٌ وشيءٌ يُعاب عليه إن كان ثمَّ فهمٌ وإدراك.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



والدنيا كلها إنما تُراد لتُعبَّرَ لا لتُعمَرَ، وسيُودَعُ كُلُّ واحدٍ منَّا قبره ولَمَّا يَقْضِ لُبَّانَتَهُ مِنْهَا، ومن ثمَّ يأسف على فقد ما وُجِدَ أنْفَعُ له في حين إن تأسَّفه ربا يكون نوع عقوبة عاجلة على تفریطه: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٨) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨].

وما هذه الدنيا -عباد الله- إلا كمائدةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ، وجوعها طويلٌ، ومن سلك الطريق الواضح دون فتورٍ أو مللٍ ورَدَ الماءَ فَهَلَّ منه رِيًّا، ومن خالفَ فقد وقع في التيه ولات ساعة ارتواء.

أيها المسلمون: إن شهر رمضان قد انصرم وانمَحَقَ، وتفرَّقَ نظامه بعد أن اتَّسَقَ، وانطَوَّت صحيفتهُ ذلك السوق بعد عرضٍ وطلبٍ، وبيعٍ وشراءٍ، وربحٍ وخسارةٍ، وغبنٍ وغبطةٍ، وصارت أحوال الناس في رمضان وبعد رمضان ثلاثة أضرب:

فَصْرَبٌ من الناس: ظنُّوا أن الله لا يُعْبَدُ إلا في رمضان، ولا يُطَاعُ إلا في رمضان، ولا محارم له إلا في رمضان، فبئس القوم هؤلاء الذين لا يعرفون الله إلا في رمضان، وبئس القوم هم إذ لم يربحوا من صومهم إلا الجوع والعطش، ولا من صلاتهم إلا التعب والسهرة: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ كُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]. قيل لبشر الحافي: إن قومًا يتعبدون في رمضان ويجتهدون في الأعمال، فإذا انسلخ تركوا! قال: بئس القوم قومٌ لا يعرفون الله إلا في رمضان.

وَصْرَبٌ آخر من الناس: حَمَلُوا أَنفُسَهُمْ ما لا تُطِيقُ، فأثقلوا عليها في العبادة فوق ما أَرَادَهُ اللهُ لهم، وراغموها دون تَلَطُّفٍ، وإن مما لا شكَّ فيه أن الرواحل إذا قَطَعَتْ مرحلتين في مرحلةٍ واحدةٍ فهي خَلِيقَةٌ بأن تَقِفَ، والطريق الشاقُّ ينبغي أن يُقَطَعَ بِالطَّفِ مَمْكِنٍ، ولذا فإن أخذ الراحة للجدِّ جدًّا، وغوصُ البحَّار في طلبِ الدُرِّ صعودٌ له، ومن أراد البيئنة على ذلك فليستمع إلى قول النبي ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»^(١).



وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس: خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دامَ وإن قلَّ»^(١).

أما الصَّربُ الثالث -عباد الله-: فهم أولئك المؤمنون المَلهَمُونَ، الخائفون الرجُونَ، الراغبون الراهبون، الذين توسَّطوا يوم تباين آخرون، واعتدلوا يوم شدَّ مغرورون، بواطنهم كظواهرهم، رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات من عبَاد ربِّ الشهور كلها، فهم يعبدون الله في كل حين، ويعلمون أن الله اختصَّ رمضان بزيادة فضلٍ وعملٍ لا يُلغِي عملَ الشهور كلها، ولا يستهينُ بالعمل في غيره، يعلمون أن رسول الله ﷺ جَوَادٌ في كل أحيانه، وإنها يزداد جُوده في رمضان.

ولأجل هذا -عباد الله- فإن هناك عباداتٍ هي من الثواب التي لا تتغيَّر بعد رمضان؛ كالصلاة، والزكاة، وصوم النوافل، والصدقة، والدعاء، وأمرٌ بمعروفٍ، ونهي عن منكر، وغير ذلكم كثير.

ناهيكم -عباد الله- عن ثابت التوبة الذي لا يتغيَّر؛ بل هو مطلوبٌ في كل حينٍ وأن، كما قال جل وعلا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقد كان النبي ﷺ يتأوَّها بقوله: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»^(٢).

ألا فاعلموا -عباد الله- أنكم قد علمتم ما سمعتم، ولقد أحسن من انتهى إلى ما سمع أو علم، ولقد ذُقتم طعم العبادة في رمضان، ولذَّة القُرب من الله، فلا تُعكِّروا هذا الصَّفوَ بالكدر، ولا تكدِّروا هذا الهناء بالشقاء، ولا تفسدوا القُرب بالبُعد: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلتُ ما قلت، إن صوابًا فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنه كان غفَّارًا.

(١) رواه البخاري (٥٨٦١) ومسلم (٧٨٢).

(٢) صحيح ابن ماجه (٣٠٩١).



الخطبة الثانية:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد: فاتقوا الله -عباد الله-، سلوا الله الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وسلوه القبول لما تيسر من يسير الطاعات في رمضان، فقد قال معلى بن الفضل: (كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم).

وخرج عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ في يوم عيد الفطر، فقال في خطبته: «أيها الناس! إنكم صتمتم لله ثلاثين يوماً، وقيتم ثلاثين ليلة، وخرجتم اليوم تطلبون من الله أن يتقبل منكم».

أيها الأحبة: لا ترجعوا بعد رمضان إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفِطام، فما الرِّضَاع إلا للطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، وعليكم بالصبر على مرارة الفِطام، والعقد على العافية والمعافة؛ لأن النكسة أصعب من المرض، والحور بعد الكور بلاءٌ وانهايار.

ولذا فإن من أعظم ما يُعين المرء على الثبات، وحصد الأجور الكبيرة في مُقابل العمل الصغير: ما جاء في أجور صيام النوافل التي يعلم المُقَصِّر من خلالها أنه سيكون حِلَسَ - أي: إلفَ - تفريطٍ يجعله من القَعْدَةِ المتخلفين إذا هو لم يُبادر ويتدبَّر بفضلها ونورها، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صامَ رمضانَ وَأَتْبَعَهُ سِتًّا من شِوَالٍ، كانَ كَصِوْمِ الدهرِ»^(١)، ووجه ذلك -عباد الله- أن الله جل وعلا جعل الحسنه بعشر أمثالها، فصيامُ رمضان يُعدُّ مُضاعَفًا بعشرة شهور، وصيام الستِّ بستين يوماً، فيتحصَّل من ذلكم أجر صيام سنَةٍ كاملة.

وفي الحديث الآخر: أن النبي ﷺ قال عن صيام ثلاثة من كل شهر -وهي أيام البيض-: «إنها كصيام الدهر»^(٢)، وعدد أيام البيض في السنة مع ستِّ من شِوَالٍ اثنان وأربعون يوماً، فمن صام رمضان، وستًّا من شِوَالٍ، وأيام البيض في سنَةٍ واحدة؛ صار كمن صام ستين كاملتين، فيتحصَّل بصيام اثنين وسبعين يوماً أجر سبعمائةٍ وعشرين يوماً: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ

(١) (٦٣٢٧).

(٢) صحيح الترغيب (١٠٤٠).



يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[الحديد: ٢١]﴾، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣]﴾.

هذا؛ وصلوا -رحمكم الله- على خير البرية، وأزكى البشرية: محمد بن عبد الله صاحب
الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته المسبحة بقدس، وآية
بكم أيها المؤمنون، فقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿[الأحزاب: ٥٦]﴾.

اللهم صلِّ وسلِّم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور، والجبين
الأزهر، وارض اللهم عن خلفائه الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعن أمهات
المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن أجمعين-، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين،
وعنَّا معهم بعفوك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين.



الحج أحكام وآداب (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله؛ بؤاً لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مكان البيت العتيق، وجمع لمن قصده خالصاً مخلصاً أسباب التوفيق، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، يَسِّر السبيل لبيته المحرم؛ فجاءوا حُجَّاجًا وَعُمَرَاءًا من كل فجٍ عميقٍ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً بها المخرج من كل ضيق، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، ذو المجد المؤثَّل والنسب العريق، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فتقوى الله سبيل النجاة، وطريق الفلاح، فاتقوه رحمكم الله لعلكم تفلحون، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها الإخوة! في هذه الأيام المباركة يتجه المسلمون إلى بيت الله الحرام؛ لأداء فريضة من فرائض الله، تاركين في سبيل ذلك أوطانهم، وأولادهم، وأموالهم، متجهين إلى مكان واحد، في زمن واحد؛ قاصدين ربًّا واحدًا، وهدفًا واحدًا؛ فإذا وصلوا إلى الميقات، خلعوا ثيابهم المألوفة، ولبس كل واحد منهم إزارًا ورداءً شبيهة بأكفان الموتى، وكأنهم مسافرون إلى الدار الآخرة، واقفون في عرصات القيامة، لا فرق في ذلك بين الصغير والكبير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأبيض والأسود، والعربي والعجمي، فالكل جاء جؤًا وبرًا وبحرًا؛ لحضور هذا التجمع الإسلامي الكبير؛ استجابة لنداء الله عَزَّوَجَلَّ على لسان خليله: ﴿وَأَذِّنْ فِي

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿٢٨﴾ [الحج: ٢٧-٢٨]. ويدخلون في حرم الله مُحْرَمِينَ خَاضِعِينَ خَاشِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ، قد تركوا ما فاتهم، واتجهوا إلى الله بقلوبهم وأبدانهم، ويتربعون في تلك المشاعر العظيمة من الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ومنى، ورمي الجمار، وذبح الهدي على اسم الله، والحلق أو التقصير وغيرها من أعمال الحج... إلى أن يُودعوا البيت، كل ذلك بقلوبٍ خاشعة، وأعينٍ دامعة، وألسنةٍ مكبرة مهللة ملبية داعية.

يألها من مواقف عظيمة! تُسكب فيها العبرات، ويُتاب فيها من السيئات، ويكثر فيها من الصالحات؛ لتقال العثرات، وتُغفر الخطيئات، وتُستر الزلات بعفو الله ولطفه.

إنها أرضٌ مباركة ضُمَّتْ أروع حوادث التاريخ، وأعظم ملاحم الإنسانية، أرضٌ تروي أوديتها وجبالها ووهاها ورمالها تاريخًا عريقًا، زاخرًا بالبطولات، وألوان الجهاد والانتصارات.

أرضٌ تغيرت بسيرتها ومسيرتها معالم التاريخ، وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق وأسمى المراتب.

كم وقف بساحتها من الجموع؟! وكم سالت على ثراها من الدموع؟! وكم ذابت في عرصاتها فوارق الأجناس واللغات؟! وزالت عندها حواجز العنصريات والعصبيات؟!
كم تألفت فوقها قلوب! وفُرِّجت على ثراها كرب! وحُطت فيها من أوزار وغُفرت ذنوب!؟

كم امتزجت فيها دموع المذنبين! وتعانقت أصوات المستغفرين!
وتوحدت رغبات الراغبين!؟

أيها المسلمون: يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. إن الحج عبادة عظيمة تتداخل فيها أنواع من العبادات لا يتيسر تداخلها في غيره: عبادة في المال، وعبادة في البدن، أعمال بالقلوب والألسنة والجوارح، جمعت أنواعًا من التعبد عملاً وقولاً ونيةً.



وهذه طائفة من الآداب والتوجيهات بسط أهل العلم رَحْمَهُ اللهُ القول فيها، وحشوا مريد الحج على مراعاتها، والحفاظ عليها؛ تَلْمُسًا للحج المبرور وسعيًا للعمل المقبول والسعي المشكور، الذي يرجع منه الحاج كيوم ولدته أمه من الذنوب.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ويقول ﷺ في الحديث الصحيح: «من حج فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢). «وسئل النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»^(٣).

وأول تلك الآداب التي ينبغي أن يتمثلها في كل عبادة لله - ومنها الحج - إخلاص العمل لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، وعبادة الله وفق ما شرع الله، فلا رياء ولا سمعة، ولا جهل ولا إخلال بالسنة، أولئك هم الذين يرجون لقاء ربهم، وأولئك هم المخلصون الذين يتقبل الله أعمالهم، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وهم المتقون الذين يرجون قبول أعمالهم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ويدخل في هذا أن لا يتفاخر الحاج أو يكثر من ذكر كونه قد وفق لحج هذا العام، فقد كان الصالحون يُخفون ذلك لئلا يذهب عليهم ثواب حجهم.

وحري بمن عزم على السفر على الحج أن يتحرى الحلال في نفقته، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، ثم يوصي أهله بتقوى الله، ويكتب وصيته، وماله وما عليه، ويبادر التوبة النصوح ورد المظالم وقضاء الديون، لأنه لا يدري ما يعرض له، كما أن عليه اختيار الرفقة الصالحة، ومعرفة أحكام السفر والحج.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.



فإذا وصل الميقات سنَّ له أن يتحرى الاقتداء بالنبي ﷺ من أول شروعه بالإحرام وأداء المناسك؛ كما قال ﷺ لأصحابه في حجة الوداع: «خذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»^(١).

فيغسل ويتنظف، ويأخذ من شعره وأظافره ما يحتاج إلى أخذ، ليس هذا من خصائص الإحرام، ولكنه مطلوب عند الحاجة، وهو سنة، ولذا قال بعض أهل العلم: أما من كانت له أضحية وعزم على الحج فإنه لا يأخذ من شعره وأظافره إذا أراد الإحرام، لأن هذا سنة، فيرجح جانب الترك المنهي عنه على جانب الأخذ المسنون، وهذا بخلاف التقصير أو الحلق للعمرة أو للحج، فإنه نسك لا بد منه، فإذا اغتسل، وتنظف، وتطيب في جسده - دون إحرامه - ولبس ثياب الإحرام؛ استحب له أن يحرم عقيب صلاة مفروضة إن كانت، وإلا فليس للإحرام صلاة تحضه كما رجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

واستحب له كذلك قبل الدخول في الإحرام أن يحمده الله، ويسبحه، ويكبره، لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «ثم ركب رسول الله ﷺ حتى استوت به راحلته على البيداء، حمد الله، وسبَّح، وكبَّر، ثم أهلَّ بحج وعمرة»^(٢). وهذا من السنن التي قلَّ من يتفطن لها، ولذا قال الحافظ ابن حجر: (وهذا الحكم، وهو استحباب التسبيح، وما ذُكر معه قبل الإهلال قلَّ من تعرَّض لذكره مع ثبوته). ثم ينوي بقلبه الدخول في النَّسْكِ الذي يريد، فإن كان قارئاً قال: لبيك عمرة وحجاً، وإن كان متمتعاً قال: لبيك عمرة متمتعاً بها إلى الحج، وإن كان مفرداً قال: لبيك حجة.

ومعنى التمتع: أن يحرم بالعمرة ثم يفرغ منها ويتحلل، ثم يحرم بالحج في عامه، وعليه هدي كما أن عليه طوافاً وسعيًا للعمرة، وطوافاً وسعيًا آخر للحج، ولكثرة أعماله أمر النبي ﷺ به أصحابه، واعتبره عدد من العلماء أفضل أنواع النسك.

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٥٥١).



أما القرآن: فمعناه أن يحرم بالحج والعمرة جميعًا، وعليه هدي كالمتمتع، وليس عليه إلا سعي واحد بين الصفا والمروة، فإن سعى مع طواف القدوم كفاه عن سعي الحج مع طواف الحج أيام التشريق، لأن هذا الطواف ركن في الحج لجميع الحجاج، ولا يبدأ إلا في يوم العيد. وأما الأفراد: فهو أن يحرم بالحج وحده، وليس عليه هدي، أما في الطواف والسعي فهو مثل القارن ليس عليه إلا سعي واحد، وأما الطواف فيلزمه طواف الحج في أيام التشريق، ولو طاف للقدوم.

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض الحجاج إعلانهم النية، كأن يقول: اللهم إني نويت الإحرام بالحج متمتعًا، أو قارنًا، أو مُفردًا، فهذا لا ينبغي؛ لأن النية محلها القلب، والتلفظ بها بدعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (تنازع العلماء هل يستحب أن يتكلم بذلك، كما تنازعوا هل يستحب التلفظ بالنية في الصلاة؟ والصواب المقطوع به: أنه لا يستحب شيء من ذلك، فإن النبي ﷺ لم يشرع للمسلمين شيئًا من ذلك، ولا كان يتكلم قبل التكبير بشيء من ألفاظ النية، لا هو ولا أصحابه).

وهذا التلفظ بالنية المنهي عنه غير رفع الصوت بالتلبية في النسك الذي يريد - كما تقدم - فهذا مطلوب، فيكتفي الحاج المتمتع بالقول (لبيك عمرة متمتعًا بها إلى الحج)، والقارن يقول: (لبيك عمرة وحجًا)، ويقول المفرد: (لبيك حجًا).

ويسن رفع الصوت بالتلبية للرجال، وتخفيفها للنساء، وهي من شعائر الحج، يقول النبي ﷺ «ما من مُلَبَّبٍ يلبي إلا لبي ما عن يمينه وعن شماله من شجر وحجر، حتى تنقطع الأرض من هنا وهناك»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «أمرني جبريل برفع الصوت في الإهلال فإنه من شعائر الحج»^(٢).

فإذا وصل الحاج إلى البيت قَدَّمَ رجله اليمنى، وقال ما ورد عند دخول المسجد، ثم قصد الحجر إن تيسر له ذلك دون مزاحمة، وإيذاء الآخرين، وقبله وإلا استلمه بيده اليمنى، فإن لم يتيسر له يبدأ الطواف قائلاً: (بسم الله، والله أكبر) اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ووفاء

(١) صحيح الترغيب (١١٣٤).

(٢) السلسلة الصحيحة (٤٨٣/٢).



بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ، ويكثر من الدعاء والذكر وتلاوة القرآن بقلب خاشع متأمل، وليس للطواف أدعية مخصوصة بكل شوط.

ومن أخطاء بعض الحجاج: أنهم يصطحبون معهم حال الطواف أدعية مكتوبة قد لا يفقهون معناها، بل ولا يحسنون نطقها، ولو أنهم دعوا الله بما يعرفونه ويحفظونه ويفقهونه من الأدعية لكان أولى لهم وأحرى باستجابة دعائهم، لأن المهم حضور القلب وصدق الدعوة، لا لفظها وصياغتها.

فإذا وصل الحاج إلى الركن اليماني استلمه من غير تقبيل إن تيسر، ويقرأ بين الركنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَكَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَكَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وكلما مر بالحجر الأسود كبر مرة واحدة، وأشار إليه بيده اليمنى إن لم يتيسر تقبيله ولا استلامه، فلا يتكلف في المزاحمة لتقبيله، بل عند الزحام والمشقة يكون الأولى ترك ذلك تيسيراً على نفسه وإخوانه.

ومما يخطئ فيه بعض الحجاج أنهم يتمسحون بجوانب من البيت أو المقام، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (ولا يستلم من الأركان إلا الركنين اليمانيين دون الشاميين فإن النبي ﷺ استلمهما لأنها على قواعد إبراهيم، والآخران هما في داخل البيت.. وأما سائر جوانب البيت ومقام إبراهيم، وسائر ما في الأرض من المساجد وحيطانها، ومقابر الأنبياء والصالحين كحجرة نبينا ﷺ، ومغارة إبراهيم... وصخرة بيت المقدس فلا تُستلم ولا تُقبَّل باتفاق الأئمة).

ويستحب في طواف القدوم الاضطباع والرَّمْل، والاضطباع: أن يجعل وسط رداءه تحت إبطه الأيمن، وطرفه على عاتقه الأيسر، فيكون المنكب الأيمن مكشوفاً إظهاراً للجلادة في مقام العبادة، ويظن البعض أن الاضطباع يبقى منذ أن يُجرم إلى أن يخلع ثياب الإحرام، وهذا خطأ، فإنما محل الاضطباع الطواف فقط، قال ابن عابدين: (والمسنون الاضطباع قبيل الطواف إلى انتهائه لا غير).

أما الرَّمْل: فهو إسراع المشي مع تقارب الخطى من غير وثب، ويكون في الأشواط الثلاثة الأولى فقط إن تيسر، فإذا فرغ من الطواف سوى رداءه وصلّى ركعتي الطواف خلف المقام أو



في أي مكان من البيت إن كان هناك زحام، فيقرأ في الركعة الأولى (الكافرون) وفي الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

يرقى على الصفا إن تيسر له، أو يقف عنده ويقرأ قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ويقول: أبدأ بما بدأ الله به، ويستحب أن يستقبل القبلة، ويحمد الله، ويكبره، ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده؛ يكرر هذا ثلاث مرات، ويدعو بين ذلك رافعاً يديه، كما ثبت ذلك من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). وهذا الذكر والدعاء قل من يتمسك به مع ثبوته. ثم يسعى إلى المروة، ويفعل على المروة كذلك، ماعدا قراءة الآية فإنه لا يكررها، وإنما يقرأها في مبدأ الشوط الأول، ويسرع بين العلمين الأخضرين، ويدعو ويذكر الله بما شاء، أو يتلو القرآن، ومن الأدعية الثابتة في السعي عن ابن عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رب اغفر وارحم إنك أنت الأعز الأكرم».

وعلى الحاج أن يتذكر بشكل عام عظمة هذه المشاعر ولا يغفل عن الحكمة من هذه المناسك، ومنها:

* أن يستشعر حاجته إلى الله وفقره إليه كحاجة وفقير أم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك الكرب العظيم.

* تذكر أن من كان يطيع الله كإبراهيم فإنه لا يضيعه ولا يخيب دعاءه، وهذه حكمة بالغة.

يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْزِدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَأَتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

(١) صحيح مسلم رقم (١٢١٨).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين أحمده تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإيمان: فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، أحرم من لم يكن محرماً بالحج، فإذا كان فجر التاسع تحرك الحجاج إلى عرفات و «الحج عرفة» كما قال ﷺ^(١)، والوقوف بها يبدأ من زوال الشمس إلى الغروب.

وينبغي استشعار عظمة هذا اليوم واستثاره بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن مع حضور القلب وخضوعه، فما رئي الشيطان أحقر ولا أذل منه في يوم عرفة، إلا ما جاء عنه في يوم بدر.

قال عليه الصلاة والسلام: «خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٢).

ويخطئ بعض الحجاج في عدم استثمار هذا اليوم وإضاعته بكثرة الأحاديث التي لا قيمة لها، ويخطئ آخرون بإضاعة وقتهم في صعود جبل الرحمة، فهو لا أصل له ولا فضيلة فيه على بقية عرفة، قال الشنقيطي: (وما قاله الطبري والماوردي في استحباب ذلك لا يعول عليه).

فإذا تحقق الغروب سار الحجاج إلى مزدلفة ملبين بسكينة ووقار، فإذا وصلوا مزدلفة صلوا بها المغرب والعشاء جمعا وقصرا، ثم يبيتون بها، حتى إذا أصبحوا صلوا الفجر في أول وقتها، ثم يستقبلون القبلة يذكرون الله تعالى ويدعونه حتى يسفر الصبح جدا، ثم يدفعون إلى منى قبل طلوع الشمس ملبين وعليهم السكينة، والمبيت بمزدلفة واجب لا ينبغي التساهل فيه، وقد أذن النبي ﷺ للضعفاء أو أصحاب الأعذار بالدفع منها بعد مغيب القمر. فإذا

(١) صحيح النسائي (٣٠١٦).

(٢) صحيح الترمذي (٣٥٨٥).



وصل الحجاج إلى منى رموا جمره العقبة - وهي أقرب الجمرات إلى مكة - بسبع حصيات، ولا يرمون غيرها في هذا اليوم.

أما اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر لمن تأخر فيرمي الجمرات الثلاث مبتدئاً بالصغرى، ثم الوسطى، ثم جمره العقبة، وهنا عدة أمور يحسن التنبيه عليها في الرمي:

- أن الرمي كغيره من أعمال الحج لإقامة ذكر الله - كما ورد في الحديث - وهنا حكمة خاصة، ألا وهي تذكر موقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام حين أتى المناسك فاعترض له الشيطان في جمره العقبة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الارض، ثم عرض له عند الجمره الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الارض، ثم عرض له في الجمره الثالثه، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الشيطان ترجمون، وملة أبيكم تتبعون». ومن السنة بعد رمي الجمره الأولى والثانية التوقف بعدهما للدعاء، فتلك من السنن المهملة عند بعض الحجاج، أما جمره العقبة فلا دعاء عندها لا يوم للنحر ولا في أيام التشريق.

ويجوز تأخير الرمي في اليوم الحادي عشر إلى اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر، لأن أيام التشريق كلها وقت للرمي، فيرمي عن الحادي عشر ثم يرجع ويبدأ الرمي عن اليوم الثاني عشر، وهذا أولى من التوكيل.

كما يجوز الرمي ليلاً، قال النووي: (الرمي في الليل فيه وجهان، أصحهما الجواز).

وبعد رمي جمره العقبة ينحر المتمتع والقارن هديه في الحرم، وكل أيام التشريق وقت للهدى.

ويتنبه للسنن المشروعة في الهدى، ويأكل ويهدي ويتصدق منها ثم يخلق رأسه أو يقصر، والخلق أفضل، فإذا أتم الحجاج رمي الجمار في اليوم الثاني عشر لمن تعجل، وفي الثالث عشر لمن تأخر، وعلى من أراد التعجل أن يخرج قبل غروب الشمس. ثم يغدوا إلى البيت ليطوفوا طواف الوداع لمن طاف للحج وسعى، ومن آخر طواف الإفاضة - وهو طواف الحج - فطافه عند الخروج أجزأ عن الوداع، لكن ينويه أيضاً للحج لأنه ركن، وطواف الوداع يدخل ضمنه.



وعلى الحاج أن يسأل الله ويبتهل إليه دائماً بالدعاء وطلب القبول، ومغفرة الذنوب، فتلك مواطن تستجاب فيها الدعوات، وتسكب فيها العبرات، ويكفر الله بها السيئات.

وعلى الحاج كذلك أن يتعرف على إخوانه المسلمين، ويعاون المحتاج منهم، ويطعم الجائع، ويسقي الظمآن، وينصح ويعلم الجاهل، فالحج فرصة لتعارف المسلمين، وتآلفهم، وتعاونهم على البر والتقوى.

أيها المسلمون: من قدر على الحج فينبغي أن يسارع إليه ولا يحرم نفسه المبادرة إليه، فإن خير البر عاجله، ولا يدري الإنسان ما يعرض له من الشواغل والقواطع والموانع.

ثم اعلموا رحمكم الله أنه ستظللكم عما قريب أيام فاضلة عند الله، ألا وهي عشر ذي الحجة، أقسم الله بها في كتابه فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢]. وأخبر ﷺ عن فضلها بقوله: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله منه في هذه الأيام العشر، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله، ولم يرجع من ذلك بشيء»^(١). فاغتنموا هذه الأيام بأنواع الطاعات، ولا تكن الأيام عندكم سواء، واسألوا الله التوبة والمغفرة والقبول، وأخوا على الله بإصلاح أحوال المسلمين، ونصرة هذا الدين، فإن الله سميع مجيب.

واعلموا - رحمكم الله - أنه يجب على من أراد أن يضحى أن يمسك عن الأخذ من شعره وظفره وبشرته، كما أخبر النبي ﷺ.

اللهم هيء للمسلمين من أمرهم رشداً، وتقبل منهم عباداتهم إنك سميع الدعاء.



(١) صحيح الترمذي (٧٥٧).

العمرة فضائل وأحكام^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، خلق خلقه أطوارًا، وصرفهم كيف شاء سبحانه عزّةً واقتدارًا، أنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله إعدارًا وإنذارًا، أحمد ربي وأستغفره إنه كان غفارًا، وأثني عليه بما هو أهله وأشكره، أسبغ علينا نعمه مدرارًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من يرجو الله وقارًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، نصب به الدليل، وأنار به السبيل، فتبدلت الظلمات أنوارًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا على الهدى أعلامًا، وعلى الحق منارًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ مُهَاجِرِينَ وَأَنْصَارًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما أعقب ليل نهارًا.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فعليكم بتقوى الله فالزموها، وبادروا بالأعمال الصالحة والتزموها، الزمان يطوي مديد الأعمار، وكل مَنْ عليها راحل عن هذه الدار، التسوية لا يورث إلا حسرة وندمًا، وطول العمر لا يُعقب إلا هرمًا وسقمًا، فواعجبًا لنفوس طال على الدنيا إقبالها، وغلب عن الآخرة إعراضها وإدبارها! ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْءَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

عباد الله: يقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وهذا أمر من الله تعالى في هذه الآية الكريمة بإتمام العمرة له سبحانه، فالعمرة شعيرة من شعائر ديننا الحنيف.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



والعمرة في لغة العرب: الزيارة، وهي في اصطلاح فقهاءنا: زيارة البيت الحرام لأداء مناسك مخصوصة.

وقد أجمع العلماء على مشروعية العمرة، ولكنهم اختلفوا في حكمها، فقال بعضهم بوجوبها، والصحيح قول من قال باستحبابها. وأما قول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فلا يدل على وجوبها، بل غاية ما في الآية الكريمة الأمر بإتمامها لمن شرع فيها.

عباد الله: العمرة طاعة عظيمة، وهي والله غنيمة، فقد جاء في السنة النبوية المطهرة ما يدل على عظيم فضلها وجزيل ثوابها، فمن فضائلها أنها تمحو الآثام وتكفر الذنوب، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(١) أخرجه الشيخان. وندب النبي إلى الإكثار منها؛ لأنها تنفي الذنوب والفقر عن صاحبها، فقال: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكيرُ خَبثَ الحديد والذهب»^(٢).

أيها المؤمنون: ليس للعمرة وقت معين، بل تقع في أي وقت من السنة ما عدا أيام الحج، وأفضل أوقاتها في رمضان؛ لقوله ﷺ: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي»^(٣). فإن لم يتمكن المسلم من ذلك فليحاول القيام بها في ذي القعدة؛ لأن النبي اعتمر أربع مرات جميعها في ذي القعدة.

ومن الأخطاء أن البعض يعتقد أن للعمرة في رجب ميزة معينة، وهذا لم يثبت فيه دليل. وأما الوقت الذي ينبغي أن يكون بين العمرة والعمرة فقد قال الإمام أحمد لما سئل: كم بين العمرتين؟ قال: (يتنظر حتى يُحَمَّمَ رأسه، أي: يسودّ نبات الشعر عليه) وذلك بعد الحلقت.

(١) رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

(٢) صحيح النسائي (٢٦٣٠).

(٣) رواه البخاري (١٧٦٤) ومسلم (٣٠٩٨).



عباد الله: ومن عزم على أداء هذه العبادة العظيمة فلينتبه لعدة أمور:

فمن ذلك: أن يخلص في عبادته؛ ولا يريد بعمله الدنيا أو الرياء والسمعة، لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومنها: أن يقف على أحكامها ويتعلم هدي النبي ﷺ فيها؛ لأن الله لا يقبل العمل إذا خالف هدي النبي ﷺ، ولذا قال النبي لأصحابه يوم حجة الوداع: «لتأخذوا عني مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»^(١).

ومنها التوبة ورد المظالم، قال ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرِح في النار»^(٢).

ومنها: أن يتزود لعمرته لثلا يريق ماء وجهه بسؤال الناس، كما في الحديث: «من تكفل لي أن لا يسأل شيئاً وتكفل له بالجنة؟» فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً^(٣).

ومنها أن يتحرى المال الحلال في نفقته؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

عباد الله: وصفة العمرة أن يُحرم المعتمر من الميقات، فيتجرد من لباسه، ويلبس الإزار والرداء، وله أن يتطيب في بدنه قبل أن ينوي الإحرام، وينبغي أن يختار البياض من الثياب، ولا يحل له أن يلبس الخُفَّ إلا إذا لم يجد غيره، وليس للمرأة ثياب معينة لإحرامها، بل حجابها الشرعي هو إحرامها، لكنها لا تتنقب ولا تلبس القفازين؛ لقوله ﷺ:

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٣) صحيح الترغيب (٨١٣).



«لا تَتَّقِبَ المحرمة، ولا تلبس القفازين»^(١). ولكن إذا مرَّ الرجال بها سترت وجهها دون أن تتقب.

ثم يشرع المعتمر في التلبية بعد أن يقول: لبيك اللهم عمرة، فيلبي قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. يكررها ويجهر بها في الطرقات، وهذا هو هدي النبي ﷺ، حتى إذا بلغ البيت وبدأ في الطواف قطع التلبية.

ويبدأ الطواف بمجرد دخوله إلى المسجد الحرام، والبداية تكون عند الحجر الأسود، فإن استطاع أن يستلمه استلمه وقبله وكبر، ثم بدأ طوافه، وإلا استلمه بعضاً ونحوها وقبل ما استلم به، وإن لم يتيسر له شيء من ذلك أشار إليه إشارة - دون أن يقبل يديه - قائلاً: بسم الله، الله أكبر، ثم يبدأ الطواف ويجب أن يكون على طهارة.

فإذا جاء إلى الركن اليماني وهو الركن السابق للحجر الأسود استلمه بلا تقبيل، ويقول حين يطوف بينه وبين الحجر الأسود: ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١] ويكون طوافه بالبيت على طهارة.

وفي الطواف سُتَّان: الرَّمْل، وهو الإسراع في المشي في الأشواط الثلاثة الأولى مع تقارب الخطى. والاضْطِّبَاع: وهو أن يجعل طرفي رداءه على كتفه الأيسر، ويؤدي الكتف الأيمن، ويكون هكذا في الطواف كله، فإذا فرغ من طوافه أعاد ثيابه فوق كتفه، ولا يصلي ركعتي الطواف مُضْطَبِعًا.

والمرأة إذا أحرمت ثم حاضت بقيت على إحرامها حتى تطهر، ثم تطوف بالبيت، ولا تطوف بحيضتها.

وإذا شك الطائف في عدد الأشواط بنى على الأقل، وإذا أقيمت الصلاة صلى وأكمل طوافه ولم يستأنف من جديد، ولا يطوف داخل الحجر الذي يسمى بحجر إسماعيل، وإسماعيل عليه السلام لا علاقة له به؛ فالحجر جزء من الكعبة.

(١) رواه البخاري (١٨٣٨).



فإذا فرغ من الطواف قصد المقام وقرأ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ رَبِّهِمْ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وصلى خلفه ركعتين إن تيسر له ذلك، وإلا ففي أي مكان من المسجد، يقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وسورة الكافرون، وفي الثانية بالفاتحة والإخلاص، وليشرب من ماء زمزم ويستلم الحجر الأسود إن تيسر له ذلك.

ثم يذهب إلى جبل الصفا، ويقرأ قبيل الوصول إليه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ويقول: أبدأ بما بدأ الله به. ثم يرقى الصفا حتى يعاين الكعبة، فيستقبلها ويرفع يديه قائلاً: الله أكبر ثلاثاً لا إله إلا وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم يدعو بخيري الدنيا والآخرة، ثم يقول الذكر، ثم يدعو، ثم يكرر الذكر، ثم ينصرف ساعياً إلى المروة، فإذا وصل بين العلمين الأخضرين أسرع من غير أن يؤذي أحداً، فإن لم يتمكن من ذلك إلا بأذية بعض المسلمين فلا يركض؛ لأن ترك الأذية واجب، والركض مستحب، والواجب مقدم على المستحب.

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله العظيم لي ولكم وللمؤمنين، فيا فوز المستغفرين.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: يسعى المعتمر سبعة أشواط، الذهاب من الصفا إلى المروة شوط، والإياب منها إلى الصفا شوط، فيبدأ بالصفا ويتتهي بالمروة، فإذا فرغ من السعي خرج من المروة فحلق أو قصر، والحلق أفضل؛ لأن النبي ﷺ دعا للمحلقين ثلاث مرات، وللمقصرين مرة واحدة. والواجب أن يعمّ المعتمر كل شعر رأسه سواء بالحلق أو التقصير، أما تقصير بعض الشعر من بعض أجزاء الرأس فهذا ليس من هدي النبي في شيء. وأما المرأة فليس عليها حلق، وإنما تأخذ من شعرها قدر أنملة من كل صغيرة فيه.

عباد الله: ومما ينبغي التنبه له أن المرأة يسقط عنها الحج والعمرة إذا لم تجد المحرم، تيسيراً عليها وحفظاً لها، فلا يجوز لها الحج أو العمرة بلا زوج أو محرم، فعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم»، فقال رجل: يا رسول الله، إني اكتتبت في غزوة كذا وكذا وامرأتي حاجة، فقال: «ارجع فحجّ مع امرأتك»^(١).

ومما ينبغي للمعتمر والزائر لبيت الله: التحلي بالأخلاق النبيلة والآداب الفاضلة، في الظن والإقامة، والحل والترحال، فإن أثقل شيء في ميزان المؤمن حسن الخلق، وإن المؤمن ليلعب بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولقد كان السلف أحسن الناس أخلاقاً وأكثرهم خدمة لرفقتهم، بل كان بعضهم يشترط على رفقته أن يكون أميرهم في السفر لا لشيء إلا ليخدمهم، فإذا سافروا قام يخدمهم، فمن جاء ليعاونه أمره بالعودة وألزمه بالأفعال شيئاً! وقيل لابن عباس: لقد سافرنا فكان معنا فلان، وكان من أكثرنا صلاة. فقال ابن عباس: «من كان يخدمكم؟ قالوا: فلان. قال: ذلك أكثركم أجراً».

(١) رواه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١).



ومن ذلك الرفق ولين الجانب مع من يسافر ويقيم برفقتهم، مع غض البصر، وحفظ السر، والأمانة، والصدق، والعفو والصفح والتغاضي، وإعانة الغير على الخير، وإرشاد الجاهل، وبذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى، فإن السفر سمي سفراً؛ لكونه يُسفر عن أخلاق صاحبه، لما فيه من مشقة تُخرج حقيقة الأخلاق والآداب والطباع.

واعلموا وفقكم الله أن زيارة المسجد النبوي سنة نُدبنا إليها، ولكن لا علاقة لذلك بمناسك الحج أو العمرة، فمن اعتمر أو حج ولم يزر المسجد النبوي فلا إثم عليه ولا حرج، وإن تمكن من الزيارة فهو أفضل، ولكنه ينوي بها زيارة المسجد النبوي لا القبر؛ لقول النبي ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(١).

ومن الأخطاء أن الناس يُحمّلون المعتمر السلام للنبي ﷺ، ويقولون: قل له: فلان يسلم عليك! وهؤلاء ينبغي أن يُوجّهوا بحديث النبي: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام»^(٢). فمن يُسر الشريعة ومن رحمة الله وفضله أن كل من يصلي ويسلم على النبي ﷺ من أمتة؛ فإن صلاتهم وسلامهم تبلغه منهم حيثما كانوا.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.



(١) رواه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧).

(٢) صحيح الترغيب (١٦٦٤).

إِنَّ اللَّهَ جَلِيلٌ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، أحمده تعالى وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وصبر على ما أصابه في سبيل ذلك، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ، وترسم خطاه إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى واذكروا نعمة الله عليكم، واشكروه عليها؛ فبالشكر تدوم النعم.

أما بعد: يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحدة من أحصاها - وفي رواية البخاري: لا يحفظها أحد إلا - دخل الجنة وهو وتر يجب الوتر» (٢).

قال ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويشنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يجب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يجب كل عليم، جواد يجب كل جواد، وتر يجب الوتر، جميل يجب الجمال، عفو يجب

(١) ناصر الأحمد.

(٢) رواه البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧).



العفو، وأهله حييَّ يحب الحياء وأهله، برُّ يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حلیم يحب أهل الحلم). انتهى..

فهل لك أخي المسلم أن تتأمل معي بعض ما يسرد عليك بعد قليل وأن تتفكر فيه لتدرك شيئاً من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.

إذا حل الهم، وخيم الغم، واشتد الكرب، وعظم الخطب، وضائق السبل وبارت الحيل. نادى المنادي: يا الله يا الله «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»^(١) فيفرج الهم، وينفّس الكرب، ويذلل الصعب ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. إنه الله جَلَّالَهُ.

إذا أجدبت الأرض، ومات الزرع، وجف الضرع، وذبلت الأزهار، وذوت الأشجار، وغار الماء، وقل الغذاء، واشتد البلاء. خرج المستغيثون بالشيوخ الرقع، والأطفال الرضع، والبهائم الرتع، فنادوا: يا الله يا الله، فينزل المطر، وينهمر الغيث، ويذهب الظمأ، وترتوي الأرض ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. إنه الله جَلَّالَهُ.

إذا اشتد المرض بالمريض، وضعف جسمه، وشحب لونه، وقلت حيلته، وضعفت وسيلته، وعمجز الطبيب، وحرار مداوي، وجزعت النفس، ورجفت اليد، ووجف القلب، وانطرح المريض، واتجه العليل، إلى العليّ الجليل. ونادى: يا الله يا الله، فزال الداء، ودب الشفاء، وسُمع الدعاء ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٨٣) ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]. إنه الله جَلَّالَهُ.

إذا انطلقت السفينة بعيداً في البحر اللجّي، وهبت الزوابع، وتسابقت الرياح، وتلبّد الفضاء بالسحب، واكفر وجه السماء، وأبرق البرق، وأرعد الرعد، وكانت ظلمات بعضها

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦) ومسلم (٢٧٣٠).

فوق بعض، ولعبت الأمواج بالسفينة، وبلغت القلوب الحناجر، وأشرفت على الغرق، وتربص الموت بالركاب. اتجهت الأفئدة، وجارت الأصوات، يا الله يا الله، فجاء عطفه، وأشرق ضياؤه في الظلام الحالك، فأزال المهالك ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكُمْ وَجَرَبَ بِكُمْ رِيحٌ طَبِيبَةٌ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فَلَمَّا أَجَبْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ أُولِنَا مَرَجِعَكُمْ فَتَنِيْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]. إِنَّهُ اللَّهُ جَلَّالَهُ.

إذا حلقت الطائرة في الأفق البعيد، وكانت معلقة بين السماء والأرض، فأشرف مؤشر الخلل، وظهرت دلائل العطل، فذعر القائد، وارتبك الركاب، وضجت الأصوات، فبكى الرجال، وصاح النساء، وفجع الأطفال، وعم الرعب، وخيم الهلع، وعظم الفزع، أحوافى النداء، وعظم الدعاء، يا الله يا الله، فأتى لطفه، وتنزلت رحمته، وعظمت منته، فهذأت القلوب، وسكنت النفوس، وهبطت الطائرة بسلام. إِنَّهُ اللَّهُ جَلَّالَهُ.

إذا اعترض الجنين في بطن أمه، وعسرت ولادته، وصعبت وفادته، وأوشكت الأم على الهلاك، وأيقنت بالممات. لجأت إلى منقّس الكربات، وقاضي الحاجات، ونادت: يا الله يا الله، فزال أنينها، وخرج جنينها. بارك الله لها في الموهوب، ورزقت بره، وجعله الله من عباده الصالحين.

إذا حلّت بالعالم معضلة، وأشكلت عليه مسألة، فتاه عن الصواب، وعزّ عليه الجواب، مرّغ أنفه بالتراب، ونادى: يا الله يا الله، يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني، «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

فيأتي التوفيق، وتُحلّ المغاليق، فيتكشف السحاب، ويُلهم الجواب.

(١) رواه مسلم (٧٧٠).



أيها المسلمون: إنه الله جَلَّالَهُ، إنه الملاذ في الشدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلة، يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء، ويدعوه آملاً في الشفاء، ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فائت، وال عوض من كل مفقود، ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على ظلمه فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب ﴿إِنِّي مَعْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحًا﴾ ٤ ﴿وإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ٥ ﴿يَرْتَضِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ٦ ﴿يَزَكِّرُنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ يُغَلِّمُ اسْمُهُ بِحَيٍّ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٤-٧]. وكل واحد من هؤلاء يُؤمِّل في أن يجاب إلى ما طلب، ويحقق له ما ارتجى، فما ذلك على قدرة الله ببعيد، وما ذلك على الله بعزيز.

أي سكينته يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة، ويوم الشدة، فيدعوه بما دعا به محمد -صلى الله عليه- وسلم من قبل: «اللهم! رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم. ربنا ورب كل شيء. فالق الحب والنوى. ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان. أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذٌ بناصيته. اللهم! أنت الأول فليس قبلك شيء. وأنت الآخر فليس بعدك شيء. وأنت الظاهر فليس فوقك شيء. وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»^(١).

إنه الله جَلَّالَهُ، سلوة الطائعين، وملاذ الهاربين، وملجأ الخائفين، قال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد رَحِمَهُ اللهُ أصغرهم سنًا، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق ساعة، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، ومتصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبته، فإن تكلم فبالله، وإن نطق

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

فَعَنَ اللَّهُ، وَإِنْ عَمِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَإِنْ سَكَنَ فَمَعَ اللَّهُ، فَهُوَ اللَّهُ وَبِاللَّهِ وَمَعَ اللَّهِ، فَبَكَى الشُّيُوخَ وَقَالُوا: مَا عَلَى هَذَا مَزِيدٌ. جَبْرَكَ اللَّهُ يَا تَاجَ الْعَارِفِينَ).

إِلَيْهِ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرِّكَائِبُ وَمِنْهُ وَإِلَّا فَالْمُؤْمِلُ خَائِبٌ
وَفِيهِ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضَيِّعٌ وَعِنْدَهُ وَإِلَّا فَالْمُحَدَّثُ كَاذِبٌ

من علق نفسه بمعروف غير معروف الله فرجاؤه خائب، ومن حدث نفسه بكفاية غير كفاية الله فحديثه كاذب، لا يغيب عن علمه غائب، ولا يعزب عن نظره عازب ﴿وَمَا يَعَزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

أيها المسلمون: إِنَّهُ اللَّهُ جَلَّالَهُ، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين، يحي ميتًا ويميت حيًا، ويحيب داعيًا، ويشفي سقيمًا، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، يجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلم جاهلًا، ويهدي ضالًا، ويرشد حيرانًا، ويغيث لهفانًا، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتليًا، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويؤمّن روعةً.

إِنَّهُ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وَأَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى، السَّمَاءَ بِنَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، وَالْأَرْضَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، يَسِطُ الرِّزْقَ، وَيَعْدُقُ الْعَطَاءَ، وَيُرْسِلُ النِّعَمَ.

إِنَّهُ اللَّهُ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، الْوَاسِعُ الْعَلِيمُ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَلِمَاتٍ، وَسَمِعَ نِدَاءَ يُونُسَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَاسْتَجَابَ لَزَكَرِيَّا فَوَهَبَهُ عَلَى الْكِبَرِ يَحْيَى هَادِيًا مَهْدِيًا، وَحَنَانًا مِنْ لَدُنْهِ وَكَانَ تَقِيًّا، أزال الكُرب عن أيوب، وألان الحديد لداود، وسخر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورُفِعَ إِلَيْهِ عِيسَى، وَشَقَّ الْقَمَرَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَجَّى هُودًا وَأَهْلَكَ قَوْمَهُ، وَنَجَّى صَالِحًا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَصْبَحَ قَوْمَهُ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، وَجَعَلَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَفَدَا إِسْمَاعِيلَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَجَعَلَ عِيسَى وَأُمَّهُ آيَةً لِلْعَالَمِينَ، وَنَجَّى لُوطًا وَأَرْسَلَ



على قومه حجارة من سجيل منضود، ونجًا شعبيًا برحمته، وأهلك أهل مدين بعدله ﴿الْأَبْعَدَاءُ لَمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودٌ﴾ [هود: ٩٥].

إنه الله جَلَّالُهُ، أغرق فرعون وقومه، ونجَّاه ببدنه ليكون لمن خلفه آية، وخسف بقارون وبيداره الأرض ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَارِبُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاءُ وَيْكَانُهُ لَا يَفْلِحُ الْكُفْرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]. ونجَّاه يوسف من غياهب الحب، وجعله على خزائن الأرض.

إنه الله جَلَّالُهُ، أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأوجد وأبلى، ورفع وخفض، وأعز وأذل، وأعطى ومنع، ورفع ووضع.

هدى نوحًا وأضل ابنه، واختار إبراهيم وأبعد أباه، وأنقذ لوطًا وأهلك امرأته، ولعن فرعون وهدى زوجته، واصطفى محمد ﷺ ومقت عمه وجعل من أنصار دعوته أبناء ألد خصومه كخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، وسبحانه رضا نفسه، وسبحانه زنة عرشه، وسبحانه مداد كلماته.

إنه الله جَلَّالُهُ، أرغم أنوف الطغاة، وخفض رؤوس الظلمة، ومزق شمل الجبابرة، ودمر سد مأرب بفأرة، وأهلك النمرود ببعوضة، وهزم أبرهة بطير أبيييل، عذب امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وغفر لامرأة بغية؛ لأنها سقت كلبًا كاد يموت من العطش.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: (نظر بعين الاختيار إلى آدم، فحظي بسجود ملائكته، وإلى ابنه، فأقامه في منزلته، وإلى نوح، فنجاه من الغرق بسفينته، وإلى إبراهيم، فكساه حلَّة خلَّته، وإلى إسماعيل، فأعان الخليل في بناء كعبته، واقتداه بذبح عظيم من ضجعته، وإلى لوط، فنجَّاه وأهله من عشيرته، وإلى شعيب، فأعطاه الفصاحة في خطبته، وإلى يوسف، فأراه البرهان في همته، وإلى موسى، فخطر في ثوب مكالمته، وإلى داود فألان الحديد له على حدته، وإلى سليمان، فسخر له الريح يتنقل بها في مملكته، وإلى أيوب، فيا طوبى لركضته، وإلى يونس، فسمع ندائه في ظلمته، وإلى زكريا، فقرن سؤاله ببشارته، وإلى عيسى، فكم أقام ميتًا من حفرته، وإلى محمد ﷺ، فخصه ليلة المعراج بالقرب من حضرته والوصول إلى صدرته. وأعرض عن إبليس،

فَحَزَى ببعده ولعنته، وعن قابيل، فقلب قلبه إلى معصيته، وعن نمرود، فقال أنا أحبي الموتى ببلاهته، وعن فرعون، فادعى الربوبية على جراته، وعن قارون، فخرج على قومه في زينته، وعن أبي جهل، فشقي مع سعادة أمه وابنه وابنته، هكذا جرى تقديره ولا اعتراض على قسمته ﴿وَيَسِيحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]. انتهى..

أيها المسلمون: إنه الله جَلَّالَهُ، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، فالباب مفتوح ولكن من يلج؟ والمجال مفسوح ولكن من يُقبل؟ والحبلى ممدود ولكن من يتشبث به؟ والخير مبذول ولكن من يتعرض له؟ فأين الباحثون عن الأرباح؟ وأين خطّاب الملاح؟ أين عشّاق العرائس؟ وطلاب النفائس؟! من أقبل إليه، تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه، ناداه من قريب، ومن ترك من أجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد رضاه، أراد ما يريد، ومن تصرف بحوله وقوته، ألان له الحديد، أهل ذكره هم أهل مجالسته، وأهل شكره هم أهل زيادته، وأهل طاعته هم أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته إن تابوا إليه فهو حبيهم، وإن لم يتوبوا فهو رحيم بهم، يتليلهم بالمصائب ليظهرهم من المعاييب، الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عنده بواحدة، فإن ندم عليها واستغفر، غفرها له، يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثير من الزلل.

واعصي الهوى فالهوى ما زال فتّانا
لقطّاً وتلحق أحرانا بأولانا
نرى بمصرعه آثار موتانا
خلفي وأخرج من دنيائي عريانا
نسسى بغفلتنا من ليس ينسانا
كانت تحرّ له الأذقان إذعانا
مستبدلين من الأوطان أوطانا

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
أما ترين المنايا كيف تلقطنا
في كل يوم لنا ميت نشيعه
يا نفس مالي وللأموال أتركها
ما بالنّا نتعامى عن مصائرنا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا



خلوا مدائن كان العزم فرشها
واستفرشوا حفراً غُبراً وقيعانا
يا راکضاً في ميادين الهوى مرحاً
ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعبٍ
يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا
نسأل الله تعالى أن يبصرنا بحالنا، وأن يلهمنا رشدنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا إنه ولي ذلك
والقادر عليه، أقول هذا القول...

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها المسلمون: اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن من لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً يتقطع قلبه في الآخرة إذا حُقت الحقائق، وظهرت الوثائق، وحضرت الخلائق، وعانين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين ﴿يَوْمَ يُنظَرُ الْمَرْءُ مَا قَدَمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة
إن كان لا يرجوك إلا محسن
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً
مالي إليك وسيلة إلا الرجا
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
فبمن يلوذ ويستجير المجرم
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
وجميل عفوك ثم إنى مسلم

أيها الأحبة: إن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأُنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حشرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقاءه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً.

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليت الذي بيني وبينك عامر
وليتك ترضى والأنام غضاب
وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود يا غاية المنى
فكل الذي فوق التراب تراب

سبحانه ما أعظمه وأرحمه، سبحانه سبقت رحمته غضبه، سبحانه سبق عفوه عقوبته، لا أحد أصبر على أذى خلقه منه، تجراً عليه اليهود فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وتجراً عليه النصراني فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ ثَلَاثَةٌ﴾ [المائدة: ٧٣] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ



اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿المائدة: ٧٢-٧٣﴾، ومع كل هذه الجرأة دعاهم جل وعلا إلى التوبة فقال بعد ذلك: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿المائدة: ٧٤﴾ فلو تابوا لقبل توبتهم وغسل حوبتهم، هذا وهم كفار مشركون، يهود ونصارى فكيف بالمسلم العاصي.

فسبحانه من خالق عظيم، جواد كريم، الكرم صفة من صفاته، والجود من أعظم سماته، والعتاء من أجل هباته، فمن أعظم منه جودًا؟ الخلائق له عاصون وهو لهم مراقب، يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، يجود بالفضل على العاصي، ويتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاه فلم يستجب له؟ أم من ذا الذي سأله فلم يعطه؟ أم من ذا الذي أناخ ببابه فتحاه؟ فهو ذو الفضل ومنه الفضل، وهو الجواد ومنه الجود، وهو الكريم سبحانه ومنه الكرم.

وأنت إله الخلق ربي وخالقي
بذلك ما عمّرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك إلهاً أنت أعلى وأجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدي وإياك نعبد

اللهم إنا مذنبون فاغفر لنا، ومقصرون فتجاوز عنا، ومخطئون فاعف عنا..



الذخيرة في إصلاح السيرة^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله باري البريات، العالم بالظواهر والخفيات، المطلع على الضمائر والنيات، أحمدته على ما أسداه من الفضائل والكرامات. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فهو المُستحق لجميع العبادات، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الرسالات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المسارعين للخيرات، وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

معاشر المؤمنين والمؤمنات: إن المتأمل في نفسه ومن حوله من الناس - بكافة طبقاتهم - ليرى اهتماماً بالغاً وانصرافاً تاماً - إلا من رحم الله - إلى العناية بالمظاهر المرئية، والأشكال السطحية، وغفلة تكاد تكون عامة عن العناية بالأعمال القلبية، والذخائر الخفية.

فكم يتعب كثير من الناس نفسه، ويرهق بدنه، ويذهب ماله دون أجر أو ثواب، بل لربما لحقه من ذلك الوزر والعقاب والعياذ بالله تعالى، أليس يعمل بعض الناس وينفق طلباً لمصالح دنيوية، وأغراض شخصية.

وآخرون يُظهرون الحب والتصنيع، ويطنون البغض والقطيعة، وغيرهم يتزينون للناس بالطاعة، وإذا خلوا بارزوا الله بالمعصية! فالمظاهر زاهية، والبواطن واهية، وهم في ذلك ما بين مستقل ومستكثر، والله المستعان! مظاهر تخب الأبصار، ولكن ماذا لو انكشف الخمار، وأزحنا الستار، عما تكنه القلوب وتخفيه، ويجلله الظلام ويغويه، مما لا يطلع عليه إلا الله، ولا يعلمه أحد سواه؟!.

(١) محمد بن إبراهيم السير.



يقول تعالى: ﴿ قَلْبَانِ تَخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، ﴿ يَعْلَمُ خَائِبَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

إنها الغفلة التي تجعل العبد يُبدي ما لا يُخفيه، ويُخفي ما لا يبديه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق: ١٤]؟ ﴿ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨].

إن العناية بالسريرة، وهي ما يستتر عن الناس ولا يطلع عليه إلا الله من أعمال القلب أو الجوارح، لهو أمر في غاية الأهمية، ويزداد أهمية كلما رأينا إغفال الناس له، مع قلة التذكير به، قال حذيفة بن قتادة: إن أطعت الله في السرِّ أصلح قلبك، شئت أو أبيت!

إن العناية بإصلاح أعمال القلوب من أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وأجل القربات والطاعات، قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»^(١).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأخبر أن صلاح القلب مستلزم لصلاح سائر الجسد، وفساده مستلزم لفساده، فإذا رأى ظاهر الجسد فاسداً غير صالح علم أن القلب ليس بصالح بل فاسد، ويمتنع فساد الظاهر مع صلاح الباطن، كما يمتنع صلاح الظاهر مع فساد الباطن، إذ كان صلاح الظاهر وفساده ملازماً لصلاح الباطن وفساده).

وقال أبو حاتم: (قطبُ الطاعات للمرء في الدنيا: هو إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر). وسئل أحمد بن الخضر: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: (رعاية السر عن الالتفات إلى شيء غير الله عَزَّوَجَلَّ).

فينبغي للمرء المسلم أن يعتني بهذا الباب العظيم بالقلب، وإصلاحه، وتزكيته، وتهذيبه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (أعمال القلوب أفضل من أعمال الجوارح). اهـ. ينبغي للعبد أن يتعرف على ما يجب الله ويرضاه، وأن يخلص قلبه مما يضاؤه.

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).



وأعمال القلوب تتضمن: إخلاص الدين لله تعالى، والنصح له ولعباده، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد وتوابع ذلك من أنواع الأذى.

وكذلك وجل القلوب من ذكر الله تعالى، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله، وخوف الله تعالى سرًا وعلانيةً.

والرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، واختيار تَلَف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله تعالى من العبد ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما، والحب في الله والبغض في الله، والعطاء له، والمنع له، وأن تكون جميع الحركات والسكنات له.

وساحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستشعار بعمل الحسَنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء.

وحسن الخلق، ومحبة ما يجب لنفسه لإخوانه المؤمنين، ومواساة المؤمنين ومناصرتهم والحزن بما يحزنهم، ومعاداة الكافرين، وبغضهم، وعدم الركون إليهم، وغيرها من أعمال القلوب.

هذه الأعمال -عباد الله- هي محل نظر الرب عزَّ وجلَّ، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١)، ويقول ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِينُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، اقرأوا: ﴿فَلَا نُفِئُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]^(٢).

وما أصاب المسلمين ما أصابهم اليوم من الذل والصغار -وهم الأعلون في الأصل- إلا بسبب فساد بواطنهم، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا

(١) رواه مسلم (٤٦٥١).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥).



رسول الله؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وَلَيُنزِعَنَّ اللهُ المهابة من صدور أعدائكم، وَلَيَقْذِفَنَّ في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الهون يا رسول الله؟ قال: «حُبُّ الدنيا، وكرهية الموت»^(١).

إن الخلوة بالنفس الأمارّة بالسوء أمرٌ خطير، وابتلاءٌ عظيم، فها هو الليل قد أرخى سدوله على العبد، وأخفاه عن أعين الناس، وها هي الأبواب قد أغلقت وأحكم إغلاقها، وقد اجتمعت على العبد دواعي الشهوة، وأسباب المعصية، ووساوس الشيطان، فهل يا ترى يقدم على المعصية ناسياً أو متناسياً نظر الرب جل وعلا، متجاهلاً نظر مَنْ لا تخفى عليه خافية، أم يغلبُ نفسه وهواه؟.

أيقدم على المعصية حال خلوته مع ربه، ويبتعد عنها عند ما يكون بين الناس؟ ولسان حاله يقول:

أنا الَّذِي أَغْلَقَ الأبوابَ مجتهداً على المعاصي وعينُ اللهُ تنظُرني
إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهُ يغفلُ ساعةً ولا أن ما تخفي عليه يغيبُ

إنها مزلةٌ أقدام، ومضلةٌ أقوام، أين الخوف من الله؟ أين اليقين بمراقبته؟ أهو الخوف من الخلق دون الخالق؟: ﴿أَتَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣].

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يا صاحب الذنب، لا تأمن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب إذا فعلته». اهـ. وقال بلال بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لا تكن وليَّ الله في العلانية، وعدوّه في السر).

(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٩٧).

إِنَّ مَنْ يُقَدِّمُ عَلَى الذَّنْبِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ يَكُونُ قَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْعُقُوبَةِ وَالْفُضِيحَةِ الْعَاجِلَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْآجِلَةِ فِي الْآخِرَةِ أَمَامَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ، وَتَتَكشَّفُ الضَّمَائِرُ، أَلَا مَا أَشَدَّ خَسَارَتَهُ! وَمَا أَعْظَمَ نَدَامَتَهُ!

ويكفيه ذلك الوعيد الشديد، الذي يزلزل القلوب خوفاً وقرقاً، عندما قال عليه الصلاة والسلام: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضَاءٍ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هِبَاءً مُنثَوْرًا»، قال ثوبان: يا رسول الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ مِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنْهُمْ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(١).

إنه لَأَمْرٌ خَطِيرٌ، وَفِعْلٌ حَقِيرٌ، أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ نَظَرَ الْمَخْلُوقِ أَعَزَّ عَلَيْهِ مِنْ نَظَرِ الْخَالِقِ؛ يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: (مَا أَسْرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهِ، أَوْ فِي فَلَاتَاتِ لِسَانِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]).

نعم والله! ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، أَلَا تَرَوْنَ مَنْ بَاتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ وَعَكْفٍ عَلَى مَنَكْرٍ كَيْفَ يَصْبِحُ أَسْوَدَ الْوَجْهِ، خَبِيثَ النَّفْسِ، ضَيْقَ الصَّدْرِ، سَرِيعَ الْغَضَبِ، بَذِيءَ اللِّسَانِ، سَاءَتْ بِهِ الظُّنُونُ، يَظْهَرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ أَوْ بَعْضُهُ مَهْمًا اجْتَهَدَ فِي إِخْفَائِهِ، يَرَاهُ كُلُّ مَنْ نَوَّرَ اللَّهُ بِصِيرَتِهِ، وَأَمَّا مَنْ شَارَكَهُ فِي الْحَالِ فَهِيَهِاتُ أَنْ يَرَى ذَلِكَ! لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى بِنُورِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

سَبْحَانَ اللَّهِ! أَتَحَوُّنُ مَنْ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ؟ أَمَا يَعْلَمُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّالَهُ يُغَارُ، وَأَنَّ غَيْرَتَهُ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدَ مُحَارِمَهُ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، أَلَا يَعْلَمُ بَأَنَّ اللَّهَ يَرَى يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى بِيَدِهِ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَمْهَلُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، يَأْخُذُهُ بِذَنْبِهِ وَيُوفِيهِ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَلَا يَظْلِمُ رِبْكَ أَحَدًا.

يقول أبو سليمان الدراني رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ صَفَّى صُفْيًى لَهْ، وَمَنْ كَدَّرَ كُدْرًا عَلَيْهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُوفِيَّ فِي لَيْلِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ كُوفِيَّ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ صَدَّقَ فِي تَرْكِ الشَّهْوَةِ ذَهَبَ اللَّهُ بِهَا مِنْ قَلْبِهِ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَعْذِبَ قَلْبًا بِشَهْوَةٍ تَرَكَتْ لَهْ). اهـ.

(١) رواه ابن ماجه وصححه الألباني (٣٤٤٢).



لقد كان سلف الأمة أشد عناية بإصلاح سرائرهم، وحفظ جوارحهم، وإليكم عباد الله طائفة من قصصهم اعتذر أثناءها عن التعليق، حتى لا أكدر صفوها، وأفسد رونقها، ولكن أسوقها إليك، وأسردها عليك؛ لتسبح في فضائها الرحيب، وتطلع على خبرها العجيب: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ففي الجهاد: يقول محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سنان قال: (كنت بطرسوس، فصاح الناس: النفير النفير! فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطف الجمعان خرج رومي فطلب البراز، فخرج إليه رجلٌ فشدَّ عليه العلج فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد. فالتفت إليَّ ابن المبارك فقال: يا فلان، إن قُتلت فافعل كذا وكذا، ثم حرك دابته وبرز للعلج، فعالج معه ساعةً فقتل العلج، وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر، فقتله حتى قتل ستة علوج، فطلب البراز، فكأنهم كانوا كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصفين ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله، لئن حدثت بهذا أحدًا وأنا حيٌّ...).

وفي الصلاة والدعاء يقول سلام بن أبي مطيع: (كان أيوب يقوم الليل، يُخفي ذلك، فإذا كان قبيل الصبح رفع صوته كأنه إنما قام تلك الساعة).

وفي الصيام: عن إسحاق بن خف قال: (أقام عمرو بن قيس عشرين سنة صائمًا ما يعلم به أهله، يأخذ غذاءه، ويغدو إلى الخانوت فيتصدق بغذائه ويصوم، وأهله لا يدرون).

وفي الصدقة: عن محمد بن إسحاق، قال: (كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين يؤتون بالليل).

وفي قراءة القرآن الكريم: عن الأعمش قال: (كنت عند إبراهيم النخعي، وهو يقرأ في المصحف، واستأذن عليه رجل، فغطى المصحف، وقال: لا يرى هذا أني أقرأ فيه كل ساعة). وفي البكاء: عن حماد بن زيد قال: (كان أيوب ربما يحدث بالحديث فيرى فيلنت ويمتخط، فيقول: ما أشدَّ الزكام!).

هؤلاء رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانياتهم بل أحلى، وهمتهم عند الثريا بل أعلى، إن عرفوا تنكروا وإن



رُئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض،
وتفرح بهم أملاك السماء.

فهلا استيقظت الهمة، وانكشفت الغمة، واتضح الطريق للحاق بهم ولو في الساقية أو
من بعيد؟! فله هاتيك القلوب، وما انطوت عليه من الضمائر! وما أودعنه من الكنوز
والدخائر! والله طيب أسرارها يوم تبلى السرائر!.

سَيَبْدُو لَهَا طَيْبٌ وَنَوْرٌ وَبَهْجَةٌ وَحُسْنٌ تَنَاءِ يَوْمٍ تُبَلَى السَّرَائِرُ

تالله! لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه،
ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه، واختارت على ما سواه وآثرت ما لديه.

إِذَا مَا قَالِ لِي رَبِّي أَمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِيَنِي

وَتَخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقِي وَبِالْعَصِيَانِ تَأْتِينِي

فَمَا قَوْلِي لَهُ لَمَّا يَعْبَاتِنِي وَيُقْصِمِينِي؟

قيل للحسن: سبقنا القوم على خيلٍ دُهمٍ، ونحن على حُمُرٍ معقرة، فقال: إن كنت على
طريقهم فما أسرع اللحاق بهم!

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

عباد الله: من أهم عوامل ارتقاء العبد عند الله تعالى ونيل الدرجات العلا إصلاحه لسريرته، فينبغي على العبد أن يبذل جهده كله في أن يكون في إصلاح قلبه، وتدارك حاله، وأن يكون ظاهره في مستوى باطنه.

وكم نحن بحاجة -عباد الله- عظيمة إلى إصلاح سرائرنا! وهناك وسائل تعتبر ذخيرةً لإصلاح السريرة، وهي كثيرة، منها الخلوة المشروعية، فإنه لا بد للعبد من أوقات يخلو بها مع نفسه، يذكره ويناجيه، ويحاسب نفسه ويعاتبها، ويتدبر ويتفكر، وإلا وقع في شرك الغفلة، وقساوة الخُلطة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (مَنْ فَقَدَ أُنْسَهُ بَيْنَ النَّاسِ وَوَجَدَهُ فِي الْوَحْدَةِ فَهُوَ صَادِقٌ ضَعِيفٌ، وَمَنْ وَجَدَهُ بَيْنَ النَّاسِ وَفَقَدَهُ فِي الْخُلُوةِ فَهُوَ مَعْلُولٌ، وَمَنْ فَقَدَهُ بَيْنَ النَّاسِ وَفِي الْخُلُوةِ فَهُوَ مَيِّتٌ مَطْرُودٌ، وَمَنْ وَجَدَهُ فِي الْخُلُوةِ وَبَيْنَ النَّاسِ فَهُوَ الْمَحَبُّ الصَّادِقُ الْقَوِيُّ فِي حَالِهِ.

ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها، ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم، ومن كان فتحه في وقوعه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيء استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس) اهـ. قال رَحِمَهُ اللهُ: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(١).

ومن وسائل إصلاح السريرة المراقبة، وهي أن يتيقن العبد بأن الله تعالى مطلعٌ عليه، وأنه لا تخفى عليه خافية، مهما بالغ العبد في إخفائها، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

فمتى ما أحس العبد بانفراده وخلوته، وتحرك في نفسه داعي المعصية، فليتذكر أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيدفع تلك الخاطرة، ولسان حاله يقول:

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

وإذا خلوت بريية في ظلمة
والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقُل لها
إنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلامَ يراني

والحياء من الله جل وعلا من أعظم وسائل إصلاح السرائر؛ لأن الحياء من الله تعالى يدفع إلى ترك كل قبيح يكرهه الله، وفعل كل خير يحبه الله، بحيث لا يراك أبداً حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، قال رجل ذات يوم للنبي ﷺ: أوصني، قال: «أوصيك أن تستحي الله كما تستحي رجلاً صالحاً من قومك»^(١).

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَإِذَا خَلَا فَلْيَصَلِّ مِثْلَهَا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَإِنَّهُ اسْتِهَانَةٌ يَسْتَهِنُ بِهَا رَبَّهُ، أَلَا يَسْتَحِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أَعْظَمَ فِي عَيْنِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟».

ومما يعين على إصلاح السريرة تذكر المسألة بين يدي الرب عزَّ وجلَّ، فيتذكر العبد موقف الحساب والعرض على رب الأرباب، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقد وقف الناس للحساب، وندت الشمس من رؤوس العباد، وجيء بجهنم تُقاد بسبعين ألف زمام، ووقف الملائكة الكرام، واشتد الزحام، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

فيتذكر ذلَّه وفرقه عند ما يدعى للوقوف بين يدي الجليل، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [١٣] لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، بأي قدم تقف بين يدي الله، وبأي عمل تقدّم عليه؟ وبأي لسانٍ تتحدث إليه، وفي يدك كتاب عملك لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

إذا ما قال لي ربي
أما استحييت تعصبيني
وتُخفي الذنبَ عن خلقي
وبالعصيان تاتيني

فأعدّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً.

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤١).



ومن الوسائل المهمة لإصلاح السرائر التوبة؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيتوبُ العبد توبةً نصوحًا خاصةً لله تعالى، يقلعُ معها عن معاصيه، ويندم على ما سلف في ماضيه، ويعزم على أن لا يعود، وهو يتمثل قول القائل:

كم قد زللتُ فلم أذكركَ في زللي وأنت يا سيدي في الغيبِ تذكُرني
كم أكشِفُ السترَ جهلاً عند معصيتي وأنت تلطف بي حقاً وتسترني
لأبكينَ بدمع العينِ من أسفٍ لأبكينَ بكاءً الواله الحزنِ

يقول الربيع بن خثيم: (السرائر اللاتي يخفين من الناس وهن لله بواد، التمسوا دواءهن، وما دواؤهن إلا أن تتوب فلا تعود؟).

فيا من بارز الله بالمعاصي.. تذكر يوم يؤخذ بالنواصي، واستحي من الله حياءك من رجل صالح من قومك، يا من تلذذ بمعاصي الخلوات، اعلم أنها أعظم أسباب الانتكاسات، ويا من بحث عن اللذة في معصية الله، هل بقيت لذة لعاصي؟ لقد ذهب لذات المعاصي وبقي عقابها، كما ذهب تعب الطاعات وبقي ثوابها، فطوبى لمن يذكر ماضيه فيحمد الله على توفيقه، ويا حسرة من يذكر ماضيه فيندم على تفريطه وتقصيره وتضييعه.

عباد الله: عليكم بالإكثار من الأعمال الصالحة في السر والعلن، والاشتغال بما ينفع؛ فالأعمال الصالحة من المحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل، والمداومة على الذكر، سبب في الهداية والتوفيق، والمحبة، والحفظ من الله رب العاملين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، قال أبو الحسن الزاهد رَحِمَهُ اللهُ عندما سُئِلَ: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ قال: (كما عصيت الله تعالى سرًّا، تطيعه سرًّا، حتى يدخل إلى قلبك لطائف البر).

وآخرها - وهو أهمها - الدعاء؛ فيكثر العبد من الدعاء والتضرع لله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح سريرته، ويُطهِّر باطنه، ويتحرى بذلك أوقات الإجابة، وأسباب الاستجابة. فعليكم بالابتغال والدعاء، والتوبة والندم الصادق، فإن من عجز عن ترك معصية لا نجاة له إلا



بصدق اللجوء إلى الكريم سبحانه، وإكثار الاستغفار والدعاء، ومن صدق في ذلك فلن يخيب أبداً..

ومن تلك الأدعية، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نَخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومما ورد في السنة المطهرة عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت به أعلم مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(١).

اللهم إنا نسألك أن تمنّ علينا بسترِكَ الجميل، وفضلِكَ الجزيل، اللهم اجعل سيرتنا خيراً من علانيتنا، واجعل علانيتنا حسنة، اللهم إنا نسألك الإيمان والعفو عما سلف وكان من الذنوب والعصيان، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



(١) رواه مسلم (٧٧١).

• محبة الله والأسباب الجالبة لها (١)

• الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الذي جعل حبه أشرف المكاسب، وأعظم المواهب، أحمده سبحانه وأشكره على نعمة المطاعم والمشارب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزّه عن النقائص والمعايب، خلق الإنسان من ماءٍ دافقٍ يخرج من بين الصُّلب والترائب، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى أعلى المراتب، صلّى الله عليه وعلى آله ومن سار على نهجه من تابعٍ وصاحب.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله؛ فهي سبيلُ النجاة والصلاح، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عباد الله: محبة الله من لوازم الإيمان، ولا يتم التوحيد حتى تكتمل محبة العبد لربه، والمحبة لا تُحدُّ بحدٍّ أوضح منها، ولا تُوصفُ بوصفٍ أظهر منها، وليس هناك شيءٌ يُحبُّ لذاته من كل وجهٍ إلا الله سبحانه الذي لا تصلح الألوهية والعبودية والذلل والخضوع والمحبة التامة إلا له سبحانه .

محبة الرب سبحانه شأنها غير الشأن؛ فإنه لا شيءٌ أحبُّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها ووليها ومولاها وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحيها؛ فمحبتة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن.

(١) عبدالباري الثبيتي.



فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أجمل ولا أذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه.

قال يحيى بن معاذ: (عفوهُ يستغرقُ الذنوبَ؛ فكيفِ رضوانُهُ؟ ورضوانُهُ يستغرقُ الآمالَ؛ فكيفِ حُبُّهُ؟ وحُبُّهُ يدهشُ العقولَ؛ فكيفِ وُدُّهُ؟ ووُدُّهُ يَنبِيي ما دُونَهُ؛ فكيفِ لُطْفُهُ؟).

وبمقدار ما يستكثرُ المرءُ من حبِّ الله بمقدار ما يشعرُ بلذة الإيِّان وحلاوته، ومن غمرَ قلبه بمحبة الله أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه؛ فلا يُعْزِي القلب ولا يسُدُّ خلته، ولا يُشْبِعُ جوعته إلا محبته سبحانه .

ولو حصل له كلُّ ما يلتذُّ به لم يأنس ولم يطمئن إلا بمحبة الله عزَّ وجلَّ، وإذا فقدَها القلبُ كان ألمه أعظمَ من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقدت شمَّه، واللسان إذا فقدت نطقه؛ بل فسادُ القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإله الحق أعظمُ من فساد البدن إذا فقد الروح.

حقيقة المحبة: أن تهبَ كلُّك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منه شيءٌ، وتسبقَ محبة الله جميعَ المحابِّ وتغلبها، وتكون سائرُ محابِّ العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

يتفاوتُ المُحِبُّون في قدر المحبة؛ لأن الله تعالى وصفَ المؤمنين بشدة الحُبِّ له، فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي قوله: أشدُّ دليلٌ على تفاوتهم في المحبة؛ لأن المعنى: أشدُّ فأشدُّ.

محبة الله: إثاره لمحوباته على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه؛ أي: أن يكون كلُّك بالمحسوب مشغولاً، ونفسك له مبدولة، مع سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام، وقد قال نبيُّنا ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحَبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحَبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ»^(١).

المحبة إذا اشتدت وعظمت عند صاحبها وارتقت فإنها تُصْبِحُ وهماً، والولءُ هو شدة المحبة، والتألهُ الله تبارك وتعالى هو شدة محبة الله، ومحبة ما جاء من عند الله تبارك وتعالى،

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٥) واللفظ له، وأحمد (٢٢١٦٢).



محبة الله والأسباب الجالبة لها

وحاجتهم إلى التآله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء؛ فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم، ويفقد التآله تفسد النفس.

المؤمن إذا عرف ربه أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة.

حب الله يحمل المرء على فعل الواجبات وترك المحرمات، ويحمل العبد على فعل المستحبات، وينهاه عن المكروهات.

حب الله يملأ القلب بلذة الإيمان وحلاوته، «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» (١).

محبة الله تُخرج من القلب محبة كل ما يكرهه الله، وتنبعث الجوارح بمحبة الله إلى الطاعات، وتغذو النفس مطمئنة، وفي الحديث القدسي: «... فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» (٢).

المحب يجد من لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد من مسها ما يجد غيره. محبة الله من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه؛ فإن المحب لمن يحب مُطيع.

وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضائه للطاعة وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها.

والمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرفع قلبه وجوارحه، والمحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنها إنما توجب نوع أنس وإنساطٍ وتذكيرٍ واشتياقٍ، ولهذا يتخلف أثرها وموجبها، ويفتس العبد قلبه فيرى نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه.

وسبب ذلك: تجرؤها عن الإجلال والتعظيم، فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله للعبد - أو أفضلها -، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).



وإذا تجردت المحبة عن الخضوع والذل أصبحت المحبة دعوى لا قيمة لها، وهذا حال من ادعى محبة الله، ولكنه لم ياتم بأمر الله، ولم يخضع لسنة محمد ﷺ، ولم يحكمها في أقواله وأعماله وعباداته.

ولا يحب الله ولا يدعى محبته أحد لا يتابع رسول الله ﷺ، ولهذا قالت اليهود والنصارى كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ مَنُ آبَتُؤُا اللَّهِ وَأَحَبُّؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].
فالدعوى المجردة كل يدعيها، وقضى الله على الدعوى، وبين الحقيقة من الزيف بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن علامة محبة الله: محبة أهل طاعته، وموالاة أوليائه، ومُعَاداة أهل معصيته، ومُجَاهدة أَدَائِهِ، ونصرُ أنصاره، وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال.
وهنا يجدر بنا أن نعرف الأسباب الجالبة لمحبة الله، ومنها: معرفة نعم الله على عباده التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

ومن الأسباب:

معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فمن عرف الله أحبه، ومن أحب الله أطاعه، ومن أطاع الله أكرمه، ومن أكرمه الله أسكنه في جواره، ومن أسكنه الله في جواره فطوبى له.
ومن أعظم الأسباب:

التفكير في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء من الآيات الدالة على عظمته وقدرته وجلاله وكماله وكبريائه ورأفته ورحمته ولطفه، إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى وصفاته، فكلما قويت معرفة العبد بالله قويت محبته له ومحبته لطاعته.

ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل: مُعاملة الله بالصدق والإخلاص، ومُخالفة الهوى؛ فإن ذلك سبب لفضل الله على عبده وأن يمنحه محبته.



محبة الله والأسباب الجالبة لها

ومن أعظم ما تُستجلبُ به المحبة: كثرةُ ذكرِ الله؛ فمن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذكرِهِ، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإياكم بما فيه من الآيات والذِكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي نصر عباده بصالح الدعوات، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وأيُّ المكرمات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربُّ البريات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله المؤيد بالمعجزات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وها هنا - إخوة الإسلام - أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها:

الأول: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه؛ فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يُحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب في الله والله، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئاً مع الله لا الله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذ نداءً من دون الله، وهذه هي محبة المشركين، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

عباد الله: استشعروا محبة الله في قلوبكم، واغرسوها في قلوب أبنائكم وبناتكم وأهلكم، ذكروهم بنعم الله تعالى، نعمة الصحة والعافية، والأمن والكفاية، من أوى إلى بيته ذكر نعمة ربه، ومن نظر ببصره ذكر نعمة ربه، ومن شرب حتى ارتوى ذكر نعمة ربه، اجعلوا من جلساتكم وراحاتكم واجتماعاتكم فرصة لغرس محبة الله تعالى بالتذكير بنعمته وستره وكرمه.



أيها الناس: تذكروا أن الله يحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب المنفقين، ويحب المخلصين، ويحب الصابرين، ويحب الصادقين، ويحب أهل العفو والحلم، وأهل البر والصلة، ويحب مكارم الأخلاق ومعالي الآداب، ويكره سفاسف الأمور وأراذل الأخلاق، ويبغض الطعان واللعان والفاحش البذيء، ولا يحب الظالمين، والمعتدين، والمفسدين، والمتكبرين..

نسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يأخذ بنواصينا للبر والتقوى..

ألا وصلُّوا - عباد الله - على رسولِ الهدى؛ فقد أمركم الله بذلك في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ

وَمَلَائِكَتُهُ بِصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



التوبة (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله من لجأ إليه بَلَّغَهُ فوق مأموله، ومن سأله أعطاه أكثر من سؤله، أحمده سبحانه مَنْ عَلَى مِنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ وَقَبُولِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مَوْجِبَةً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ بَيْنَ سَبِيلِ الْهُدَى وَبَلَّغَ الدِّينَ كُلَّهُ بِفُرُوعِهِ وَأَصُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، أَقَامُوا شَرَعَ رَبِّهِمْ بِكَمَالِهِ وَشُمُولِهِ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد: فأوصيكم -أيها المسلمون- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله- فلقد نطقت الغيبر بالغيبر، فانظروا خلاصكم قبل انقضاء أعماركم، واعتبروا بمن مضى من القرون والأقربان، وسلوا القبور عن ساكنيها، فالعاقل من راقب العواقب، ومن أخطأته سهام المنية قيده عقاب الهرم، ألا يكفي زاجرا للمقيمين من رحل؟!

عباد الله: اتقوا الله واعلموا أن الله قد أوجب التوبة على عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال أيضًا: ﴿بَنَاتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم مِّن جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

وقد أمر النبي ﷺ بالتوبة والاستغفار كما عند مسلم في صحيحه فقال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»^(٢)، وفي رواية أخرى عند البخاري قال ﷺ:

(١) يزيد بن الخضر بن قاسي.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢).



«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١). فهذا رسول الله ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، فكيف بمن دونه من الناس؟!

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة، فالتوبة أيها الإخوة المسلمون واجبة على كل مسلم ومسلمة، وهي واجبة من جميع الذنوب والمعاصي بدون استثناء؛ صغيرة كانت أم كبيرة.

والتوبة عباد الله هي الإقلاع عن الذنب من ترك واجب أو فعل محرم، فهي الرجوع من معصية الله إلى طاعته سبحانه وتعالى.

وكما أن لكل عمل من الأعمال شروطاً ليقبل عند الله، فإن للتوبة شروطاً كذلك، قال تعالى: ﴿يَتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] أي: توبة صادقة، ولتكون التوبة توبة نصوحاً كما قال تعالى وتكون مقبولة وصحيحة يجب أن يتوفر فيها شروط كما سيأتي بيان ذلك.

والتوبة من الذنب عباد الله على حالتين:

الحالة الأولى: إذا كان الذنب بين العبد وبين ربه سبحانه؛ أي: إذا كانت المعصية بينك أخي المسلم وبين ربك، ولا تتعلق بحق آدمي آخر، ففي هذه الحالة للتوبة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: الإقلاع عن المعصية؛ أن تقلع أخي المسلم عن المعصية، وأن تكف عنها، فإن كنت تاركاً لواجب وجب عليك فعله، وإن كنت فاعلاً لمحرم وجب عليك تركه.

الشرط الثاني: الندم على فعلها؛ أن تشعر بالحزن على فعلك لتلك المعصية، وتتمنى أنك لم تفعلها، قال عليه الصلاة والسلام: «الندم توبة»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) رواه ابن ماجه وغيره وصححه الألباني (٣٤٤٨).

الشرط الثالث: العزم على عدم الرجوع إلى ذلك الذنب؛ أن تعزم بإرادة قوية في قلبك أن لا تعود أبداً إلى تلك المعصية مستقبلاً. فهذه هي شروط التوبة إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى.

وأما الحالة الثانية: إذا كان الذنب بين آدمي وآدمي آخر؛ أن تكون المعصية بينك أخي المسلم وبين عبد أو مسلم آخر، ففي هذه الحالة يجب أن يتوفر في التوبة أربعة شروط؛ الثلاثة التي ذكرناها سابقاً من إقلاع وندم وعزم على عدم العودة، والشرط الرابع: أن يبرأ التائب من حق صاحبه؛ أي: أن تبرأ أخي المسلم من حق صاحبك الذي اعتديت عليه، فإن كنت أخذت مالا أو نحوه رددته إلى صاحبه، وإن كانت غيبة استحللته منها، وإن كان حد قذف أو نحوه مكنته من نفسك أو طلبت عفوه، فإن فقد أحد الشروط في تلك الحالات لم تصح التوبة.

وزاد بعض العلماء في شروط التوبة الإخلاص، أي: أن تكون توبة الرجل خالصة لله تعالى، وأن يقصد بها وجه الله رغبة في مغفرته وثوابه، وخوفاً من عذابه وعقابه، ولا تصح التوبة إذا كانت خوفاً من عصا سلطان، أو رغبة في جاه أو مال أو شيء من عرض الدنيا. ومما لا يخفى على أحد منا أن أبواب التوبة مفتوحة لكل أحد، ولكن الذي ينبغي أن يعرفه المسلم أن هناك أوقاتاً تغلق فيها أبواب التوبة:

الوقت الأول: عند بلوغ الروح الغرغرة، فإذا بلغت الروح الحنجرة أغلقت أبواب التوبة على الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾ [النساء: ١٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١)، أي: ما لم تبلغ روحه الحنجرة.

أما الوقت الثاني: فهو عند طلوع الشمس من مغربها، قال عليه الصلاة والسلام: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»^(٢). فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلقت أبواب التوبة على الناس جميعاً.

(١) رواه الترمذي وغيره وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٣).



ومن مسائل التوبة عباد الله أنه قد يحدث للمسلم أن يتوب من ذنب أو معصية ما، ثم يمرّ عليه وقت ويقع في الذنب مرة أخرى بعد توبته منه، فوقعه في الذنب لا يبطل توبته الأولى، ما دام يأتي في كل مرة بشروط التوبة.

ومن المسائل كذلك أن التوبة من بعض الذنوب دون الأخرى صحيحة على الراجح من أقوال أهل العلم، فإذا كان الإنسان تاركًا للصلاة ولا يؤدي زكاة أمواله، فتأب من تركه للصلاة وأصبح يصلي، فتوبته من ترك الصلاة صحيحة، وتبقى عليه معصية وكبيرة منع الزكاة.

وإياك أخي المسلم أن تحقر ذنبًا من الذنوب، وتحسبه صغيرًا فترك التوبة منه، فقد تحقر ذنبًا وتراه عينك صغيرًا وهو عند الله عظيم، والذنب الصغير مع الذنب الصغير يتراكم ويصبح كبيرًا.

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وبعض الناس تسول لهم أنفسهم ارتكاب الحرام بنية التوبة، فتسهل عليهم المعصية بهذه الحيلة الباطلة، يقول: أسرق ثم أتوب، أنوي التوبة في قلبي وأسرق، أو أتعامل بالربا بنية التوبة، ثم أتوب، أو أزي بنية التوبة ثم أتوب، وهكذا، فتصبح حيلة للوقوع في المعاصي، وفي الحقيقة كل هذا تلبس من إبليس، وكيد من مكائده لإيقاع الناس في الحرام، فالمسلم لا يستعمل الحيلة مع الله تعالى، لأنه يدري أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والتوبة تحتاج إلى توفيق من الله، وما يدريك لعلك لا توفق إلى أسباب التوبة، ولا إلى طريقها، بعد ارتكابك للمعصية، فتصير غارقًا فيها مدمنًا عليها، أما تدري أن جزاء وعقاب المعصية معصية مثلها أو أكبر منها؟! وما يدريك لعلك تموت قبل التوبة، أو أنك تموت وأنت تقترف تلك المعصية، ولن تغني عنك نيتك شيئًا، فاحذر أخي المسلم من هذه المكيدة الشيطانية.

ومما ينبغي على المسلم أن يعلمه أن الجهر بالمعصية أخطر من الإسرار بها، والجهر بالمعصية أعظم إثمًا وأشد جرمًا من الإسرار بها، قال عليه الصلاة والسلام: «كل أمتي معافي إلا

المجاهرين»^(١)، والمجاهرون هم الذين يجهرون بمعصية الله جهارًا نهارًا، أمام أعين الناس، لا يستحيون من الله، ولا يستحيون من الناس، فالذي يشرب الخمر أو يعصي الله بنوع من أنواع الفجور والفسوق على قارعة الطريق أمام أعين الناس أعظم إنثمًا عند الله من الذي يعصيه في كل هذا وهو يستر نفسه، ويستر معصيته عن أعين الناس.

«كل أمتي معافي إلا المجاهرين»، لأن الجهر بالمعصية أمام الناس عباد الله فيه شيء من الاستحلال، ونوع من التحدي لله في محارمه أمام عباده، والجهر بالمعصية من موجبات غضب الله وسخطه وعذابه، والجهر بالمعصية فيه دعاية ودعوة وإشهار للحرام، ويورث في قلوب الناس الرغبة في ارتكابها؛ فالناس مفطورون على حب التوافق ومشابهة بعضهم بعضًا، خاصة عند قصار العقول وضعاف النفوس، فيزين لهم الشيطان ارتكاب الحرام، فيكثر الفساد، ويشيع ويتشر في أوساط المسلمين، فمن ستر معصيته عن أعين الناس وستر نفسه معترفًا بذنبه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة ووفقه للتوبة. وأما من فضح نفسه، وأعلن وجهر بذنبه أمام الناس، كان وبال أمره خسرا، وعقابه عند الله كبيرًا، ولم يكن من المعافين كما قال عليه الصلاة والسلام.

ومن الناس من تجده قد أسرف على نفسه بكثرة الذنوب والمعاصي حتى غرق فيها، ويرى نفسه أنه قد هلك بها، فيدخله القنوط واليأس من رحمة الله، وإذا تذكر التوبة قال: ذنوبي كثيرة وكبيرة وثقيلة، فأني يغفر لي؟!

ومثل هذا نقول له: استمع يا أخي المسلم المذنب إلى هذا النداء الرباني، نداء الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى عن يعقوب: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال أيضًا: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).



فلا تقنط من رحمة ربك لكثرة ذنوبك، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون، وتب إلى الله، فأبواب التوبة مفتوحة، قال عليه الصلاة والسلام فيما^(١): «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». فلا تقنط ولا تيأس أبداً أيها المسلم من رحمة الله الواسعة، فكم من تائب عن ذنوب كثيرة وعظيمة تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٨-٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى من الناس من هو منهمك في معصية الله تعالى، إما أن يكون تاركاً لواجبات أو مرتكباً لمحرمات، أو قد خلط بين الأمرين، وإذا ذكرته بالله وقدمت له النصيحة وقلت له: يا أخي، تب إلى الله، دع عنك هذا الأمر الخبيث، يقول لك بكل ارتياح وطمأنينة: ربي غفور رحيم. فنقول: نعم صدقت، إن الله غفور رحيم، قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغُفُورَ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ [الحجر: ٤٩]، ولكن بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٥٠].

نعم ربنا غفور رحيم، ولكنه سبحانه في نفس الوقت شديد العقاب وعذابه أليم، غفور رحيم لمن اعترف بذنبه، وتاب وآمن وعمل صالحاً، وشديد العقاب لمن تكبر على الله تعالى، وأصر على ذنبه، وتهاون في الرجوع والتوبة، فلا يجوز للمسلم أن يتكلم على رحمة الله وهو متمادٍ في العصيان، وقد كان من تمام منهج الأنبياء والصالحين عبادة الله بين الخوف والرجاء، الخوف من عذابه وسخطه، والرجاء لرحمته وثوابه، فلا يؤخذ بالرجاء ويهمل الخوف، أو العكس، بل يؤخذ بهما معاً.

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٧٥٩).



فإذا رأيت من نفسك أخي المسلم قنوطاً ويأساً استحضر رحمة الله، وإذا رأيت من نفسك تقصيراً وميلاً للعصيان استحضر خوف الله، وهكذا يعيش المسلم بين الخوف والرجاء، وهكذا كان دأب الأنبياء والمؤمنين الصالحين الأولين، حتى امتدحهم الله في كتابه فقال: ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في رحمته.

الخطبة الثانية:

الحمد لله وهو بالحمد جدير، أحمده سبحانه وأشكره على فضله العميم وخيره الوفير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبد الله ورسوله البشير النذير والسراج المنير، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله ذوي القدر العليّ وأصحابه أولي الشرف الكبير، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ومن على طريق الحق يسير، وسلّم التسليم الكثير.

أما بعد:

أيها الإخوة الأعزاء: ويقول النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»^(١)، فلا أحد معصوم عن الخطأ والمعصية، وكلنا نخطئ، وكلنا نذنب، ونقع في العصيان، والمعصوم من عصمه الله تعالى، ولكن الذنب الأكبر في عدم التوبة والاستغفار، قال ﷺ من روية مسلم: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون، يغفر لهم»^(٢)، ومعنى الحديث أي: لولا أننا معشر البشر نذنب ونستغفر، لذهب الله بنا، وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم، لأن الله يحب أن يغفر لعباده، ويجب من عباده على ما اقترفوه من ذنوب أن يكونوا توابين ومستغفرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولم يقل: التائبين، بل قال: ﴿التَّوَّابِينَ﴾ على صيغة المبالغة التي تدل على كثرة تكرار التوبة لله تعالى.

إن من فضل الله وكرمه فرحته بتوبة عبده كثيرًا، قال النبي ﷺ: «الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»^(٣)

(١) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٤٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٧).

وكما سبق لقد كان رسول الله ﷺ وهو من هو مكانة ومنزلة عند ربه وطاعة وتقربا إلى مولاه سبحانه كان يتوب في اليوم ويستغفر الله أكثر من سبعين مرة إذ يروي البخاري بسنده أن النبي ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).
فما بالنا اليوم ونحن في زمن الفتن ومع ما يقع منا من تقصير وذنوب لا نتوب ولا نتجبت قلوبنا لخالفها وتهدي.

عباد الله: إن مما يمحو الله به المعاصي و الذنوب التوبة النصوح، وزيادة على هذا فقد جعل الله برحمته أسباباً لمغفرة الذنوب والمعاصي، ومن أعظم هذه الأسباب توحيد الله تعالى وعدم الإشراف به، قال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم: «ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة»^(٢).

ومن موجبات المغفرة كذلك إفشاء السلام وحسن الكلام، روى الطبراني بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «إن موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام»^(٣).

ومن الأسباب كذلك التي يمحو الله بها الخطايا والذنوب الصلاة والأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتِ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. ففعلك للحسنات أخي المسلم يذهب السيئات ويمحوها، وقد قال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، وقد ثبت في السنة الصحيحة أن الوضوء والصلاة والتسبيح بعدها والعمرة والحج وصيام رمضان وصلاة الجمعة وكل أعمال البر من فعل الخيرات والطاعات مما يحط الله بها الخطايا، ويمحو بها السيئات، وذلك ذكرى للذاكرين.

عن الفضل بن موسى قال: (كان الفضيل بن عياض لصاً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها قال: بلى يا رب! قد آن. فرجع فأواه الليل إلى خربة، فإذا فيها قافلة، فقال بعضهم: نرحل. وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٣) صحيح الجامع (٢٢٣٢).



الطريق يقطع علينا. قال: ففكرتُ وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني؟ وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام).

أيها المسلمون: إن للتوبة والاستغفار فوائد عظيمة، تعود على المسلم التواب المستغفر بالخير في الدنيا والآخرة؛ فإن التوبة توجب محبة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. والتوبة توجب الفلاح، قال عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. والتوبة والاستغفار يدفعان عذاب الله عنا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فلا ينزل عذاب الله على عباد الله إن هم لازموا التوبة والاستغفار.

ومن الفوائد كذلك أن الاستغفار يبسط الرزق ويكثره، ويأتي بالمال والبنين، حتى كان بعض السلف إذا أراد الولد جدد توبته لله ولازم الاستغفار، قال تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فاتقوا الله عباد الله: وتوبوا إلى ربكم واستغفروه، فلئن كان نبيكم يستغفر الله في اليوم مائة مرة، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووضع الله عنه وزره، فكيف بحالنا؟ مع كثرة ذنوبنا وتقصيرنا؟

أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يتجاوز عنا تقصيرنا، وأن يتوب علينا توبة نصوحاً يرضى بها عنا.



حياة القلوب وأمراضها (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتصرف بالحكمة والتقدير.. المنزه عن الشبيه والنظير، أحمده سبحانه وأشكره على فضله العميم وخيره الوفير، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو الحكيم الخبير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله.. البشير النذير والسراج المنير، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان وعلى نهجهم يسير، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله رحمكم الله حيثما كنتم، وقوموا بالأمر الذي من أجله خلقتكم؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أيها المسلمون: في مستفتح العام يحسن التذكير. وما يتذكر إلا من ينيب، من غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، واشتدت عليه حسراته. لا بد من وقفة صادقة مع النفس في محاسبة جادة، ومساءلة دقيقة، فوالله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بما كنتم تعملون. هل الأعمار إلا أعوام؟ وهل الأعوام إلا أيام؟ وهل الأيام إلا أنفاس؟ وإن عمراً ينقضي مع الأنفاس لسريع الانصرام.

أفلا معتبر بما طوت الأيام من صحائف الماضين؟ وقلبت الليالي من سجلات السابقين؟ وما أذهبت المنيا من أمانى المسرفين؟ كل نفس من أنفاس العمر معدود. وإضاعة هذا ليس بعده خسارة في الوجود.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا

بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

هذه يد المنون تتخطف الأرواح من أجسادها. تتخطفها وهي راقدة في منامها. تعاجلها وهي تمشي في طرقاتها. تقبضها وهي مكبة على أعمالها. تتخطفها وتعاجلها من غير إنذار أو إشعار. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ها هو ابن آدم يصبح سليماً معافى في صحته وحلته، ثم يمسي بين أطباق الثرى قد حيل بينه وبين الأحباب والأصحاب.

ويلُّ للأعرار المغترين. يأمنون الدنيا وهي غرارة. ويثقون بها وهي مكاراة. ويركنون إليها وهي غدارة. فارقهم ما يحبون، ورأوا ما يكرهون. وحيل بينهم وبين ما يشتهون. ثم جاءهم ما يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

إنها الدنيا: تُبكي ضاحكاً، وتضحك باكياً. وتُخيف آمناً، وتؤمن خائفاً، وتفقر غنياً، وتغني فقيراً. تتقلب بأهلها، لا تُبقي أحداً على حال. العيش فيها مذموم، والسرور فيها لا يدوم، تُغيّر صفاءها الآفات، وتنوبها الفجيعات، وتفجع فيها الرزايا، وتسوق أهلها المنايا. قد تنكرت معالمها، وانهارت عوالمها.

أيها الإخوة: لا يعرف حقيقة الدنيا بصفوها وأكدارها، وزيادتها ونقصانها إلا المحاسب نفسه. فمن صَفَّى صُفْيَى له، ومن كَدَّر كُدَّر عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله. ومن سرَّه أن تدوم عافيته فليثق الله ربَّه، فالبر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان. وإذا رأيت في عيشك تكديراً وفي شأنك اضطراباً، فتذكر نعمة ما شكرت، أو زلة قد ارتكبي فجودة الثمار من جود البذار، ومن زرع حصد، وليس للمرء إلا ما اكتسب، وهو في القيامة مع من أحب.

يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: (من عرف أنه عبدٌ لله وراجعٌ إليه فليعلم أنه موقوف. ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليُعد لكل سؤال جواباً. قيل: يرحمك الله فما الحيلة؟ قال: الأمر يسير. تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى. فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي).



أيها الإخوة: وهذه وقفة محاسبة مع النفس، بل مع أعز شيء في النفس، مع ما بصلاحة صلاح العبد كله، وما بفساده فساد الحال كله. وقفة مع ما هو أولى بالمحاسبة وأحرى بالوقفات الصادقة يقول نبيكم محمد: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١). ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه»^(٢).

ويقول الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (داوِ قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم، ولن تحب الله حتى تحب طاعته).

أيها المسلمون: من عرف قلبه عرف ربّه، وكم من جاهل بقلبه ونفسه، والله يحول بين المرء وقلبه. يقول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هلك من لم يكن له قلبٌ يعرف المعروف وينكر المنكر».

أيها الإخوة: لا بد في هذا من محاسبة تَفُصُّ تغاليق الغفلة، وتوقظ مشاعر الإقبال على الله في القلب واللسان والجوارح جميعاً.

من لم يظفر بذلك فحياته كلها والله هموم في هموم، وأفكارٌ وغموم، وآلامٌ وحسرات. بل إن الله لم يعث نبيه محمداً إلا بالمهمتين العظيمتين: علم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

بل لقد علّق الله فلاح عبده على تزكية نفسه وقدم ذلك وقرره بأحد عشر قسماً متواليّة؛ اقرؤوا إن شئتم وتأملوا: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ٣ وَأَيُّهَا إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ٥ وَالْأَرْضُ وَمَا طَرَاهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١-١٠].

أيها الإخوة: إن في القلوب فاقةٌ وحاجةٌ لا يسدها إلا الإقبال على الله ومحبته والإنابة إليه، ولا يلم شعثها إلا حفظ الجوارح، واجتناب المحرمات، واتقاء الشبهات.

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٥٤).



معرفة القلب من أعظم مطلوبات الدين، ومن أظهر المعالم في طريق الصالحين. معرفة تستوجب اليقظة لخلجات القلب وخفقاته، وحركاته ولفقاته، والحذر من كل هاجس، والاحتياط من المزالق والهواجس، والتعلق الدائم بالله؛ فهو مقلب القلوب والأبصار. جاء في الخبر عند مسلم رَحِمَهُ اللهُ من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن عزَّوَجَلَّ كقلب واحد يصرفه حيث يشاء. ثم قال رسول الله: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»^(١).

ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. ومن دعاء رسول الله: «وأسألك قلباً سليماً».

والقلوب - أيها الإخوة - أربعة: قلب تقي نقي فيه سراج منير فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف مظلم؛ فذلك قلب الكافر: ﴿وَقَالُوا أَفَلَوْبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقلب مرتكس منكوس؛ فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكرك، وأبصر ثم عمي: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَزَكَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]. وقلب تمد مادتان؛ مادة إيمان، ومادة نفاق فهو لما غلب عليه منها. وقد قال الله في أقوام: ﴿هُمُ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وفي القلب قوتان: قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل. وقوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل. فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه. ومن عرفه واتبعه فهو المنعم عليه السالك صراط ربه المستقيم. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا موضع لا يفهمه إلا الألباء من الناس والعقلاء، ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العالية والنفوس الأبية الزاكية).

ورجل الدنيا وواحداه هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه، وأكثر الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم.

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).



إذا كان الأمر كذلك أيها الأحبة. فاعلموا أن صاحب القلب الحي يغدو ويروح، ويمسي ويصبح وفي أعماقه حسٌّ ومحاسبة لدقات قلبه، وبصر عينه، وسماع أذنه، وحركة يده، وسير قدمه، إحساس بأن الليل يدبر، والصبح يتنفس، والكون في أفلاكه يسبح بقدره العليم وتدبير الحكيم؛ ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]. قلب حي تتحقق به العبودية لله على وجهها وكما لها، أحب الله وأحب فيه. يترقى في درجات الإيمان والإحسان فيعبد الله على الحضور والمراقبة، يعبد الله كأنه يراه، فيمتلئ قلبه محبةً ومعرفةً، وعظمةً ومهابةً وأسًا وإجلالًا. ولا يزال حبه يقوى، وقربه يدنو حتى يمتلئ قلبه إيمانًا وخشية، ورجاءً وطاعة، وخضوعًا وذلةً؛ «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه». كلما اقترب من ربه اقترب الله منه: «من تقرب إلي شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا»^(١). فهو لا يزال رابحًا من ربه أفضل مما قدم، يعيش حياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة: ﴿فَأَذْكُرُوا فِي الْحَيَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(٢). من بذل شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وجازاه أفضل ما قدم.

أصحاب القلوب الحية صائمون قائمون، خاشعون قانتون، شاكرون على النعماء، صابرون في البأساء، لا تنبعث جوارحهم إلا بموافقة ما في قلوبهم، تجردوا من الأثرة والغش والهوى. اجتمع لهم حسن المعرفة مع صدق الأدب، وسخاء النفس مع مظانة العقل. هم البريئة أيديهم، الطاهرة صدورهم، متحابون بجلال الله، يغضبون لحرمان الله، أمناء إذا اتتمنوا، عادلون إذا حكموا، منجزون ما وعدوا، موفون إذا عاهدوا، جادون إذا عزموا، يهشون لمصالح الخلق، ويضيقون بالآلامهم، في سلامة من الغل، وحسن ظن بالخلق، وحمل الناس على أحسن المحامل. كسروا حظوظ النفس، وقطعوا الأطماع في أهل الدنيا.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله أنه قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير»^(٣)، فهي سليمة نقية، خالية من الذنب، سالمة من العيب.

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٠).



يحرصون على النصح والإخلاص، والمتابعة والإحسان. همتهم في تصحيح العمل أكبر منها في كثرة العمل: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. أوقفهم القرآن فوققوا، واستبانات لهم السنة فالتزموا، ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، بواطنهم كظواهرهم بل أجل، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهمتهم عند الثريا بل أعلى. إن عرفوا تنكروا، تحبهم بقاع لأرض، وتفرح بهم ملائكة السماء.

هذه حياة القلوب وهذه بعض آثارها.

أما القلوب المريضة فلا تتأثر بمواعظ، ولا تستفزها النذر، ولا توقفها العبر. أين الحياة في قلوب عرفت الله ولم تؤد حقه؟ قرأت كتاب الله ولم تعمل به. زعمت حب رسول الله وتركت سنته. يريدون الجنة ولم يعملوا لها، ويخافون من النار ولم يتقوها.

رُب امرئ من هؤلاء. أطلق بصره في حرام فحرم البصيرة، ورب مطلق لسانه في غيبة فحرم نور القلب، ورب طاعم من الحرام أظلم فواده، لماذا يُحرم محرومون قيام الليل؟ ولماذا لا يجدون لذة المناجاة؟ إنهم باردو الأنفاس، غليظو القلوب، ظاهر الجفوة؟.

القلب الميت: الهوى إمامه، والشهوة قائده، والغفلة مركبه، لا يستجيب لناصح، يتبع كل شيطان مرید. الدنيا تُسخطه وترضيه، والهوى يصمه ويعميه. ماتت قلوبهم ثم قبرت في أجسادهم، فما أبدانهم إلا قبور قلوبهم. قلوب خربة لا تؤلمها جراحت المعاصي، ولا يوجعها جهل الحق. لا تزال تشرب كل فتنة حتى تسود وتنتكس، ومن ثم لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا.

عباد الله: غفلة القلوب عقوبة، والمعصية بعد المعصية عقوبة، والغافل لا يحس بالعقوبات المتتالية ولكن ما الحيلة؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥].



الخطبة الثانية:

الحمد لله المستحق للحمد والثناء، له الخلق والأمر، يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره وأعوذ بالله من حال أهل الشقاء. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الأسماء الحسنى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الناس: من خاف الوعيد قَصُر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آتٍ قريب، وما شغل عن الله فهو شؤم. التوفيق خير فائد، والإيمان هو النور، والعقل خير صاحب، وحسن الخلق خير قرين. يقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ: (المؤمن قَوَّامٌ على نفسه، يحاسب نفسه لله. وإنما خف الحساب يوم القيامة على أقوام حاسبوا أنفسهم في الدنيا. وشق الحساب على أقوام يوم القيامة أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة. فحاسبوا أنفسكم رحمكم الله وفتشوا في قلوبكم).

عن حذيفة بن اليمان رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء. وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مبرأذ كالكوز مجخياً لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب هواه، وقلب أبيض لا تضمره فتنة ما دامت السموات والأرض»^(١).

يقول بعض الصالحين: (يا عجبًا من الناس ييكون على من مات جسده، ولا ييكون على من مات قلبه). شتان بين من طغى وآثر الحياة الدنيا، وبين من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

(١) رواه البخاري (١٤٤).



تمرض القلوب وتموت إذا انحرفت عن الحق وقارفت الحرام؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ عَالِمُ السُّرُورِ﴾ [الصف: ٥]. تمرض القلوب وتموت إذا افتتنت بآلات اللهو وخليع الصور؛ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

كل الذنوب تमित القلوب، وتورث الذلّة، وضيق الصدر ومحاربة الله ورسوله. يقول الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ابن آدم: هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه، وكلما كان الذنب أقبح كان في محاربة الله أشد. ولهذا سمى الله أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله ورسوله لعظم ظلمهم وسعيهم بالفساد في أرض الله. قال وكذلك معاداة أوليائه فإنه تعالى يتولى نصرته أوليائه ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه). أيها المؤمنون: القلب ملك الأعضاء، فهل تصلح الأعضاء إذا فسد الملك؟ وهل تستقيم الجوارح إذا انحرف الفؤاد؟ وهل تحيا الأبدان بالطاعة إذا ماتت القلوب؟

عباد الله: السلامة لا يعدلها شيء، وإن سلامة القلوب هي أعظم مطلوب، فإن بين أيديكم يوماً لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى ربه بقلب سليم، فسلموا القلوب من أمراضها، وداووها من أدوائها، وطهروها من أدناس الحقد والحسد، والكبر والبطر، والغفلة واتباع الهوى، واشغلوها بذكر ربها تسكن وتطمئن، وأحيوها بكلام الله تسعد وتنشرح، ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَطْمِينُ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: ٢٨].

هذا وصلوا وسلموا على النبي محمد...



ألا بذكر الله تطمئن القلوب^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الملك الغفار، أحمدته سبحانه وأشكره على فضله وكرمه المدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الخلق والاختيار، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله حق التقوى واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى، قال جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
عباد الله: يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويقول الرسول ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى، قال: «ذكر الله»^(٢).

فإذا اضطربت النفس وحر القلب فماذا نفعل وقتئذ، وإذا أرتت العيون فسهرت فلم تنم فماذا نفعل حينئذ، وإذا اشتدت الكرب وكثرت المصائب وعصفت الخطوب فماذا نفعل عندئذ، وإذا كثرت الهموم والغموم وتفشت السموم، فماذا نفعل عند ذلك، وأي عمل نقوم به لنذهب من سائنا الغموم، وأين الدواء لهذا الداء داء القلق والإضراب النفسي. إنه يا معشر المسلمين ذكر الله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) بركات ملحم.

(٢) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني (٣٣٧٧).



نعم ذكر الله هو جلاء القلوب وصفائها ودواؤها، فكلما ازداد الذافر في ذكره كلما ازداد محبة للقاء الله، فالذكر عبادة تشمل عدة أنواع من العبادات وتدخل في الكثير منها: فهل كانت الصلاة إلا ذكر، وهل كانت إقامتها إلا ذكر ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وهل كان الصوم إلا ذكر، وهل قراءة القرآن إلا ذكر، وهل الدعاء إلا ذكر، وهل الحج إلا ذكر، وهل معرفة الحلال والحرام إلا ذكر، وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا ذكر، وهل التقوى إلا ذكر، وإعانة المحتاج وغيرها من أعمال الخير إلا ذكر.

عباد الله: فالناس ينقسمون بالنسبة لذكر الله إلى أصناف: فمنهم من لا يذكر الله فهو لاء قست قلوبهم عن ذكر الله فلا يذكرون الله أبداً ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

نعم، إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة؛ لأن منها لما يخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فلا تجعل قلبك أفسى من الحجارة قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] سببه أن جميع الأسباب الطبيعية تنتهي إلى الذات الإلهية، كما أن ملكوت جميع الأشياء تصف بالشعور والإدراك، وقد ثبت هذا في محله، قال بعض المفسرين في شرح هذه الآية: (هذه القلوب أشد قسوة من الصخر الصلد، لا هي تقبل الحق ولا هي ذات حياة معنوية وكمال عقلي، لا تفور من داخلها عواطف الخير ولا تجد النصيحة والحكمة والعبرة من أذنانها وعيونها سبيلاً إلى ضميرها ووجدانها الجاف والميت، ولا تحني رأسها أمام العظمة والقدرة والآيات المحسوسة، مع أن صخور الجبال الشامخة تتساقط أمام قدرة الله وقهر آياته ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٤]).

إذن فهو لاء أموات لا حياة فيهم أن قلوب هؤلاء لا تخضع أمام عظمة الحق وآياته، وليس سبب قسوة قلب هؤلاء إلى هذا الحد هو طبيعتهم، بل إن ذلك من آثار أعمالهم التي أفقدت قلوبهم القابلية التي كانت موجودة فيها وستكون نتائج أعمال أصحاب القلوب المتحجرة هؤلاء هي الضلال.

يقول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١)، ويقول ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه؛ إلا قاموا عن مثلِ حِيفَةٍ حمارٍ، وكان عليهم حَسْرَةٌ يومَ القيامةِ»^(٢)، فمن جف لسانه عن ذكر الله تشرب كل باطل ولغو وفحش، ومن ترطب لسانه بذكر الله كان بعيدا عن كل لغو وفحش.

وصنف لا يذكرون الله إلا قليلاً، فهؤلاء هم المنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، فهم يذكرون الله ولكن لا يذكرونه كثيراً، فقلة الذكر علامة من علامات النفاق وقسوة القلب، فمجالس الغفلة التي لا يذكر فيها اسم الله، ولا يصلى فيها على نبيه، فهؤلاء من الغافلين الذين كان لهم الشيطان قريباً، ﴿وَمَنْ يَعْتَسِ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وهذا الصنف موجود بكثرة عباد الله سرى النفاق في دمهم وجرى في عروقهم ونسوا ما ذُكِّروا به فقسست قلوبهم عن ذكر الله، فتشربت كل باطل وزور فأصبح غذاؤها فتسممت وماتت على ذلك.

فهو قرينه أينما ذهب في أكله وشربه ونومه وكلامه وسكوته، فلا بركة في طعامه ولا في شرابه، ولا بركة في نومه ولا كلامه ولا سكوته ولا سكونه، ولا بركة في ماله حتى لو بلغ الجبال، فهو لا يذكر الله ولا يعرفه إلا في المناسبات كعقود الزواج وعند العزاء، وإن ذكر الله في غير ذلك اتهم الذاکر بالجنون والشعوذة.

ومنهم من داوم على ذكر الله وشكره وحسن عبادته فألستهم وقلوبهم تلهج دائماً بذكر الله، وهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، نعم لقد وعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم، فكلما ذكروا الله ذكرهم الله، «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي،

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧) ومسلم بلفظ: مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يُذكر الله فيه، مثل الحيِّ والميت (٧٧٩).

(٢) صحيح الترغيب (١٥١٤).



وإن ذكرني في ملاً ذكرتة في ملاً خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١).

يقول ابن عباس: أي أن يذكر الله في الليل والنهار، في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسراء والضراء، والسر والعلانية، فالذاكرون لله عزّ وجلّ بين الغافلين بمنزلة الصابر في المعركة بين الفارين «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: ورجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(٢).

نعم عباد الله: هذا الصنف موجود هم أعوان الخير ومفتاحه، هم أهل الله وخاصته يعيشون ويقتاتون على هذا الغذاء الروحي على ذكر الله تشربت أبدانهم وشربت نفوسهم منه ولم ترتوي فاستيقظت ضمائرهم عبدوا الله حق عبادته حتى وصلوا درجة الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٣).

وهم قلة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] كيف لا يكون هذا غذاؤهم ورسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله عزّ وجلّ»^(٤).

فذكر الله عزّ وجلّ أعظم جنود الله. سئل الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما أعظم جنود الله؟ قال: «إني نظرت إلى الحديد فوجدته أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى النار فوجدتها تذيب الحديد، فقلت: النار أعظم جنود الله. ثم نظرت إلى الماء فوجدته يطفىء النار، فقلت: الماء أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى السحاب فوجدته يحمل الماء فقلت: السحاب أعظم جنود الله ثم نظرت إلى الهواء وجدته يسوق السحاب فقلت: الهواء أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى الجبال فوجدتها تعترض الهواء فقلت: الجبال أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى الإنسان فوجدته

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٨).

(٤) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧٧).



يقف على الجبال وينحتها. فقلت: الإنسان أعظم جنود الله، ثم نظرت إلى ما يُقعد الإنسان فوجدته النوم فقلت: النوم أعظم جنود الله، ثم وجدت أن ما يُذهب النوم فوجدته الهم والغم، فقلت: الهم والغم أعظم جنود الله، ثم نظرت فوجدت أن الهم والغم محلها القلب فقلت: القلب أعظم جنود الله، ووجدت هذا القلب لا يطمئن إلا بذكر الله فقلت: إن الذكر أعظم جنود الله».

فذكر الله نعمة عظيمة ومنحة كبرى، به تستجلب النعم، وبمثلته تستدفع النقم، وهو قوت القلوب، وقرّة العيون، وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح ما أشد حاجة العباد إليه، وما أعظم ضرورتهم إليه، لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال لأنه جلاء القلوب ودواؤها يقول أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: «لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء».

فإذا ترك الذكر صدىً، فإذا ذكره جلاه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

نعم عباد الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ورسول الله ﷺ يقول: «من أطاع الله عَزَّوَجَلَّ فقد ذكره وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى الله لم يذكره وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن»^(١).

فيكفيك أيها المهموم - لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين - ، قالها يونس في بطن الحوت ولو لم يقلها للبت في بطنه إلى يوم يعثون.

ويكفيك أيها الخائف أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم وهو في النار فانقلب بفضل الله من حال إلى أحسن حال.

يكفيك يا من ضاق عليك رزقك أن تقول: أستغفر الله العظيم ، فمن لازم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

(١) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٥٥٣).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:
 عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا. فقال: آله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عَزَّوَجَلَّ يباهي بكم الملائكة»^(١).

عباد الله: الذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بجَمِيلِ أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا؟ ولهذا جاء في الحديث من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أحسن ما أعطي السائلين.

ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى، والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته، وقد أخبر النبي أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه الثناء والذكر، وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجاباً.

فالدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته، وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل.

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا سَاعَةً مَرَّةً بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا!».

وقال مالك بن دينار رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: (مَا تَنَعَمَ الْمُتَنَعِّمُونَ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى).

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).



وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (إِنَّ الْعَبْدَ لِيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَيِّئَاتٍ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى).

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا بَيْتَ إِلَّا طَاهِرًا ذَاكِرًا مُسْتَغْفِرًا فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّ الْأَرْوَاحَ تُبْعَثُ عَلَى مَا قُبِضَتْ عَلَيْهِ).

قيل لأبي الدرداء: نراك لا تفر عن الذكر فكم تُسبِّح؟ قال: «مئة ألف، إلا أن تخطئ الأصابع!».

وقال أحد الصالحين: (مَا أَعْلَمُ مَعْصِيَةً أَقْبَحُ مِنْ تَرْكِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ وَأَنْفَعُهُ مَا وَاطَّأ فِيهِ الْقَلْبُ اللِّسَانَ، وَكَانَ مِنَ الْأَذْكَارِ النَّبَوِيَّةِ وَشَهِدَ تَفَكَّرَ الذَّاكِرُ مَعَانِيهِ وَمَقَاصِدَهُ).

عباد الله:

اذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، وصلوا على نبيكم كما أمركم ربكم.



التوكل على الله (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله ذلت لعزته الرقاب وخضعت، وعت لجبروته الوجوه وخشعت، لا إله إلا هو عمّت رحمته كل شيء ووسعت، أحمده سبحانه وأشكره توالّت علينا نعمائُه وكثرت، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُنجي قائلها في يوم تذهل فيه كل مُرضعة عما أرضعت.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله جاهد في الله حق جهاده حتى علت رياتُ الملة وارتفعت، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى عترته الطيبين الطاهرين إلى النسب الشريف انتسبت، وعلى أصحابه الغر الميامين صدورهم بهذا الدين انشّحت، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وسلم تسليمًا كثيرًا ما توالّت الأيام والليالي وتعاقبت.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -، فرزقكم لن يأخذه غيركم فاطمئنوا، وعملكم لن يقوم به غيركم فاشتغلوا به وجدوا، وربكم مُطلعٌ عليكم فمنه فاستحيوا، والموت آتٍ لا ريبَ فيه فله استعدوا، وكونوا - وفقكم الله - ممن أبصرَ ففهم، وفهمَ فعلم، وعلمَ فعمل.

أيها المسلمون: أسعد الخلق أعظمهم عبوديةً لله، وكلّمًا كان العبدُ أدلّ لله وأعظمَ افتقارًا إليه كان أقربَ إليه وأعظمَ قدرًا عنده وعند خلقه، والعبدُ عاجزٌ عن الاستقلالِ بجلبِ مصالحه ودفع مضارّه، محتاجٌ إلى الاستعانة بخالقه، والله سبحانه هو الصمد الغني عمّا سواه، وكلّ ما سواه فقيرٌ إليه.



وذنوبُ العباد كثيرة، ولا نجاة لهم منها إلا بمعونة الله وعفوه، وكثيرٌ من الكبائر القليبة من الرياء والكبر والحسد وترك التوكل قد يقع فيها المرء وهو لا يشعر بها، وقد يتورع عن بعض الصغائر الظاهرة وهو في غفلةٍ عن هذه العظائم.

والأسبابُ المجردة تخذل المرء عن تحقيق مُناه، وقد يطرق باباً يظنُّ أنَّ فيه نفعه فإذا هو ضررٌ محض، ولا ينجي من ذلك إلا التوكل على العزيز الرحيم؛ لذا عظم الله من شأن التوكل وجعله منزلةً من منازل الدين، وقرنه بالعبادة في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وجعله سبباً لنيل محبته ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وجعله شرطاً لحصول الإيثار به ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

مقامٌ جليلُ القدر عظيم الأثر، فريضةٌ من رب العالمين، به رضا الرحمن، وفيه منعةٌ من الشيطان، منزلته أوسع المنازل وأجمعها، أقوى السبل عند الله وأحبها، أمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

والرسل هم أئمة المتوكلين وقدوتهم، قال تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿إِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]، وقال هودٌ عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، وقال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال رسل الله لأقوامهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وفي مطلع النبوة والتنزيل أمرٌ بالتوكل وأنه يفتح المغلق ﴿اقْرَأْ رَبَّنَا الْآكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، وجعله الله صفةً لأهل الإيثار يتميزون به عن سواهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

والشيطان لا سلطان له على عباد الله المتوكلين، قال عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].



والتوكل مانعٌ من عذابِ الله كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴿ [الملك: ٢٨-٢٩]، وموجبٌ لدخولِ الجناتِ كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

بل المتوكلون حقًا يدخلون جنّة ربهم بغير حساب، كما وصفهم نبيهم بذلك في قوله: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتفون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»^(١).

وأوصى النبي ﷺ ابن عباس بالتوكل وهو غلام صغيرٌ لتأصيل العقيدة في نفسه في بكور حياته فقال له: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٢).

قال ابن القيم: (التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان وجميع أعمال الإسلام، وإن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس).

في التوكل راحة البال، واستقرارٌ في الحال، ودفعٌ كيد الأشرار، ومن أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم، وبه قطع الطمع عمًا في أيدي الناس. سيئ الإمام أحمد عن التوكل فقال: (هو قطع الاستشراف باليأس من الناس).

والتوكل على غير الله ظلم وامتهانٌ للنفس، وسؤال المخلوق للمخلوق سؤال من الفقير للفقير، قال النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(٣).

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢١٨).

(٢) صحيح الترمذي (٢٥١٦).

(٣) صحيح الترمذي (٢٥١٦).



ومتى التفت القلب إلى غير الله وكله الله إلى من التفت إليه، وصار ذليلاً مخذولاً، قال ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(١)، قال شيخ الإسلام: (ما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه).

وكل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره، وهذا معلومٌ بالاعتبار والاستقراء. ولا يحملنك عدم رجاء المخلوق على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما أنك لا تخافهم فلا ترجهم، وارح الله في الناس، ولا ترج الناس في الله.

أيها المسلمون: الأرزاق بيد الخلاق، فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان لغيرك لم تنله بقوتك، ورزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، والرزق مقسومٌ لكل أحد من بر وفاجر ومؤمن وكافر، قال عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. والرزق يساق إلى الدواب مع ضعف كثير منها وعجزها عن السعي في طلب الرزق، قال جل وعلا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت:٦٠]، وقد يسره الله لك بكسبٍ وبغير كسب.

والناس يؤتون من قلة تحقيق التوكل، ومن وقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، ولو حققوا التوكل على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق للطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوعٌ من الطلب والسعي لكنه سعيٌ سير، قال عليه الصلاة والسلام: «لو أتكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاً وتروح بطاناً» رواه أحمد.

فلا تضيع زمانك بهمك بما ضمن لك من الرزق، فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً، قال حاتم الأصم: (لما علمت أن رزقي لن يأكله غيري اطمأن قلبي).

أيها المسلمون: وقت الله للأمر أقدارها وهيأ إلى الغايات أسبابها، وأمور الدنيا وزينتها قد يدرك منها المتواني ما يفوت المثابر، ويصيب منها العاجز ما ينحط الحازم.

(١) صحيح الترمذي (٢٠٧٢).

والالتفاتُ للأسبابِ لنقصِ في التوحيد، ومحوُ الأسبابِ أن تكونَ أسبابًا نقصُ في العقيدة، والإعراضُ عن الأسبابِ التي أمر بها قدحُ في الشرع، وعلى العبدِ أن يكونَ قلبه معتمدًا على الله لا على الأسبابِ.

ونبينا محمد ﷺ أكمل المتوكلين، ولم يخلُ بالأسبابِ؛ فقد ظاهرَ بين درعين يومَ أحد، واستأجرَ دليلًا يدهُ على طريقِ الهجرة، وحفرَ الخندقَ غزوةَ الأحزاب.

وحقيقةُ التوكلِ القيامُ بالأسبابِ والاعتقادُ بالقلبِ على المسببِ، واعتقادُ أنها بيده، فإن شاء منعَ اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضيةً لضدِّ أحكامها، وإن شاء أقام لها موانعَ وصوارفَ تعارضِ اقتضاءها وتدفعه.

والموحدُ المتوكلُ لا يطمئنُ إلى الأسبابِ ولا يرجوها، كما أنه لا يهملها أو يبطلها، بل يكون قائمًا بها ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها. وإذا قويَ التوكلُ وعظم الرجاءُ أذن الله بالفرج، ترك الخليلُ زوجته هاجرَ وابنها إسماعيلَ صغيرًا رضيعًا بوادٍ لا حسيسَ فيه ولا أنيسَ ولا زرعَ حوله ولا ضرعَ توكلًا على الله وامتثالًا لأمره، فأحاطها الله بعنائه، فإذا الصغيرُ يكون نبيًا وصفه الله بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها، والماءُ المبارك زمزمَ ثمرةً من ثمارِ توكلِ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولما عظم البلاءُ بيني إسرائيلَ وتبعهم فرعونُ بجنوده وأحاطوا بهم وكان البحرُ أمامهم ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال نبيُّ الله موسى الواثق بنصر الله: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأمره الله بضربِ البحرِ فصار طريقًا يبسًا، ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

ويونسُ التقمة حوتٌ في لججِ البحرِ وظلماته، فلجأ إلى مولاه وألقى حاجته إليه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فنبذ وهو سقيم في العراء، ومضى مجردًا في الخلاء.

وأم موسى ألقَت ولدها موسى في اليمِّ ثقةً بالله امتثالًا لأمره، فإذا هو رسولٌ من أولي العزمِ المقربين.



ويعقوبُ قيل له: إنَّ ابنك أكله الذئب، ففوّض أمره إلى الله وناجاه، فردّه عليه مع أخيه بعد طول حزنٍ وفراق.

ولما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال من مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَظُمَ التَّوَكُّلُ عَلَى ذِي الْعِظَمَةِ وَالْجَلالِ، ولم يبقَ إلاَّ الإِخْلَاصُ وَالِاتِّكَالُ، فأشارت إليه، فقالوا لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، فعندها أنطقه الله فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

ونبينا مُحَمَّدٌ ﷺ يتوارى مع صاحبه عن قومه في جبلٍ أُجْرَدٍ في غارٍ فقيرٍ خوف، فبلغ الروع صاحبه، فقال: يا رسول الله، والله لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال الرسول ﷺ وهو واثقٌ بربه: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، فأنزل الله تأييده ونصره وأيده بجنودٍ لا ترى، فسكن الجأش وحصل الأمنُ وتمت الهجرة وانطلقت الرسالة.

وإذا تكالبت عليك الأيام وأحاطت بك دوائرُ الابتلاء فلا ترجُ إلا الله، وارفع أكفَّ الضراعة، وألقِ كفنك بين يدي الخلاق، وعلّق رجاءك به، وفوّض الأمر للرحيم، واقطع العلائق عن الخلائق، ونادِ العظيم، وتحرّ أوقات الإجابة كالسجود وآخر الليل.

وإذا قوي التوكل والرجاء وجمع القلب في الدعاء لم يردّ النداء، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

فسلم الأمر للملكه، والله عزيزٌ، لا يُضِلُّ من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه. وتفريجُ الكربات عند تمام الكرب، واليسر مقترنٌ بالعسر، وتعرّف على ربك في الرخاء يعرفك في الشدة، و(حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها الخليلان في الشدائد، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، ومن فوّض أمره إليه كفاه ما أهمه، ومن حقّق التوكل لم يكله إلى غيره، بل تولاه بنفسه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، فاجعل ربك وحده موضع شكواك، قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: (والله، لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً لأعطاك مولاك ما تريد).

وهو سبحانه القدير، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ نَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿

[الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، قال إبراهيم الخواص: (ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله).

ومن تعلق بغير الله أو سکن إلى علمه وعقله ودوائه وتأممه، واعتمد على حوله وقوته وكله الله إلى ذلك وخذله، قال في تيسير العزيز الحميد: (وهذا معروف بالنصوص والتجارب).

وأرجح المكاسب الثقة بكفاية الله وحسن الظن به، وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن ظن أنه ينال ما عند الله بمعصيته ومخالفته كما ينال بطاعته والتقرب إليه، أو ظن أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه، أو ظن أن من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه، أو ظن أنه إذا صدقه في التوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله فقد ظن بالله ظن السوء، ولا يسلم من هذا إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده.

قال ابن القيم: (أكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق وظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه يستحق فوق ما شاء الله له، ومن فتش في نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامناً، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿ [المزمل: ٨-٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني الله وإياكم بما فيه من الآيات والذِّكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنَّه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

أيها المسلمون: لا يستقيم توكل العبد حتى يصح توحيدَه، وعلى قدر تجريدِه التوحيدَ يكون صحّة التوكل. ومتى التفت العبد إلى غير الله أخذ ذلك شعبةً من شعب قلبه، فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة. ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالخلق لم تسد فاقته، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، والرضا ثمرة التوكل، وروح التوكل التفويض وإلقاء أمورك كلها إلى الله، يقول داود بن سليمان رَحِمَهُ اللهُ: (يستدلّ على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات)، وكلما كان العبد بالله أعرف كان توكله عليه أقوى، وقوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه.

ومن توكل على الله فلا يعجل بالفرج، فالله ذكر كفايته للمتوكل عليه، وربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل، فالله جعل لكل شيء قدراً ووقتاً، فلا يستعجل المتوكل، فيقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً!! فالله بالغ أمره، قد جعل لكل شيء قدراً، والله هو المتفرد بالاختيار والتدبير، وتديره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وهو أرحمُ به منه بنفسه.

ثم اعلّموا أن الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيّه، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم على نبينا محمد، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين...



لولا أن ربطنا على قلبها

لنكون من المؤمنين^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له قيوم السموات والأرضين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وقائد الغر المحجلين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغر الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم -إخواني- بتقوى الله تعالى والخوف منه سرًا وعلانية، فاتقوا الله -عباد الله- ما استطعتم، وتداركوا بالتوبة النصوح ما فرطتم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب ارجعوني لعلني أعمل صالحًا فيما تركت، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أيها المسلمون: إنكم حين تسعدون وتحمدون الله سبحانه أن جعلكم مسلمين وهداكم للحق المبين بحاجة أيضًا إلى سؤال الله جل في علاه أن يربط على قلوبكم لتكونوا من المؤمنين.

كم نحن بحاجة ماسة لهذا الربط الرباني، لأننا به نستطيع إكمال الطريق إلى الله جل وعلا، وقد ذكر الله امتنانه على عباده بالربط على قلوبهم في مواضع هم في غاية الشدة والخوف، وعلى وشك الانهزام النفسي والسقوط في براثن الشيطان، لولا لطف الله وعنايته في الوقت المناسب لارتدوا على أعقابهم خاسرين.

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



ثلاثة مواطن يربط الله فيها على قلب من لجأ إليه واستعان به وتوكل عليه:

الموطن الأول: عند الجهاد في سبيل الله تعالى، في معركة بدر الكبرى يحتف المشركون بالمسلمين في كثرةٍ كثرةٍ من العدد والعتاد، والقوة والبأس، وهم في ضعف إلا بالله، وقلة إلا مع الله، وخوف إلا من الله، فلما علم الله ما في قلوبهم جاء نصره لهم، وربطه على قلوبهم، وتأيدته بملائكته لتكون معهم، فيتصروا على الكافرين. قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

أيها المسلمون:

الموطن الثاني: عند قول كلمة الحق أمام من لا يقبل بها من سلطان أو غيره وهو ذو بأس وجاه وقوة، وأعظم الحق الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وعدم الشرك به سبحانه، فيدعو المؤمن بالله جل وعلا من كفر بالله وخالف أمره، فإنهم إن أرادوا أن يبطشوا به حين واجههم بالقول السديد، ونطق لهم بالحق وأخذهم بالوعد والوعيد، هنا يربط الله على قلبه ويثبتته حتى يقول بالحق وبه يعدل.

انظروا كيف نصر الله الفتية الصالحين حين أخذوا على أنفسهم أن يدعوا أقوامهم لتوحيد الله ويعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً، فلما أراد الكفار أن يبطشوا بهم ويقتلوهم وينكلوا بهم حماهم الله وحفظهم وربط على قلوبهم حتى لا يفتنوا فينكبوا على وجوههم كافرين. قال تعالى: ﴿وَرَبَّيْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

لما فتح عبد الله بن علي دمشق ذكر أنه قتل في يوم واحد ستاً وثلاثين ألفاً من المسلمين، وأدخل بغاله وخيوله في المسجد الأموي الجامع الكبير، ثم جلس للناس وقال للوزراء: (هل يعارضني أحد؟ قالوا: لا، قال: هل ترون أحداً سوف يعترض علي؟ قالوا: إن كان فالأوزاعي والأوزاعي محدث الشام وعالمها، أمير المؤمنين في الحديث، أبو عمرو، كان زاهداً عابداً، من رواة البخاري ومسلم. قال: فأتوني به، فذهب الجنود للأوزاعي فما تحرك من مكانه، قالوا: يُريدك عبد الله بن علي، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، انتظروني قليلاً، فذهب



لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين

فاغتسل، ولبس أكفانه تحت الثياب؛ لأنه يعرف أن المسألة موت أحمر ودماء. ثم قال لنفسه: الآن أن لك يا أوزاعي أن تقول كلمة الحق، لا تخشى في الله لومة لائم. فدخل على هذا السلطان الجبار، قال الأوزاعي وهو يصف القصة: فدخلت فإذا أساطين من الجنود صفان قد سلُّوا السيوف، فدخلت من تحت السيوف؛ حتى بلغت إليه، وقد جلس على سرير، ويده خيزران، وقد انعقد جبينه عقدة من الغضب، قال: فلما رأيته، والله الذي لا إله إلا هو كأنه أمامي ذباب، قال: فما تذكرت أحدًا، لا أهلاً، ولا مالاً، ولا زوجة، وإنما تذكرت عرش الرحمن إذا برز للناس يوم الحساب، قال: فرفع بصره وقال: يا أوزاعي، ما تقول في الدماء التي أرقناها؟ قال الأوزاعي: حدثنا فلان، قال: حدثنا ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الثِّبْتُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١)، فإن كان من قتلهم من هؤلاء فقد أصبت، وإن لم يكونوا منهم فدماءؤهم في عنقك. قال: فنكت بالخيزران ورفعت رأسي أنتظر السيف، ورأيت من حوله يستجمعون ثيابهم ويرفعونها عن الدم. قال: وما رأيك في الأموال التي أخذناها؟ قال الأوزاعي: إن كانت حلالاً فحساب، وإن كانت حراماً فعقاب! قال: خذ هذه البدرية كيس مملوء من الذهب، قال الأوزاعي: لا أريد المال، قال: فغمزني أحد الوزراء، يعني خذها، لأنه يريد أدنى علة ليقتل، قال: فأخذ الكيس ووزَّعه على الجنود وهو يخرج، حتى بقي الكيس فارغاً، فرمى به وخرج، فلما خرج قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قلناها يوم دخلنا وقلناها يوم خرجنا. ﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

بارك الله لي ولكم في الكتاب والسنة، ونفعنا بما فيها من البنات والحكمة،
أقول قولي هذا...

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد: أيها المسلمون:

والموطن الثالث من مواطن الربط على القلب: عند المصائب والابتلاءات.

فإن البلاء لا يزال بالموءمن يأتيه ويصاب منه حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة، إلا أن هذه المصائب قد تهز إيمان المرء وتفرغ قلبه من كل شيء، فيحتاج حينها إلى عون الله وتوفيقه أن يثبتته عند المصيبة ويربط على قلبه ليكون المؤمن.

أوحى الله إلى أم موسى عَلَيْهَا السَّلَامُ حينما كان رضيعاً إذا خافت عليه من بطش فرعون وجنوده أن ترميه في البحر، ووعدها أن يرده إليها، إلا أن الحبل المربوط بسرير موسى انقطع وسار إلى قصر فرعون وأخذه آل فرعون، ففزعت أم موسى وخافت أن يقع به ما وقع لبني إسرائيل من القتل والتنكيل، فأصبح فؤادها كما أخبر الله فارغاً من أي شيء إلا من التفكير في موسى وكيف تسترجعه من جديد، حتى إنها همت أن تذهب لقصر فرعون فتخبرهم أنه ابنها لولا أن ربط الله على قلبها وثبتها على الحق حتى تمضي حكمة الله ولتكون من المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

إن الإنسان قد يظن نفسه قوياً فإذا جاءته المصائب ضعف وتسخط على الله واعترض على أقداره المؤلمة، فإذا تقوى بالذكر وتحلى بالصبر ربط الله على قلبه ليكون المؤمن.

إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أوقد قومه له النار وأرادوا قذفه بها قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وصبر، فأنجاه الله منها، ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما اجتمع عليهم الأحزاب قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم.



لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين

إن صفة الثبات على الإسلام والاستمرار على منهج الحق نعمة عظيمة حبا الله بها أوليائه وصفوة خلقه، وامتن عليهم بها، فقال مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنَّاتِكُ لَفَدَكِدْتِ تَرَكْنِ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

عباد الله:

إن من أعظم وسائل الثبات: تلاوة القرآن وتدبره والعمل به، إن من حق القرآن علينا أن نتدبر معانيه، وأن نفهم مقاصده ذلك أن القرآن هو كتاب الله الخالد، ومعجزة رسوله الباقية، ونعمته السابغة، وحكمته الدامغة، وهو ينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، أنزله الله على رسوله ﷺ لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً، ونسعد به تذكراً، ونجتهد في إقامة أوامره ونواهيه، وعلماً تزداد البصائر فيه تأملاً فيزيدها هداية وثباتاً وتبصراً. قال تعالى: ﴿شَطِطِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ﴾ [ص: ٢٩].

لقد أنزل الله القرآن ليكون بشيراً ونذيراً، وهداياً إلى ما ارتضى له من دينه، فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحملة، يبين فيه سبحانه أن حجته كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها أو حجة تتلوها، والقرآن الكريم وسيلة التثبيت الأولى للمؤمنين، ولقد أنزل الله القرآن العظيم منجماً مفصلاً، وجعل الغاية منه هي التثبيت لقلب النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

أيها الإخوة الكرام: كونوا مع الله في الرخاء يكن معكم في الشدة والبلاء، إن العبد ما اعتصم بالله لو كادته السموات والأرض جعل الله له من بينها فرجاً وخرجاً. ألا وصلوا وسلموا على البشير النذير والسراج المنير.



الرضا بما قسم الله (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله الكريم الفتح، أحمده سبحانه فالتق الحب والنوى والإصباح، وأشكره على نعم تتجدد في الغدو والرواح، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة هي للجنة مفتاح، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله بين لأمته سبيل الفلاح، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ذوي الجود والكرم والسماح، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما سجي ليل وأشرق صباح، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عزوجل، فاتقوا الله وأطيعوه، واستقيموا إليه واستغفروه.

أيها المسلمون: هدف منشود إذا فقد الإنسان فإنه لا يستقر على حال، ولا يسكن إلى قرار، وغاية مبتغاه بدونها صاحبها قلق متبرم، مضطرب حائر، وأمنية متمناه إذا لم يحققها طالبها فهو أشبه بحيوان شرس، أو سبع مفترس، والمجتمع بدونها كذلك مجتمع غابة من غير غاية ولو لمعت فيه بوارق حضارة أو أثاره تقدم، المقاييس فيه للأشد والأقوى وليس للأصلح والأتقى.

هدف وغاية وأمنية يطلبها كثيرون في غير موضعها، ويتطلبها متطلبون من غير مظاهرها، جربوا ألواناً من المتع وصنوفاً من الشهوات فما وجدوها، حسبها قوم في الغنى ورغد العيش، وظنّها آخرون في الجاه والمقام العريض، واعتقدتها فئات في حسن العلوم والمعارف، خاص



في البحث عنها العلماء والفلاسفة، والأغنياء والفقراء، والملوك والوجهاء، إنها -يا عباد الله-: السعادة والطمأنينة والرضا والسكينة.

ما أعظم الفرق بين رجلين أحدهما عرف الغاية وطريقها فاطمأن واستراح، وآخر ضالٌ يخبُطُ في عماية، ويمشي إلى غير غاية، لا يدري كيف المسير، ولا إلى أين المصير؟! ﴿أَفَن يَمشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المك: ٢٢].

كم من صاحب مالٍ وفير، وخيرٍ كثير، تجلَّى رضاهُ وطمأننته وقناعته في تحرِّي الحلال وأداء حقِّ الله فرضاً وندباً، أعطى الأجير أجره، ولم يذُل نفسه من أجل مالٍ أو جاهٍ.

وآخرٌ عنده ما يكفيه، ولكن قد ملاً الطمع قلبه، وانتشر التسخطُ بين جوانحه، حتى أدخله مداخل الشبهات والرَّيب، فهو جزعٌ من رزقه، مُتسخطٌ على رازقه، يَبُثُّ شكواه إلى المخلوقين: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

معاشر الأجابة: الرضا نعمةٌ عظيمةٌ، يبلغها العبدُ بقوَّة إيمانه برَّبِّه وحُسن اتِّصاله به، ينالها بالصبر والذكر والشكر وحُسن العبادة، وقد خاطبَ الله نبيَّه محمداً ﷺ بقوله: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

الرضا -أيها الإخوة- بابُ الله الأعظم، وجنةُ الدنيا، ومُستراحُ العارفين، وحياةُ المحيِّين، ونعيمُ العابدين، وقرَّةُ عيون المُشتاقين.

الرضا سرُّ السعادة، وطريقُ السكينة، وجادَّةُ الطمأنينة. الرضا شجرةٌ منبتها النفس.

أيها الناس: ضمن سلسلة من مكارم الأخلاق، هناك وصيةٌ جليلةٌ من أعظم وصايا رسول الله ﷺ، تتعلق بأمور غاية في الأهمية من امتثلها استحق حقيقة الوصف بالعابد لله المخلص في عبادته، ذلك في قوله ﷺ في وصاياه لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ عَبْدًا



النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحَبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ» (١).

وستتناول وصية من الوصايا التي اشتمل عليها هذا الحديث البديع، تتعلق بقول النبي ﷺ: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ».

والرضا خلاف السُّخْطِ / السَّخَطِ، كما في الدعاء الذي علمناه رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ» (٢). وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» (٣).

وعرّفوه اصطلاحًا بقولهم: (سكون القلب إلى اختيار الرب). وقيل: (سرور القلب بِمُرّ القضاء). وقيل: (هو: استقبال الأحكام بالفرح). وقيل: (ارتفاع الجَزَعِ في أي حكم كان).

وليس الرضا هو الاستسلام، لأن الاستسلام هو الانهزام وعدم بذل الجهد لتحقيق الهدف، أما الرضا فهو استفراغك الوسع في تحقيق الهدف، لكن لم توفق إليه، فترضى بما قسم الله لك من غير جزع، أو ضجر، أو سخط، كالذي تزوج ولم يرزق الولد، والذي أصيب بمرض لم يستطع دفعه، والذي ابتلاه الله بالفقر وضيق ذات اليد، فاجتهد في تحصيل الغنى فلم يوفق. هنا يأتي التحلي بصفة الرضا بما كتبه الله وقدره، فتحيل القلب إلى سرور دائم، وتشعر النفس بنعيم مقيم. قال عبد الواحد بن زيد: (الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وسراج العابدين).

وقال أبو عبد الله البرّائي: (من وُهب له الرضا، فقد بلغ أقصى الدرجات).

فالرضا هو قبول حكم الله في السراء والضراء، والعلم أن ما قسمه الله هو الخير كله. قال الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَتَكَلَّ عَلَى حَسَنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ تَعَالَى، لَمْ يَتَمَنَّ غَيْرَ مَا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ».

(١) الترمذي وحسنه الألباني (٢٣٠٥).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٩٦).



وقال أبو عثمان الحيري: (منذ أربعين سنة، ما أقامني الله في حال فكرهته، وما نقلني إلى غيره فسخطته).

وهذا الفهم السليم للرضا هو الذي يهون المصاب، ويخفف وطأة الرُزء، ويضعف سورة الخطب.

قال علقمة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قال: (هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله عزَّوَجَلَّ، فيسلم لها ويرضى).

وقال عامر بن قيس: (أحبتُّ الله حبًّا هَوَّنَ عَلَيَّ كُلَّ مَصِيبَةٍ، ورضَّاني بكلِّ بليَّةٍ، فلا أبالي مع حبي إياه علامٌ أصبحت، وعلامٌ أمسيت).

عند ذلك يستوي عند المسلم حال الفقر وحال الغنى.

قال ابن عون: (لن يصيب العبدُ حقيقة الرضا، حتى يكون رضاه عند الفقر كرضاه عند الغنى).

فهل تعلم -يا عبد الله- أن الأرزاق بيد الله مقسومة، ومقاديرها عند الله معلومة محسومة، وأن الفقر قد يكون أفضل لك من الغنى؛ قال السفاريني: (فمن عباده من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه لفسد عليه دينه. ومنهم من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقره لفسد عليه دينه، فمهما قسمه لك من ذلك فكن به راضيًا مطمئنًا، لا ساخطًا ولا متلونًا، فإنه -جل شأنه- أشفق من الوالدة على ولدها). يقول الرسول ﷺ: «إن الله تعالى قسَّم بينكم أخلاقكم، كما قسَّم بينكم أرزاقكم، وإن الله تعالى يُعطي المال من أحبِّ ومن لا يُحبِّ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحبِّ»^(١).

إن الأرزاق مكفولة، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فكيف يتبغي بعض الناس الزيادة بالطرق الحرام، أو بالاعتداء على الأبرياء بسرقة أموالهم، أو التحايل على ما في أيديهم، أو ظلمهم والاعتداء عليهم، أو إشهار السلاح في وجوههم، أو قطع طريقتهم، مما

(١) السلسلة الصحيحة (٢٧١٤).

أصبحنا نسمع به في الصباح والمساء؟! يقول النبي ﷺ: «ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته»^(١).

وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(٢).

اقنع برزق يسير أنت نائله واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص ولا تكسدر إلا بالزيادات

ها هو رسول الله ﷺ سيد البشر، ومجتبى رب العالمين، عاش من ألوان الفاقة والحاجة ما قد لا يقدر عليه غيره، فواجهها بالرضا والقناعة.

وصف عمر بن الخطاب أثاث بيت رسول الله ﷺ فقال: «وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لَيْفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَطًا مَصْبُوبًا - وورق شجر يدبغ به مسكوباً -، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهْبٌ مُعَلَّقَةٌ - جلود غير مدبوغة -، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟! . فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ كِسْرِي وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؟! . فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ هُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟!»^(٣).

ولقد بشر رسول الله ﷺ المبتلين بالفقر والضيقة والحاجة أنهم أسبق إلى الجنة من غيرهم، فقال: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وفي رواية: «بأربعين خريفاً»^(٤).

بل تعظم البشارة حين نعلم أنهم يدخلون الجنة بغير حساب؛ قال رسول الله ﷺ: «إذا أدى العبد حق الله، وحق مواليه، كان له أجران». قال: فحدثتها كعباً، فقال كعب: «ليس عليه حساب، ولا على مؤمن مؤهد - قليل المال -»^(٥).

إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كل ما فوق البسيطة كافيًا وإذا قنعت فبعض شيء كافي

(١) صحيح الترغيب (١٧٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩١٣).

(٤) صحيح الترمذي (٢٣٥٣).

(٥) رواه مسلم (١٦٦٦).



الخطبة الثانية:

الحمد لله المحمود على كل حال وفي كل حال، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يليق بما له من العظمة والجلال، وأشكره جزيل الشكر على ما أنعم من الإكرام والإفضال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو الكبير المتعال.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله أكرمته ربّه بالنبوة والإرسال، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه خير صحبٍ وآل، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

معاشر المسلمين: إن تحقيق صفة الرضا يقتضي إجمالة النظر في أحوال الناس الآخرين، لتعلم مقدار نعم الله عليك، التي قد يغبطك عليها الملايين من البشر، فقط أغمض عينيك قليلاً وحاول المشي، لتعرف قدر نعمة النظر!

لقد فَضَّلَكَ اللهُ على كثير من المبتلين، وعصمك من كثير من الأكدار، والأسقام، والأوجاع؛ يقول النبي ﷺ: «من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، لم يصبه ذلك البلاء»^(١).

وليس شرط الرضا أن لا يُحسَّ السعيد بالألم والمكاره؛ بل المطلوب أن لا يعترض على مجاري الأقدار، ولا يتسخط من الحوادث والنوازل؛ فهو راضٍ كرضا المريض بشرب الدواء المر؛ لأنه يعلم العاقبة ويرجو العافية. فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «ما ابتليت ببليّة إلا كان لله عليّ فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أُحرم الرضا، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ رجوت الثواب عليها».

أيها المسلمون: السعادة والرّضا إيمانٌ بالله وبرسوله، ورضا نفسٍ وانسراح صدرٍ، المؤمن يغمره الرضا؛ لأنه عميق الإدراك لفضل الله العميم، وإحسانه العظيم، إحساسه بنعم الله في نفسه وهي نعم لا يحصيها في سمعه وبصره ويده وقدمه ومُحّه وعظمه، وطعامه وشرابه، ونومه ويقظته، وأهله وفي شأنه كلّ.

(١) صحيح الترمذي (٣٤٣٢).



يا عبد الله: السعادة والرّضا ليس بوفرة المال، ولا عِظَم الجاه، ولا كثرة الولد، ولا بِنَيْل المتع والمنافع، الرّضا يُحَدُّ من ثورة الحرص والطمع، وطُغيان الشراهة والجشع، ويُرَشِّدُ الأخذ بالأسباب: (اتقوا الله، وأجملوا في الطلب). فالغنى ليس بكثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس.

الرّضا يُوقِفُ الرّاضي عند حُدود قُدراته ومواهبه، ويُبَصِّرُهُ بأقدار الله، فلا يتمنى ما لا يتيسر له، ولا يتطلّع إلى ما لا يستطيع؛ فالشيخ لا يتمنى أن يكون شاباً، وغير الجميل لا يتطلّع إلى أن يكون جميلاً: ﴿وَلَا تَنَّمَوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

يقول عطاء: (الرّضا سُكون القلب باختيار الله للعبد، وأن ما اختاره الله له هو الأحسن فيرضى به). وسئل أبو عثمان البيكندي عن الرضا فقال: (من لم يندم على ما فات من الدنيا ولم يتأسف عليها). وقال بعض الحكماء: (من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد).

ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارض بما قسم الله تكن أغنى الناس، واجتنب محارم الله تكن أروع الناس، وأد ما فرض الله تكن أعبد الناس».

وقيل للحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الفرُّ أحبُّ إليَّ من الغنى، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة». فقال الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (رحم الله أبا ذر! أما أنا فأقول: من اتكل على حُسن اختيار الله لم يتمنَّ غير ما اختار الله له).

عباد الله: الرضى والسعادة ينبوعٌ يتفجّر من القلب والنفس الكريمة الرّاقية التّقيّة الطاهرة، نفسٌ سعيدةٌ أينما حلّت في السوق أو في الدُّور، في البراري أو بين الصُّخور، في الأنس والوحشة، في المجتمع وفي العزلة؛ فمن أراد السعادة فليسال عنها نفسه التي بين جنبيه.

فلا تطمع -رحمك الله-، ولا تهلع ولا تجزع، ولا تُفكّر فيما لا وصول إليه، ولا تحتقر من فضلك الله عليه، واعلم أن كلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر، والله أعلم بشؤون خلقه يُعزُّ ويذلُّ، ويرفع ويضع، ويُعطي ويمنع، فهو الذي أغنى وأقنى، وأضحك وأبكى؛ فمن رضي طاب عيشه، ومن تسخط طال طيشه.



المؤمن وحده هو الذي يغمُرُه الإحساسُ بالرضا بكل قدرٍ من أقدار الله؛ فهو مؤمنٌ أن تديرَ الله أفضلَ من تديره لنفسه. المؤمنُ يملأُ الرضا جوانحه؛ لأنه يعلمُ أن الخيرَ بيدي ربه، والشر في هذه الدنيا لا يُناقِضُ الخيرَ ولا يُعارضُه؛ بل قضت سنة الله أن لا يكون صبرٌ إلا مع شكرٍ، ولا كرمٌ من غير حاجةٍ، ولا شجاعةٌ من غير مخاطرةٍ؛ فالفضائلُ والخيراتُ لا تظهرُ إلا بأضدادها، فالشُّبُعُ مع الجُوعِ، والرِّيُّ مع الظَّمِّ، والدَّفءُ مع البَرْدِ، وما عرفه المؤمنُ من حكمةِ الله في خلقه وأسرارِ كونه وآياته فهو بفضلِ الله، وما خفيَ سلّمه لربه العليمُ الخبيرُ.

المؤمنُ المُطمئنُّ الراضي يلهجُ بذكرِ الله، ويستشعرُ نعمَ الله: (الحمدُ لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا، وجعلنا مُسلمين). (الحمدُ لله الذي كساني هذا ورزقنيهِ من غيرِ حولٍ مني ولا قُوَّةٍ). و(الحمدُ لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور). (الحمدُ لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني). (اللهم إني أصبَحْتُ منك في نعمةٍ وعافيةٍ وسِتْرٍ، فأتمَّ عليَّ نعمتكَ وعافيتك وسِتْرَكَ في الدنيا والآخرة). (اللهم ما أصبَحَ بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقكَ فمنك وحدك لا شريكَ لك، فلك الحمدُ ولك الشكرُ). فالحمدُ لله رب العالمين، والحمدُ لله على كل حال.

هذا هو المؤمنُ، يغمُرُه الرضا والطمأنينة والسعادة في كل حينٍ، وعلى كل حالٍ، مُتعلِّقٌ بربه، راضٍ عنه، مُطمئنٌّ إليه، يتلقَى ويتقبَّلُ أقدارَ الله في نعمائها وبأسائها، والدنيا وتقلباتها في إقبالها وفي إدمارها، ويعلمُ علمَ اليقين أن الله يُريدُ بعباده اليُسْرَ ولا يُريدُ بهم العُسْرَ: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

المؤمنُ الراضي السعيدُ مُوقِنٌ أن الله معه؛ فهو في معيةِ الله يحفظُه ويكلؤه، (أنا عند ظنِّ عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني)، ﴿لَا تَحْزَنْ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. إن شعورَ المؤمنِ بمعيةِ الله يجعلُه في أُنسٍ دائمٍ ونعيمٍ موصولٍ.

رضيت بما قسم الله لي كما أحسن الله فيما مضى
وفوضت أمري إلى خالقي كذلك يُحسن فيما بقي



المنجيات والمهلكات

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا تجد له ولياً مرشداً، اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، فأهل أنت أن تحمد، وأهل أنت أن تعبد، وأنت على كل شيء قدير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا حياة إلا في رضاه، ولا صلاح إلا في هداه، شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالإلهية كل مصنوعاته، تسبح له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحار وحياتها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وأشهد أن نبينا وقودتنا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله، الرحمة المهتدة، والنعمة المسداة، عليه من ربه أزكى سلام وأفضل صلاة، ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه.

أما بعد:

فأوصيكم -عباد الله- ونفسي بتقوى الله، فإنها وصيته سبحانه للأولين والآخرين من عباده، فنعم الموصي ونعم الموصى ونعمت الوصية.

بتقوى الله يتحقق تاج السعادة، وفي ظلها ينال وسام السيادة، وعلى ضوء سناها تحصل الريادة، ومن ذرى عليائها تنطلق دفة القيادة قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ [الحديد: ٢٨].



عباد الله: يقول نبينا ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر؛ وأما المهلكات: فشحُّ مطاع، وهوى مُتَّبِع، وإعجاب المرء بنفسه» رواه البيهقي وحسنه الألباني. هذه المنجيات الثلاث التي كان النبي ﷺ يسألها ربه فيقول: «اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر»^(١).

ذكر في الحديث ثلاثة أمراض مهلكة، وبإزائها ثلاثة علاجات لهذه الأمراض، فخشية الله مقابلة لاتباع الهوى؛ لأنها تمنعه، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وذكر القصد في الغنى والفقر بإزاء الشح المطاع، وذكر كلمة الحق في الغضب والرضا بإزاء إعجاب المرء بنفسه.

إن تقوى الله وخشيته بالسر والعلانية ملاك الأمور، فيها مراقبة العلام على الدوام، والاستحياء منه سبحانه وتعالى؛ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، أي: ينجيه من كل كرب، ولو كانت السموات والأرض رتقاً على عبد فاتفق الله؛ لجعل له من بينهما مخرجاً. وهكذا جعل الله للمهاجرين الفرج، وجعل لأم إسماعيل الفرج، وجاء بالفرج لعباده الثلاثة في الغار، وكذلك نجى جريجاً بعدما شفى أيوب، ولا يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم، قال إسحاق الغزواني: (زحف إلينا أزد مهر - من قادة الفرس - عند مدينة الكيرج في ثمانين فيلاً، فكادت تنفض الخيول والصفوف - يعني: صفوف المسلمين -).

فكرب لذلك محمد بن القاسم - قائد المسلمين -، فنادى عمران بن النعمان أهل حمص وأمرأ الأجناد فنهضوا، فما استطاعوا، فلما أعيته الأمور نادى مراراً: لا حول ولا قوة إلا بالله! فكف الله الفيلة، وسلط عليها الحر، ففرغت إلى الماء، وتركت الساحة، فحملت خيل المسلمين، وكان الفتح بإذن الله).

(١) صحيح النسائي للألباني (١٣٠٤).



فمهما كان عند العدو من عدد وُعدِد فإن المسلمين إذا اتقوا الله ذهب الله بسلاح الكفار، وجعل الدائرة عليهم؛ المؤمن على خير، ترحب به الأرض، وتستبشر به السماء، ولن يساء إليه في بطنها إذا أحسن على ظهرها؛ يا عبد الله! لن يساء إليك في بطنها إذا أحسنت على ظهرها. والقول بالحق في الرضا والسخط، يعني: أن نقول الحق في الغضب، في الرضا، على نفسك، على قريبك، أين ما كنت؛ وهكذا يقول الحق ولا يبالي، الإسلام يربي المسلم على هذا المبدأ؛ لأن قول الحق مهم، إذا لم يقل الإنسان بالحق خفي الحق، وظهر الظلم، وانحسر العدل، وذهبت الحقوق، وضاعت الأمور.

فلا بد أن يُربي الإنسان نفسه على قول الحق، وأن نربي أولادنا من الصغر على قول الحق، ولذلك لو أنك سألت ولدك من كسر كذا؟ فصدق معك، وقال: أنا، ربما تكون عدم معاقبته مكافأة على صدقه؛ فيتعود الصدق، بينما لو عاقبته مباشرة - هذه قضية تنشأ من الصغر - يا عباد الله - وهذا القول بالحق عزيز؛ لأن النفس تدعو إلى قول الباطل؛ لتحصل على ما ليس لها.

كان الصحابة قوالين بالحق، حتى عندما يُظلم الواحد منهم لا يتعدى في الانتصار؛ لما جاء رجل إلى عمر وافترى على سعد وقال: إن سعدًا لا يسير بالسرية - يعني: تارك الجهاد في سبيل الله -، ولا يقسم بالسوية - يعني: هو أمير علينا لا يعدل -، ولا يعدل في القضية. فقال سعد: «أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا - بالاحتياط في الدعاء، بعض الناس إذا أراد أن يدعو على شخص أسرف وفجر - قال: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة؛ فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن». فكان هذا الرجل بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد، يتعرض للجواري بالطرقات وقد سقط حاجباه على عينيه من كبر السن، هكذا ينظر إليه الناس.

عباد الله: ومن الواجب قول الحق ولو كان في الأعداء؛ لما بعث النبي عليه - الصلاة والسلام - عبد الله بن رواحه إلى خيبر يخرص عليهم - اليهود أبقاهم في خيبر يعملون على شيء والباقي للمسلمين -، فبعث الله بن رواحه يحسب الآن ثمار الأشجار، جعلوا له حليًا من حلي نسائهم رشوة، فقالوا له: هذا لك، وخفف عنا، وتجاوز في القسم، فقال لهم: «يا معشر



اليهود، أنتم أبغض الخلق إليّ، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم» - يعني: أنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، ولكن لا يحملني بغضي لكم على أن أجور عليكم-، قالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

أثنى الله تعالى على أنبيائه: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، قوة في تنفيذ الحق: أولي الأيدي، وبصيرة في الدين.

والحديث يقول ثالثاً: «القصدي في الغنى والفقير»، بعض الناس إذا جاءه المال أسرف، وإذا قل عنده بخل، ما عنده ميزان ولا ميزانية، قال: (والقصدي في الغنى والفقير)، حسن تدبير، قوة عقل، اقتصاد، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وهكذا كان الاقتصاد من النبوة، (كفى بالمرء سرفاً أن يشتري كل ما اشتهى)، كما قال عمر: أكلمنا اشتهيت اشتريت؟ ولذلك قال العلماء: الاقتصاد خلق محمود، يتولد من خلقين: العدل والحكمة، فبالعدل يعتدل، وبالحكمة يضع الأشياء في مواضعها؛ فالإمساك في موضع الإنفاق مذموم، والإنفاق في موضع الإمساك مذموم، مثال على الإنفاق في موضع الإمساك: الإنفاق في المحرمات، لا تنفق ولا ريباً.

قال: (وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)، الشح: منع الحقوق، الشح: يشمل البخل، لكن الشح أسوأ من البخل، كيف؟ يقول عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الشح أشد من البخل، الشحيح يشح على ما في يديه فيحبسه، وهذا يفعله البخيل، ويشح على ما في أيدي الناس حتى يأخذه».

ففي هذا يفوق الشحيح البخيل سوءاً، فهو يأخذ ما في أيدي الناس، يأخذ حقوق الناس، ويمنعهم حقوقهم. هكذا إذا: (شحاً مطاعاً)، خصلة ذميمة، خلة شنيعة، شدة الحرص توجب البخل والظلم، ومنع الخير، بل وكرهية الخير.



والنبي عليه الصلاة والسلام قال لنا: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج»^(١)؛ وقال: «لا يجتمع الشح والإيمان في جوف عبد»^(٢)؛ و«شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع»^(٣).

من القصص التي فيها عبرة فيما جاء عن سلفنا: دخل الحسن البصري على رجل يعوده في مرضه، فرآه يصوب بصره في صندوق في بيته ويصعده؛ ثم قال الرجل للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤدِّ فيها زكاة، ولم أصل منها رحماً؟ قال: (ثكلتك أمك! ولمن كنت تجمعها؟! قال: لروعة الزمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشييرة.

ثم مات الرجل، فشده الحسن، فلما فرغ من دفنه قال: انظروا إلى هذا المسكين أتاه شيطانه، فحذره روعة زمانه، وجفوة سلطانه، ومكاثرة عشيرته عما رزقه الله إياه، وغمره فيه، انظروا كيف خرج منها مسلوباً محزوناً!).

ثم التفت إلى الوارث -السلف يوصون الورثة في المقبرة- وقال له: (أيها الوارث، لا تخدعن كما خُدع صويحبك بالأمس، أتاك هذا المال حلالاً -يعني: من طريق الميراث-، فلا يكونن عليك وبالأل، أتاك عفواً صفوفاً ممن كان له جموعاً منوعاً من باطل جمعه، وحق منعه؛ قطع فيه لجج البحار، ومفاوز القفار، لم تكدح أنت فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين، إن يوم القيامة يوم ذو حسرات، وإن من أعظم الحسرات غداً أن ترى مالك في ميزان غيرك! فيالها من عشرة لا تُقال، وتوبة لا تُنال!).

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، نسألك نعيماً لا ينفد، وقرّة عين لا تنقطع، ونسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيناً بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٦٠٣٧) ومسلم (١٥٧).

(٢) صحيح النسائي (٣١١٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٥١١) وصححه الألباني.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين؛ أشهد أن لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

عباد الله: ينبغي على المسلم أن يكون كريماً بخلقه، كريماً بهاله، كريماً بجاهه، كريماً بعلمه، يقدم ولا يسأل الناس شيئاً، وسيبقى البخل وصمة عار، وإمساك الحقوق مسبة.

هذا الشح يورث قطيعة الرحم، والظلم، والبغي، والعدوان، ويجرئ على المعاصي، ويغضب الرحمن، ويهلك الإنسان، «إياكم والشح، فإنما أهلك من قبلكم الشح»^(١)؛ ويورث الشح منع الحقوق، والبخل من الشح، قالت أم البنين -أخت عمر بن عبد العزيز-: (أفّ للبخل! والله لو كان طريقاً ما سلكته، وثوباً ما لبسته).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، عبد الرحمن بن عوف كان يُكثر من الدعاء في الطواف: «اللهم قني شح نفسي». فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا! قال: «إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة».

وذكر بعض أهل العلم: أن جماعة من المحدثين منهم أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وحبيش بن مبشر الثقفي جلسوا يوماً فأجمعوا أنهم لا يعرفون رجلاً صالحاً بخيلاً، فلا بد أن يكون البخل يورث الفسق، ويورث الفساد، والذي لا يُعطي سيبقى هذا عاراً عليه.

قال الشاعر:

أَمِنْ دَارِ الْكِلَابِ تَرَوْمْ عَظْمًا؟ لَقَدْ حَدَّثَتْ نَفْسَكَ بِالْمُحَالِ!

وقال عمرو بن الأهتم يدعو زوجته أن تترك لومه في بذله وكرمه:

ذَرِينِي فَإِنَّ الْبُخْلَ يَا أُمَّ هَيْثَمٍ عَلَى الْحَسْبِ الْعَالِي الرِّفِيعِ شَفُوقُ
وَمُسْتَنْبِحِ بَعْدَ الْهُدُوءِ دَعْوَتُهُ
لِصَالِحِ أَخْلَاقِ الرَّجَالِ سَرُوقُ
وَقَدْ حَانَ مِنْ نَجْمِ الشَّتَاءِ خُفُوقُ

(١) رواه أبو داود (١٦٩٨) وصححه الألباني.

فقال الزوجة الصالحة - وهذا أثر أهل البيت في تثبيت الإنسان على خير في نفسه:-
 فقلْتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَيِّتٌ صَالِحٌ وَعَبْوُوقُ
 لَعْمَرُكَ مَا ضَاقَتْ بِبِلَادٍ بِأَهْلِهَا وَلَكِنَّ أَحْلَاقَ الرَّجَالِ تَضِيقُ

الهوى المتبع خطير جداً، الهوى ما تميل إليه النفس، الهوى يهوي بصاحبه في النار، الهوى يُتَّبَع، يجذب، ولكن يسحب إلى الدركات، صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، إذا تكلم فبهواه، وإذا صمت فبهواه، وإذا أعطى فلهواه، وإذا منع فلهواه، يعيش لهواه، يُعميه ويصميه.

إن المأسور من أسره هواه، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فأنت اليوم ترى أصحاب العلاقات على الشبكات وفي الاتصالات يتبعون الهوى، فهذا يصاحب امرأة، والله قال: ﴿عَيْرٌ مُسْتَفْحِتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، غير مسافحين ولا متخذي أخدان.

لقد دخل الهوى في العلاقات الشخصية، فصرت ترى المحادثات والمكالمات والعلاقات مبنية على الهوى، يستجريهم الهوى، يتقاذفهم الهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

في البدع والضلالات الهوى، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍو حَتَّمَ عَلَىٰ سَعْيِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الحاشية: ٢٣]، وهكذا الذين يتيحون المجال للهوى أن يتلاعب بهم. أهل البدع حذر السلف من مجالستهم، لا تجالسوا أهل الأهواء، الهوى يجذب، ولكن الذي يمنع نفسه من الهوى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قالوا: إن شخصاً كان يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة، فمشى إلى جانبها ثم قال:
 أَهْوَى هَوَى الدِّينِ وَاللَّذَاتُ تُعْجِبُنِي فكيف لي بهوى اللذات والدِّين؟

نريد أن نجتمع بين المتناقضات، نجتمع بين الصلاة في المسجد ورؤية الأفلام الإباحية!
 نريد أن نجتمع بين الأدعية والاستغفار وقراءة القرآن وإقامة العلاقات المحرمة، ونريد أن نجتمع بين الصدقات والزكاة وبين الربا!.

أَهْوَى هَوَى الدِّينِ وَاللَّذَاتُ تُعْجِبُنِي فكيف لي بهوى اللذات والدِّين؟



أنا أطوف حول الكعبة وأنظر إلى النساء الأجنبية، فكيف لي بهوى اللذات والدين؟! فقالت المرأة: دع أحدهما تنل الآخر. لا مجال للجمع بين النقيضين، دع أحدهما تنل الآخر. الذي يُفكر بالجمع بين نقيضين لا يمكن، يكذب على نفسه، يكذب على الله قبل ذلك. وإذا تأملت حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كل واحد منهم خالف هواه، فنال تلك الرتبة.

قوله في الحديث: «وإعجاب المرء بنفسه»، هذه مصيبة! فمن الناس من يُعجب بذكائه وتفكيره وعبقريته ورأيه، منهم من يُعجب بخطه، منهم من يُعجب بعضلاته وجسده وقوته، منهم من يُعجب بمنصبه، منهم من يُعجب بهاله، منهم من يُعجب بأولاده، منهم من يُعجب بخدمه، منهم من يُعجب ببيته ومركبه، إعجاب المرء بنفسه قاتل.

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشي مشية منكرة فقال له: تدري بكم شريت أمك؟ لأن أمه كانت أمة، بثلاثمائة درهم، وأبوك لاكثر الله في المسلمين مثله، وأنت تمشي هذه المشية! قال بعضهم: (رأيت في الطواف رجلاً بين يديه خدام يمنعون منه الناس، ثم رأيت بعد ذلك على جسر ببغداد ذليلاً يسأل الناس، فتعجبت منه، فقلت: أنت الذي كنت في مكة؟! قال: نعم، إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه).

عباد الله: ما الذي يملكه الإنسان حتى يُعجب بنفسه؟ رأى مالك بن دينار رجل يمشي بخيلاء، فنهاه، فقال الرجل: ألا تدري من أنا؟ قال: (نعم، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بينها تحمل العذرة).

لقد كان الصالحون لا يرون أنفسهم شيئاً، بل يحذرون أشد الحذر أن يهلكهم العجب والكبر، أو أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة إكبار، وإلى غيرهم نظرة احتقار.

قيل لأحمد بن حنبل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: (بل جزى الله الإسلام عني خيراً، من أنا؟ وما أنا؟) وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم. فقال: «اسكت، لا يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم».

نسأل الله أن يرزقنا التواضع، والقناعة، وأن يهدي قلوبنا، ويسدد نياتنا..



أثر الذنوب والمعاصي^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد الذي أوجد الخليقة من عدم وأنشأها، وقام بأرزاقها وكفأها، وأبان لها طريق رشدها وهداها، ومنّ بفضله على خلاصة اصطفأها، فهي في مرضيه تدأب وبطاعته تتباهى، أحمده سبحانه على نعم تتناهى، وأشكره شكر من عرف نعمه فرعاها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من عرف معناها وعمل بمقتضاها، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في سبيل الله ورفعوا لواها.

أما بعد:

عباد الله: اتقوا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه في السر والعلن ولا تعصوه، واعلموا أن الذنوب والمعاصي تضر في الحال والمآل، وأن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان. وما في الدنيا والآخرة شر وداء، إلا وسببه الذنوب والمعاصي، فبسببها أخرج آدم عليه السلام من الجنة، وأخرج إبليس من ملكوت السموات، وأغرق قوم نوح، وسُلطت الريح العقيم على قوم عاد، وأرسلت الصيحة على قوم ثمود، ورفعفت قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها الله عليهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود، وأرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظلل.. فسبب المصائب والفتن كلها الذنوب، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. فالذنوب والمعاصي ما حلت في ديار إلا أهلكتها، ولا في قلوب إلا أعمتها، ولا في أجساد إلا عذبتها، ولا في أمة إلا أذلتها، ولا في نفوس إلا أفسدتها، ولا في نعم إلا نغصتها وأزالتها. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

(١) علي بن عبدالله النمي.



إذا كنت في نعمة فارعهما فإن المعاصي تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة».

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
[النحل: ١١٢]. ﴿فِظَالِهِم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

ومن شؤم المعصية: أنها تمنع القطر، وتسلط السلطان، ففي سنن ابن ماجه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤن وجور السلطان، ولم يمنعوها زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا القِطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، ولولا البهائم لم يمطروا»^(١). وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]. قال: (دواب الأرض تلعنهم، يقولون: يُمنع عنا القطر بخطاياهم).

وقال عكرمة: (دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون: مُنِعْنَا القِطْرَ بذنوب بني آدم).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم».

وشؤم المعصية بلغ البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ومن شؤم المعصية أنها تورث الذل والمهانة، وتفسد العقل وتشوش الذهن، وتورث الهم والغم، وتضعف الجوارح، وتعمي البصائر، وتظلم بالقلوب، وتضييق الصدور، وصدق الله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

(١) صحيح ابن ماجه (٣٢٦٢).



وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه. وإن عاد زادت حتى تعلق قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن»^(١)، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلب هكذا مثل الكف فيذنب الذنب فينقبض منه ثم يذنب الذنب فينقبض منه حتى يختم عليه فيسمع الخير، فلا يجد له مساعًا».

وقال الحسن: (الذنب على الذنب، ثم الذنب على الذنب حتى يغمر القلب فيموت. فإذا مات قلب الإنسان لم ينتفع به صاحبه). قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تيمت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

وقال سليمان التيمي: (إن الرجل ليذنب الذنب فيصبح وعليه مذلته).

ومن خطورة المعاصي أنها تضعف الحفظ، وربما أذهبت، وتحرم صاحبها العلم، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نورٌ ونور الله لا يؤتاه عاصي

فاتقوا الله عباد الله: واحذروا غوائل الذنوب، ولا تستهينوا بعواقبها، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أقلوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء أفضل من قلة الذنوب.

قال بلال بن سعد: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت).

(١) صحيح الجامع (١٦٧٠).



وقال بشر: (لو تفكّر الناس في عظمة الله، ما عصوه عَزَّوَجَلَّ).

وقال وهيب بن الورد: (اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك).

ومن خطورة السيئة وشؤمها فعل السيئة بعدها: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾

[الشورى: ٤٠].

قال أبو الحسن المزين: (الذنب عقوبة الذنب).

وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ أن سبب كفر بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء أنهم اقترفوا المعاصي، قال

سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

واعلموا - عباد الله - أن الذنب دين في ذمة فاعله لا بد من التوبة منه لمحو أثره وتفادي

سوء عاقبته. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: البر لا يبلى، والإثم لا يُنسى.

وقال الفضيل بن عياض: (ما عملت ذنباً إلا وجدته في خلق زوجتي ودابتي).

ونظر أحد العباد إلى صبي فتأمل محاسنه، فأثي في منامه وقيل له: لتجدن غيبها - أي:

أثرها - ولو بعد حين. فنسي القرآن بعد سنين.

وقال ابن سيرين حين ركب الدّين واغتمّ لذلك: (إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ

أربعين سنة، وقيل: إنه غير رجلًا بالفقر، وقال له: يا مفلس، فأصيب بما أصيب به).

ومن أضرار الذنوب والمعاصي أنها تثقل صاحبها عن العبادة، كما قال رجل للحسن: يا

أبا سعيد! إني أبيت معافي، وأحب قيام الليل، وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟

فقال: ذنوبك قيدتك.

وقال الحسن: (إن الرجل ليذنب الذنب فيُحرم به قيام الليل).

وقال الثوري: (حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته).

وقال أبو سليمان الداراني: (لا تفوت أحد صلاة الجماعة إلا بذنب).

وقال بعض السلف: كم من أكلة - يعني من حرام - منعت قيام ليلة، وكم من نظرة -

يعني: حرام - منعت قراءة سورة. ومن هنا نجد أن سبب انصراف الكثير عن تلاوة القرآن



وتدبره ولذة تلاوته وترتيله؛ إنها هي ذنوب ارتكبت، ثم استهان بها أصحابها فنسوها ولم يستغفروا منها، فكانت سبباً لحرمان ذلك النعيم المقيم والخير العميم، من تلاوة كتاب الله العظيم.

لذا فإن المؤمن العاقل يجتهد في البعد عن الذنوب، ويهجر أهل الذنوب والمعاصي، فإن شؤم معصيتهم يبلغه. ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَغْزُو جَيْشَ الْكَعْبَةِ، إِذَا كَانُوا بَبْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يَخْسِفُ بِأَوْلِهِمْ وَأَخْرَهُمْ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَخْسِفُ بِأَوْلِهِمْ وَأَخْرَهُمْ وَفِيهِمْ أَسْوَأُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: يَخْسِفُ بِأَوْلِهِمْ وَأَخْرَهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ»^(١).

ولما تزلزلت المدينة على عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَاللَّهِ لَئِنْ عَادَتْ مَرَّةً أُخْرَى لَا أَسَاكِنُكُمْ فِيهَا. أَي: أَنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِذُنُوبِهِمْ!
نسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يوفقنا لما يرضيه.
أقول قولي هذا، وأستغفر الله الجليل لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) رواه البخاري (٢١١٨) ومسلم (٢٨٨٢).



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقوى
واصنع كما شئت فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبال من الحصى

عباد الله: كما أن الذنوب والمعاصي تمنح بركة العمر، وبركة الرزق والمال، وبركة العلم والعمل، وبركة الأهل والذرية، وكذلك الاستقامة على طاعة الله وتقواه سبب الحياة الهائلة والعيشة الطيبة الرغيدة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وهي تجلب البركة على العباد والبلاد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ اللَّاتِيَّاتُ حَتَّىٰ وَهَبْنَ لِمَنَّ هُنَّ مِمَّا مَلَكَتْهُنَّ رِقَابٌ ذُرِّيَّتَهُنَّ لِيَفِيَنَّهُنَّ بِالْحَقِّ وَالْإِسْلَامِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلٰى عِبَادِهِ لِيُوَفِّيَهُنَّ مِن مَّا رَزَقْنَهُنَّ حَقَّ رِزْقِهِنَّ لَوْلَا ذٰلِكَ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٦]. قال الحسن: (لو استقاموا على طاعة الله، وما أمروا به لأكثر الله لهم الأموال حتى يغبثوا بها). ثم يقول الحسن: (والله إن كان أصحاب محمد كذلك، كانوا سامعين لله مطيعين له، فُتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر). قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق».

وحين كان ابن آدم عرضة للذنب، فمن رحمة الله أن فتح له باب التوبة والاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ علّه أن يسلم مما تسببه من الأكدار، ويحصل البركات التي تمنعها الذنوب والأوزار، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي بَيْنَكُمْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].
فَيَا أَيُّهَا الْمُدْبُونُ وَيَا أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ إِلَى اللَّهِ؟ وَهَلْ مِنْ عَوْدَةٍ إِلَى الْعَفْوِ الرَّحِيمِ؟

﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ. مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥].

فاتقوا الله عباد الله: واستقيموا إليه واستغفروه، وتوبوا إلى الله، يقول النبي ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة»^(١). وقال عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وعلى العبد المؤمن أن يأخذ بأسباب المغفرة وأجلها التوبة النصوح والاستغفار والاعتراف بالذنب والندم عليه. وفي الحديث: «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ، فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب، إلا غفر الله له»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب! أذنبت ذنباً. أو قال: عملت عملاً، فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: عبدي عمل ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب. قد غفرت لعبدي»^(٣). وقال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر الله له»^(٤).

فيا من تكاسل عن الصلاة: أما آن الأوان أن تعود إلى مولاك، فإنه مشتاق لرؤيتك بين يديه، سيفرح بعودتك رحمة منه بك، لا حاجة منه إليك.

ويا من عَقَّ والديه، وقطع رحمه، وأساء لأهله وجيرانه، الله الله في حسن العشرة، والبر والصلة، فليس شيء أسرع جزاء من البر والصلة، ولا أسرع عقوبة من البغي والقطيعة والظلم.

ويا من خاض في المال الحرام، إياك إياك، واقنع بما من الحلال أغناك، فإنما تتخوض بالحرام في نار جهنم، وإنما تأكل من جمر جهنم.

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) صحيح الجامع (٥٧٣٨).

(٣) رواه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

(٤) صحيح ابن حبان (٦٢٤).



ويا من أطلقت بصرك في الحرام، تذكر: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وتذكر الأعمى الذي يود لو أنه اكتفى عن استجداء الآخرين، ولا تنس أنك مسؤول عن هذه النعمة العظيمة.

ويا من اعتاد إطلاق لسانه فيما لا يرضي الله، والخوض في أعراض الآخرين، من غيبة ونميمة، وكذب وسخرية، وتفاخر واستهزاء، وغمز ولمز، ولعن وطعن، كفى كفى، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، اعقل لسانك، فالعاقل للسانه عاقل. «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم».

عباد الله: لقد نصح الله عباده إلى المسارعة بالتوبة و البعد عن التسويف فقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال عز وجل: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]

قال السعدي: (أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام).

فينبغي المسابقة والمسارعة إلى التوبة دون تردد أو تسويف، وتدارك ما بقي من العمر بالرجوع إلى الله والفرار إليه سبحانه، فالبدار البدار إخوة الإيمان، والفرار الفرار، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]. بادروا بالتوبة قبل الفوات: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

اسمع إلى هذه القصة: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد مقعد الرجل من امرأته، أرعدت فبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة. قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل فقال: اذهبي والدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي الكفل ربه أبداً. فمات من ليلته. وأصبح مكتوباً على بابه: قد عُفِرَ للكفل.



ماذا لو تأخر قليلاً؟ ماذا لو لم يتب في تلك الليلة؟ ماذا لو وقع في الفاحشة؟ ماذا لو هجم عليه هاذم اللذات وهو سادر في غفلته منغمس في شهوته؟ كيف ستكون خاتمة؟
تفنى اللذات ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ
تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النارُ

فهل نبادر إخوة الإيمان بالتوبة إلى الله قبل أن يوافينا الأجل؟ هل نستغل فرصة الحياة قبل أن تتصرم ونحن في لهو و غفلة، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨]

أخي الحبيب كم سمعنا من المواعظ فما اتعظنا؟ وكم سمعنا من التذكير فما تذكرنا؟ فيإلى متى اللهو والغفلة؟ وإلى متى التسويف بالتوبة وأنت لا تدري متى فجأة الموت وحلول الأجل؟

أخي جرب أن تسمع موعظة مؤثرة، أو تستمتع بتلاوة خاشعة، أو تترتل آيات القرآن، قف مع نفسك وقفة حازمه وحاسب نفسك و اتخذ قرار الرجعة والتوبة والإنابة، وإياك ثم إياك من التسويف.

أخي الكريم: كلنا نذنب، ونقصّر، لكن لتذكر أن الله كريم جواد، تواب رحيم، بر كريم، يفرح بتوبة التائبين، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها، فلترجع أيها العاصي إلى من بيده النواصي، كفى طاعة للنفوس في أهوائها، كفى سعيًا وراء شهواتها، آن الأوان لتقديم ما يحبه الله ويرضاه، على ما تحبه النفس وتهواه، فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

أسأل الله الرحيم الرحمن أن يفتح لنا أبواب رحمته ويرزقنا التوبة النصوح يحسن لنا الختام.



ذنوب الخلوات (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله السميع العليم، يعلم السر وأخفى وهو بكل شيء عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.. به المعتصم وإليه الملتجأ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، سيد الأتقياء، وإمام الصالحين الأولياء، خير الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فلا يزال الإنسان في هذه الحياة الدنيا بين الخطأ والصواب، والحسنة والسيئة - إلا من عصم الله - حتى يلقي ربه، فيجد ما عمل حاضرًا ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. تعرض الأعمال على الله فلا تخفى منها خافية، هناك وفي تلك الساعة يتذكر الإنسان ما قدمت يدها، وينظر ما عملت يمينه ويسراه، وتبلى السرائر، ويفاجئ كل عامل بما أسرَّ وأعلن، يذكره الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣]، حينئذٍ تظهر الحقائق، فيبرز للناس رجال على هيئة أهل الدين والصلاح، لم يكن يرى منهم إلا كل خير، ولهم أعمال كجبال تهامة؛ لكنها تذهب كلها يوم القيامة هباءً منثورًا؛ بعد التعب والنصب، والجد في العبادة والاجتهاد في الدنيا، فما سبب ذلك وعلته؟

(١) صالح بن حميد.



بينها المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - إذ يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ عن ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال هامة بيضاء؛ فيجعلها الله عَزَّوَجَلَّ هباءً منثوراً»، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلَّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم!! قال: «أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»^(١).. وما أهم أن تتأمل هذا الحديث العظيم الذي يكاد قلب السامع له أن ينفطر خوفاً أن يكون ممن اتصف بشيء مما فيه، حين يأتي يوم القيامة وهو فرح بما قدم من الصالحات، مطمئن بما عنده من القربات، واثق بما بذل من جهود وأعطى من هبات!!

وإذا كان صاحب رسول الله ﷺ ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يخاف أن يكون منهم، ويحذر أن يكون من جملتهم؛ فماذا سنقول نحن والتقصير قد ملأ حياتنا، ومنسوب الإيثار قد قلَّ في قلوبنا - إلا من رحم الله -؟ يقول ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صفهم لنا، جلَّهم لنا، فيجيب المصطفى ﷺ بما لم يكن في الحسبان، ويخبر - بأبي هو وأمي - أنهم من المسلمين، ولهم من الأعمال الجبارة ما لهم؛ من قيام الليل، وصدقة، وصيام؛ لكنهم جعلوا الله عَزَّوَجَلَّ أهون الناظرين إليهم عندما راقبوا الناس، فعملوا في الظاهر ما يخالف الباطن، ونسوا أو تناسوا أن الله بكل شيء عليم، وأنه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوهُ مِنْ نَبْوَى ثَلَاثَةَ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

إذا أفلس أهل هذه الطاعات بسبب ذنوب الخلوات، فكيف بمن هو مفلس أصلاً من فعل الطاعات ثم هو يجترئ على الله في الخلوات بانتهاك المحارم واقتراف الموبقات!

وما أهم أن يتذكر كل واحد منا ذلك، وأن يربي نفسه على الخوف من الله في السر والعلن ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٠٥).



إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

وإن مكر الله تعالى لا يأمنه إلا الخاسرون الذين يمكنون على معصية الله، وارتكاب محارمه؛ حتى يفجأهم بأمره الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ولو تأملنا في أغلب من كان هذا حاله، وسألنا عن سببه تغيره؛ لوجدنا ذنوب الخلوات هي من كانت تنخر في دينه، حتى هزل عمله وضعف - وإن كان الناس يرونه حسناً -؛ ويلقاه يوم القيامة هباءً منثوراً - نعوذ بالله من هذه الحال، ومن أحوال أهل النار -، وقد أجمع العارفون بالله بأن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن عبادات الخفاء هي أعظم أسباب الثبات يقول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: (وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسياسة باطنة لا يطلع عليها الناس؛ إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك؛ فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت)، وفي هذا الباب يمكن أن يدخل حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ يقول: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله، وعمله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١). ويفسر ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي يقول فيه الرسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»^(٢)، وأما لا يبدو للناس فلا يعمله إلا الله الذي يعلم ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).



يا من يرى مد البعوض جناحها
ويرى مناط عروقها في نحرها
ويرى خريبر الدم في أوداجها
ويرى وصول غذا الجنين بطنها
ويرى مكان الوطاء من أقدامها
ويرى ويسمع حس ما هو دونها
أمنن عليّ بتوبة تمحو بها ما كان
في ظلمة الليل البهيم الأليل
والمخ من تلك العظام النحل
متنقلاً من مفصل في مفصل
في ظلمة الأحشا بغير تنقل
في سيرها وحثيئها المستعجل
في قاع بحر مظلم متهول
منني في الزمان الأول

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم؛ فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

إن مراقبة الله في السر والعلن مما يكسب القلب نورًا وضياءً، وما تُرْفَعُ به الدرجات في الدنيا والآخرة. الصحابي الجليل سعد بن معاذ استشهد وهو في ريعان الشباب حيث نزل من السماء سبعون ألف ملك يشيعونه فأَي سريرة أخفاها سعد جعلت سبعين ألف ملك ينزلون يشيعون جنازته إن من الفقه إن لسعد أعمال وسرائر جعلت ذكره يشيع حتى في السموات فخرج الرسول ﷺ يجر رداءه حتى لا يغلبه أحد في الخير لا تنافسه الملائكة في إنهم يكرمون سعد أكثر منه فنزل ﷺ ودفنه وقال إن عرش الرحمن اهتز لصعود روح سعد وهذا يدل أن الملائكة الأعلى يحتفون بأرواح الصالحين وربما رجل في الدنيا لا يعرفه أحد ولم يظهر على الشاشات ولم يعتلي المناصب ويجهله جيرانه وربما يموت ولا يدري أحد أنه مات ولا يحمل جنازته إلا قليل وترى الناس لا يذكرونه وبعد أيام ينسونه وربما يكون عنده من الأعمال عند الله ما يحتفي به أهل السماء ويرفع مقامه ويمد له في قبره مد البصر ويرى من رحمة الله ما لا يراه غيره فالأمور كلها سرائر مودعة في القلوب وأعمال صالحة يتقرب بها إلى علام الغيوب، فالله في التوبة والعودة إلى الله مما كان في الخلوات، وما أخفيناه عن الناس مما لا يخفى على السميع البصير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولنملأ الخلوات - التي كانت لا تخلو من الهفوات - بالطاعات، والقرب من رب الأرض والسموات.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوتٌ ولكن قل عليّ رقيبٌ
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما تخفي عليه يغيبُ

أيها المقصرين - وكلنا كذلك - أرغموا الشيطان بصدق الندم والتوبة والانطراح بين يدي الكريم الرحمن، ليغفر بعفوه ولطفه ما سلف منا وكان، اقصموا ظهر عدوكم بالاستغفار والتوبة الصادقة، فإنها أحب شيء إلى الله، وإنه سبحانه ليفرح بها رحمةً بكم، لا حاجة إليكم، فبادروا وسارعوا وسابقوا..

اللهم اغفر لنا أجمعين،، وارحمنا يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وصل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

تَرْكِيَةُ النَّفُوسِ (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله.. الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، رضي لنا الإسلام ديناً والشريعة منهجاً، أحمده سبحانه يجعل من كل همٍّ فرجاً ومن كل ضيقٍ مخرجاً، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له.. به المعتصم وإليه الملجأ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله.. بلزوم هديه الفوز والنجاة، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأولي الأحلام والنهي وذوي الحجا والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما انفلق إصباحٌ وما ليلٌ سجي، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

معاشر المؤمنين عباد الله: اتقوا الله تعالى؛ فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى خَيْرِ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهِ. وتقوى الله جلَّ وعلا: عملٌ بطاعةِ الله على نورٍ من الله رجاءِ ثوابِ الله، وتركٌ لمعصيةِ الله على نورٍ من الله خيفةً عذابِ الله.

ثم اعلموا - عباد الله - أن من أعظم المنن الربانية والهبات الإلهية التي يمنُّ الله جلَّ وعلا بها على عبده: توفيقه له لتزكية نفسه ﴿وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وتزكية النفس - أيها المؤمنون - أصلها عائدٌ إلى النماء والطهارة؛ فتزكية النفس: تنمية الخيرات والبركات فيها، وتطهيرها من الأمور الدنيئة والحقارات، وقد امتنَّ الله جلَّ وعلا على الأمة ببعثة محمد ﷺ ليلتو على الناس آيات الله جلَّ وعلا وليزكيتهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ [آل عمران: ١٦٤].

أيها المؤمنون: إن تربية النفس لها أساس عظيم وأصل متين لا زكاء لها إلا به؛ ألا وهو توحيد الله وإخلاص الدين له جلّ وعلا، فالتوحيد أساس التربية، ولهذا قال موسى عليه السلام لفرعون عدو الله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكَّى﴾ (٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْسِئُ ﴿ [النازعات: ١٨-١٩] أي: تزكى بتوحيد الله والبراءة من الشرك والكفر به جلّ وعلا.

عباد الله: وكتاب الله عزّ وجلّ القرآن الكريم هو أعظم كتاب لتربية النفوس، فأحطى الناس وأحرّاهم بالتربية أعظمهم عناية بكتاب الله وقد مر معنا قول الله جل وعلا ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

عباد الله: ودين الله جلّ وعلا كلّه بعقائده العظيمة وعباداته الجليلة وأخلاقه وآدابه الكريمة كلّه تربية للنفس ورفع لها لعالى المقامات ورفيع الرتب.

أيها المؤمنون: إن تربية النفس هي فلاح العبد وسعادته في دنياه وأخراه، ولقد أقسم الله أحد عشر قسمًا في كتابه لم يقسم بمثها، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهِاتِهَا ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَبَّاهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١﴾ [الشمس: ١-١١]، قد أفلح من زكى نفسه: أي تحقّق فلاحه، والفلاح هو حيازة الخير في الدنيا والآخرة، فالفلح حقًا وصدقًا في دنياه وأخراه من زكى نفسه، والخائب الخاسر من دساها أي: غمّسها في الرذيلة وأوقعها في حقارات الأمور ودنيء الصفات وسيء المعاملات والأخلاق، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ» (١).

عباد الله: وينبغي أن نعلم في هذا المقام أن التربية من الله على من يشاء من عباده؛ ولهذا يقول جلّ وعلا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّاهَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَئِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، فعليك أيها المؤمن الراغب بفلاح نفسك وسعادتها في الدنيا والآخرة أن تقبل على

(١) صحيح الترمذي (٣٥٩١).



الله جَلَّ وَعَلَا صَادِقًا فِي الدَّعَاءِ عَظِيمِ الرَّجَاءِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُرَكِّيَ نَفْسَكَ، وَمِنْ أَعْظَمِ الدَّعَوَاتِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا»^(١).

ثُمَّ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ اتَّبِعْ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْمُبَارَكَاتِ بِبَدَلِ الْأَسْبَابِ النَّافِعَاتِ وَبِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فَلَا بُدَّ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَصَبْرٍ وَمُصَابَرَةٍ وَمُرَابَطَةٍ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، مُجَاهِدْتُكَ لِنَفْسِكَ عَلَى الصَّلَاةِ وَعَلَى الصِّيَامِ وَعَلَى آدَاءِ عَمُومِ الطَّاعَاتِ وَمُجَاهِدْتُكَ لَهَا عَلَى الْبُعْدِ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَتَوَقُّقِ الْأَنَامِ كُلِّ ذَلِكَ مِنْ تَزَكِّيَتِكَ لِنَفْسِكَ.

ولهذا - عباد الله - لا بدَّ في هذا الباب من مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ مِنْ جِهَتَيْنِ:

- مِنْ جِهَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ؛ يُجَاهِدُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ لِتَفْعَلَهَا.

- وَمِنْ جِهَةِ الْأَعْمَالِ الْمَحْرَمَاتِ؛ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى الْبُعْدِ عَنْهَا.

وَكُلُّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ تَزَكِيَةُ النَّفْسِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿[الأعلى: ١٤-١٦] ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [١٥] بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿[الأعلى: ١٥-١٦] آيَاتٌ نَسْمَعُهَا مُتَكَرِّرَاتٍ فِي صَلَاتِنَا لِلْجُمُعَةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿[الأعلى: ١٤-١٧] وهذا - عباد الله - فِي بَابِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ.

وَفِي بَابِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى تَرْكِ النَّوَاهِي وَأَنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي بَابِ التَّزَكِّيَةِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فَهَذِهِ تَزَكِيَةُ النَّفْسِ.

ولهذا - عباد الله - ينبغي على المسلم الناصح لنفسه الحريص على زكاتها أن يتوقى المنكرات، وأن يتجنب المحرمات، وأن يُغلق منافذ الأهواء والشهوات - وما أكثرها -،

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).



وكَيْفَ يَطْمَعُ فِي زَكَاةِ نَفْسِهِ مَنْ أُشْرَعَ عَلَى قَلْبِهِ مَنَافَذَ الشَّرِّ بِنَظَرِ عَيْنَيْهِ وَسَمَاعِ أُذُنَيْهِ لِأُمُورِ
الْبَاطِلِ وَمُثِيرَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ !! فَلَا سَبِيلَ لِلتَّرَكِيَةِ إِلَّا بِإِغْلَاقِ هَذِهِ الْمَنَافِذِ وَأَطْرِ النَّفْسِ
عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَزَمَّهَا بِزِمَامِ الشَّرِيعَةِ وَأَخَذَهَا بِخِطَامِ الدِّينِ لِتَنْقَادِ مُسْتَسْلِمَةً مُدْعِنَةً مُطِيعَةً
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَيَفُوزُ صَاحِبُهَا الْفُوزَ الْمَبِينِ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ
الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
تَرَكَ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعَالِيَا أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِنْ
هَؤُلَاءِ. أَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرُ
لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية:

الحمد لله عظيم الإحسانِ واسع الفضلِ والجودِ والامتنانِ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعدُ عباد الله: اتقوا الله تعالى رب العالمين.

أيها المؤمنون: التزكية أمر مطلوب، لكن ليحذر المؤمن في هذا المقام - مقام تزكية النفس - أن يدعي لنفسه زكاء نفسه، فإن المؤمن الصادق مهما اجتهد في الأعمال الصالحات وتباعد عن الأعمال المنكرات المحرمات لا يُزكّي نفسه ولا يدعي لها الرفعة والكمال، والله جلّ وعلا يقول: ﴿فَلَا تَزُكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

المؤمن الصادق - عباد الله - لا يزال مجتهداً في الأعمال الصالحات والجد والاجتهاد في طاعة الله جلّ وعلا، وهو في الوقت نفسه يرى نفسه مقصراً مفترطاً، خائفاً أن لا يقبل منه عمله، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، جاء في المسند أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن معنى هذه الآية قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»^(١)؛ ولهذا من عظيم الدعاء: دعاء إمام الحنفاء وابنه إسماعيل عليها الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، قرأ أحد السلف هذه الآية الكريمة فبكى وقال: (إمام الحنفاء، خليل الرحمن، يبني بيت الرحمن بأمر الرحمن ويخاف ألا يقبل!!).

ولهذا - عباد الله - المؤمن الصادق يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات، ومهما جد واجتهد فإنه لا يزال يرى نفسه مقصراً في جنب الله، ولا يزال راجياً طامعاً من الله عزّ وجلّ الإثابة والقبول، خلافاً لمن يقوم بقليل من الأعمال وكثير من المخالفات ثم يرى نفسه من أحسن الناس عملاً ومن أزكاهم طاعة لله، وهذا هو عين الغرور - والعياذ بالله -.

(١) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٠٣).



عباد الله: وفي باب تزكية النفس ينبغي على المسلم أن يحذر من الطرائق المحدثّة، والمناهج المتبدّعة التي يدّعي أربابها أنّهم يزكّون بها نفوس الناس بما ليس من دين الله تعالى، فالتزكية حقاً وصدقاً لا تكون إلا بالطريقة النبوية والنهج المحمّديّ، فكلُّ تزكية تؤسّس على غير نهجه فهي ضلالٌ وباطل، وفي الحديث: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وكان صلواتُ الله وسلامه عليه يقول في كلِّ خطبة جمعة: «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهُدَى هَدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(٢).

فتزكية النفوس عن طريق الشرع، فلا سبيل إلى تزكية النفوس إلا من طريق الرُّسل، قال ابن القيم (وتزكية النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ، فمن زكّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم والتسليم لهم)^(٣).

فبادروا عباد الله إلى تزكية النفوس وتربيتها، واعلموا أن من وسائل تزكية النفس دوام المحاسبة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (زكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح البتّة إلا بمحاسبتها). قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ مَا أَرَادَتْ بِكَلِمَةٍ كَذَا؟ مَا أَرَادَتْ بِأَكْلَةٍ كَذَا؟ مَا أَرَادَتْ بِمُدْخَلٍ كَذَا وَمَخْرَجٍ كَذَا؟ مَا أَرَادَتْ بِهَذَا؟ مَا لِي وَهَذَا؟ وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا، وَنَحْوَ هَذَا مِنْ كَلَامٍ، فَمَحَاسِبَةُ النَّفْسِ يَطْلَعُ عَلَى عِيوبِهَا وَنَقَائِصِهَا، فَيَمَكِّنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا. وَقَالَ أَيُّضًا: وَأَخْطَرُ مَا عَلَى الْمُكَلَّفِ: الْإِهْمَالُ، وَتَرْكُ الْمَحَاسِبَةِ وَالِاسْتِرْسَالِ، وَتَسَهُّلُ الْأُمُورِ وَتَمَشِيَّتُهَا، فَإِنَّ هَذَا يُوَوِّلُ بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ، وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْغُرُورِ، يُغْمِضُ عَيْنَهُ عَنِ الْعَوَاقِبِ، وَيَتَّكِلُ عَلَى الْعَفْوِ، فَيَهْمَلُ مَحَاسِبَةَ نَفْسِهِ وَالنَّظَرَ فِي الْعَاقِبَةِ، وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَهَّلَ عَلَيْهِ مَوَاقِعُ الذُّنُوبِ وَأَنَسَ بِهَا، وَعَسَّرَ عَلَيْهَا فَطَامُهَا)^(٤)،

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) صحيح النسائي (١٥٧٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/٣١٥).

(٤) إغائة اللهفان (١/١٣٦).



وقال ميمونُ بن مهران: (لا يكونُ الرجلُ من المتقين حتى يجاسبَ نفسه أشدَّ من محاسبةِ شريكه، حتى يعلمَ من أين مطعمه، ومن أين ملبسته، ومن أين مشربه أمن حلالٍ ذلك أم من حرام) (١).

ثمَّ - عباد الله - أكثرُوا من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ على رسولِ الله ﷺ، فقد أمركم اللهُ جَلَّ وَعَلَا بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا». عباد الله: اذكروا اللهَ يذكركم، واشكروه على نِعْمِهِ يزدكم، ﴿وَلِذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].



(١) حليه الأولياء (٤/ ٨٩).

محاسبة النفس (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله خلق الليل والنهار، وقَدَّرَهما مواقيتَ للأعمال ومقادير للأعمار، لا إله إلا هو جعل في مرور الأيام والليالي عبرًا لأهل هذه الدار، أحمده سبحانه وأشكره على عظيم آلائه، والشكرُ سبيلٌ للمزيد والاستكثار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مُخْلِصةً بصدق المُعتَقَد وصحة الإقرار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله النبيُّ الأُمِّيُّ العربيُّ الهاشميُّ المصطفىُّ المُختار، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارَكَ عليه وعلى آله السادة الأطهار، وأصحابه البررة الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ ما تعاقبَ الليل والنهار، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله-، فمن عرفَ الله أعطاه حَقَّه، ومن أحبَّ رسولَ الله -ﷺ- لزمَ سنَّته، ومن قرأ كتابَ الله عمِلَ به، ومن أرادَ الجنةَ عمِلَ لها، ومن خافَ النارَ هربَ منها، ومن أيقنَ بالموتِ استعدَّ له.

يقول عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اشتدَّ خوفي من اثنين: طولِ الأمل، وأتباعِ الهوى؛ أما طولُ الأمل فيُنسِي، وأما أتباعُ الهوى فيصدُّ عن الحق».

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

عباد الله: إن تقوى القلب ومحاسبة النفس طريقتا المؤمنين، وسمةُ الموحدين، وعنوان الخاشعين، فال مؤمنٌ مُتَّقٍ لربه، محاسبٌ لنفسه، مستغفرٌ لذنبه، يعلم أن النفسَ خطرُها عظيم،

(١) ناصر بن مسفر الزهراني.



وداؤها وخيم، ومكرها كبير، وشرها مستطير، فهي أمارةٌ بالسوء، مِيَالَةٌ إلى الهوى، داعية إلى الجهل، قائدة إلى الهلاك، تَوَاقَةٌ إلى اللهو، إلا من رحم ربي.

فلا تُتْرَكُ النفس لهواها؛ لأنها داعيةٌ إلى الطغيان، مَنْ أطاعها قادتته إلى القبائح، وَدَعَتْهُ إلى الرذائل، وخاضت به المكاره؛ تطلعاتها مُرِيبة، وغوائلها عجيبة، ونزعاتها مخيفة، وشرورها كثيرة؛ ولذلك عَلَّمَنَا ﷺ في خطبة الحاجة أن نكرر دائماً، ونردد أبداً، قوله: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»^(١).

والناس قسيمان: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وسيّرتَه فأزْدَتْه، وصار طوعاً لها، وتحت أوامرها؛ وقسم ظفر بنفسه، وانتصر عليها، وأمسك زمامها، وأحكم لجامها، فقد أفلح وأنجح؛

ومن ظفرت به نفسه فسارت به على هواها، ومشت به في رضاها، فقد خسر وهلك.

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ
فمن ترك سلطان النفس حتى طغى، ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى^(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى^(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿[النازعات: ٣٨-٤١].

وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاثة أوصاف: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة؛ فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، وامثلت أوامره، واجتنبت نواهيها، واشتافت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٣٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٣٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴿٣٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿[الفجر: ٢٧-٣٠].

وإذا كانت النفس بضد ذلك فهي أمارةٌ بالسوء، تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغي، ودروب الردى، وأتباع الباطل. وأما النفس اللوامة فقد قيل هي التي تندم على ما فات، وتلوم عليه.

(١) صحيح النسائي (١٤٠٣).

قال عطاء، عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته».

وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: (إن المؤمن، والله! ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالته، يستقصرها في كل ما يفعل، فيندم ويلوم نفسه؛ وإن الفاجر ليمضي قدما لا يعاتب نفسه). فيجب أن يكون المؤمن محاسباً لنفسه، مُتَّهَمًا لها، لائماً على تقصيرها.

يقول الله جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. فهذه الآية دليل على وجوب محاسبة النفس، والنظر في أحوالها، والمتابعة لأعمالها؛ يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: (أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادَّخَرْتُمْ لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، واعلموا أنه عالمٌ بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية).

وقد أقسم الله تعالى بالنفس، وذكرها مع يوم القيامة؛ دلالةً على أهميتها ومنزلتها، وبيانا لضرورة المحاسبة وأهميتها، فقال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۗ (١) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]؛ فالإنسان بصير بعيوب نفسه، عالم بدخائلها، ولو تظاهر بالأعذار وجادل عن نفسه، فلن ينفعه ذلك يوم القيامة، وهذا إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها، وإصلاح عيوبها قبل فوات الأوان.

ولقد كان السلف -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- وأرضاهم أشد الناس محاسبة لأنفسهم، واتهاما لها، واعترافا بتقصيرها وجهلها، مع ما كانوا عليه من الدين القويم، والصراف المستقيم، والقدر العظيم؛ أعمال عظيمة، وأخلاق كريمة، ونفوس مستقيمة؛ هدى وصلاح، جهاد وكفاح، بذل وعمل، جود وكرم، بكاء وندم، سهر وألم، مسارعة إلى الخيرات، منافسة في الطاعات، صفاء في النيات.

ومع ذلك كله لم يدُلُّوا بأعمالهم، ولم يعجبوا بأحوالهم، أو يباهوا بأفعالهم، بل اتهموا أنفسهم بالتقصير، وكانوا في غاية الخوف والوجل من العلي القدير، وعلى رأسهم البشير النذير ﷺ، الذي أخبر أنه لن يدخل الجنة أحدٌ بعمله، حتى هو ﷺ، إلا أن يتغمده الله



برحمته، وهو الذي قام حتى تفتطرت قدماه، وكان يبكي حتى تبل دموعه الثرى، وكان يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة، ويعدله وهو يستغفر لربه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة. ولكن الإنسان يعجب حينما يتأمل أحوال كثير من الناس، أعمال قليلة، وطاعات متهالكة، وأحوال مزرية، ومع ذلك لا حساب، ولا عتاب، ولا ندم، ولا ألم، ولا خشية، ولا وجل. ذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما يقف مع نفسه وقفة محاسبة دقيقة صرخ قائلاً: يا ليتني كنت شجرة تعضد.

وذاك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يخشى على نفسه أن يكون من المنافقين، وكان يقول: «والله لو ددت أن أنجو يوم القيامة كفافاً، لا علي ولا لي». وكان يقول: «لو نادى مُنَادٍ يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحداً لخشيت أن أكون أنا». وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم؛ وتزنيوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية». وكتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أحد عماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن أهنته حياته، وشغلته أهواؤه، عاد أمره إلى الندامة والحسرة».

ويقول الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟). ويقول: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته). ويقول: (المؤمن قوَّامٌ على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي؛ ولكن، والله! ما من صلة إليك، هيهات هيهات! حيل بيني وبينك؛ إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه).

ويقول مالك بن دينار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (رحم الله عبداً قال لنفسه: ألسنت صاحبة كذا؟ ألسنت صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائداً).



وقال إبراهيم التيمي: (مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبقارها؛ ثم مثلت نفسي في النار، أكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلاها؛ ثم قلت لنفسي: يا نفس! أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أردد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال: فأنت في الأمنية، فاعملي).

بل لقد وصل الحال ببعضهم إلى أن اتخذ في داره قبرا ينزل فيه ويغلق على نفسه، ثم ينادي ويكي، ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۙ﴾ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، ثم يخرج من القبر ويقول لنفسه: قد أُعْطِيتِ رغبتك، فاعملي.

وكان الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللهُ في محاسبته لنفسه يذكرها نار الآخرة، فيجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: (يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟).

وعن وهب بن منبه، قال: (مكتوب في حكمة آل داود: حَقُّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يَنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا مَعَ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يَخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ وَيُصَدِّقُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لِدَاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَحْمَدُ؛ فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا عَلَى تِلْكَ السَّاعَاتِ، وَإِجْمَامًا لِلْقُلُوبِ).

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: (عرف أرباب البصائر من جملة العبادات أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه؛ ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال عز من قائل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أولا بالمشاركة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة).



وقال بكر بن عبد الله المزني -الذي كان آية في التقوى والصلاح-: (لما نظرتُ إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم). وقال محمد بن واسع - رَحِمَهُ اللهُ -: (لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إلي). ويقول ميمون بن مهران: (لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (مَنْ أَحْسَنَ الظَّنِّ بِنَفْسِهِ فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِنَفْسِهِ).

هكذا كانوا - رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ - يلومون أنفسهم، ويكون تقصيرهم، وَمَنْ لَمْ يَتَّهَمِ نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ كَانَ مَغْرُورًا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا بِلِئَامٍ فَتَنَعَمَ الْعُظْمَى هِيَ فِي الْخُرُوجِ مِنْ حُطُوظِهَا الْعَاجِلَةُ، وَالتَّخْلِصِ مِنْ رِقَبَتِهَا، وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِأَنْفُسِهِمْ أَشَدُّ النَّاسِ مُحَاسِبَةً لَهَا، وَرِقَابَةً عَلَيْهَا، ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَأَتَمَّ تَزَكِّيَ لِنَفْسِهِ﴾ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿ [فاطر: ١٨].



تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الزمر: ٥٥-٥٨﴾.

عباد الله: إن هناك فئة من الناس خف عليها الحساب، والوقوف بين يدي رب الأرباب، فمن هي؟ إنهم أولئك الذين لازموا مبدأ المحاسبة، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن، فخفّ حسابهم الحق بين يدي الله تعالى.

عباد الله: أكثروا من ذكر الموت، فتذكّر الموت، وأهوال القيامة، ما ذُكر في قليل إلا كثّره، ولا كثير إلا قلله، يدعو المؤمن إلى محاسبة النفس، والأخذ بزمامها إلى طريق الخير والفلاح، يقول ﷺ: مشيراً إلى هذا الأمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(١)، وفي رواية «واعدد نفسك في الموتى»^(٢)، وقال رجل لآخر: أوصني. فقال: (عسكر الموتى ينتظرونك).
فلنعدّ للسؤال جواباً، ولنعلم يقيناً أن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، ومن تذكّر هول المطلع على الله، حاسب نفسه وأعدّ العدة.



(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) رواه أحمد (٣٤٣/٦) وصححه أحمد شاكر، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٤١٨).

التقوى والمتقين (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وجعل أمتنا وله الحمد خير أمة، وبعث فينا رسولاً منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويُعلمنا الكتاب والحكمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لمن اعتصم بها خير عصمة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله للعالمين رحمة وخصّه بجوامع الكلم فربما جمع أشدات الحُكْم والعلم في كلمة أو شطر كلمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً تكون لنا نوراً من كل ظلمة وسلم تسليماً كثيراً.

أيها الناس: أوصيكم ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، اتقوا يوماً الوقوف فيه طويل والحساب فيه ثَقِيل.

وبعد:

عباد الله: مع التقوى سيكون حديثنا، مع صفات المتقين سنعيش في هذه الدقائق بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

والتقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية، وتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وقاية تقيه من ذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «المتقون هم الذين يحدرون من الله وعقوبته».

وقال طلق بن حبيب رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: (التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(١) أمير بن محمد المدري.



«تقوى الله أن يطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

وعرّف علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- التقوى فقال: «هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

فاحرص يا أخي الكريم على تقوى الله عَزَّوَجَلَّ لتعيش سعيداً في الدنيا وفي الآخرة. نتكلم عن التقوى لأن التقوى هي التي تصحبنا إلى قبورنا فهي المؤنس لنا من الوحشة والمنجية لنا من عذاب الله العظيم.

دخل علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- المقبرة فقال: «يا أهل القبور ما الخبر عندكم: إن الخبر عندنا أن أموالكم قد قُسمت، وأن بيوتكم قد سُكنت، وأن زوجاتكم قد رُوجت، ثم بكى، ثم قال: والله لو استطاعوا أن يجيبوا لقالوا: إنا وجدنا أن خير الزاد التقوى».

التقوى هي خير ضمانه نحفظ بها أولادنا ومستقبل أبنائنا من بعدنا قال تعالى:

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ حَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وتأملوا عباد الله: كيف أن الله سبحانه سنّخ نبياً هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وولياً هو الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ لإقامة جدار في قرية بخيلة فاعترض موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

ثم يخبر الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ سبب فعله بالغيب الذي أطلعه الله عليه في هذا الأمر، فيقول:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. وقال ابن عباس: «حُفظا بصلاح أبيهما، وكان الأب السابغ، والله أعلم».

والتقوى وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (الأمر بالتقوى كان عاماً لجميع الأمم)، وقال بعض أهل العلم: (هذه الآية هي رحي آي القرآن كله؛ لأن جميعه يدور عليها، فما من خير عاجل ولا أجل، ظاهر ولا باطن إلا وتقوى الله سبيل موصل إليه ووسيلة مبلّغة له، وما من شر عاجل

ولا ظاهر ولا آجل ولا باطن إلا وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ حرزٌ متينٌ وحصنٌ حصينٌ للسلامة منه والنجاة من ضرره).

فالتقوى أصلح للعبد وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وهي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، الكافية لجميع المهمات.

التقوى وصية النبي - صل الله عليه وسلم - لأمته فعن العرابض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(١).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها»^(٢).

والتقوى هي وصية الرسل الكرام لأقوامهم، قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿الشعراء: ١٢٣-١٢٤﴾.

﴿كَذَبَتْ نَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿الشعراء: ١٤١-١٤٢﴾.

والتقوى وصية السلف الصالح رضوان الله عليهم، كان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول في خطبته: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله»، ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دعاه فوصاه بوصيته قائلاً: «اتق الله يا عمر».

وكتب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى ابنه عبد الله: «أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه من اتقاه وقاه، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك».

(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).



وكتب عمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ التي لا يُقبل غيرها، ولا يُرحم إلا أهلها، ولا يُثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»، ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أوصيكم بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فإن، تقوى الله خَلَفَ من كل سعي، وليس من تقوى الله خلف».

وقال رجل لرجل أوصني، قال: (أوصيك بتقوى الله، والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فيكفي المتقون شرفاً أن الله معهم برعايته وحفظه).

ومن وصايا الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١)

ماذا نفهم من وصية النبي ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالتقوى؟

نفهم أن المرء محتاج للتقوى ولو كان أعلم العلماء، وأتقى الأتقياء، يحتاج إلى التقوى؛ لأن الإنسان تمر به حالات يضعف فيها إيمانه وينقص، يحتاج إلى التقوى للثبات عليها، يحتاج إلى التقوى للازدياد منها.

اتق الله حيثما كنت، في السر والعلانية، في الشدة والرخاء، في الخلوة والجلوة.

أتبع السيئة الحسنة تمحها، بادر إذا أخطأت أو قصرت بفعل الحسنات، فالحسنات يُذهبن السيئات.

خالق الناس بخلق حسن..، هناك أشياء بين العبد وخالقه وبينه والناس، ودخول الجنة معلقٌ بخطين، العلاقة مع الله بالتقوى والعلاقة مع الناس بحسن الخلق، وهذه هي وصية النبي ﷺ في هذا الحديث..

والتقوى هي أجمل لباس يتزين به العبد، قال تعالى: ﴿يَبْتِغِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْوَمٍ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [الأعراف: ٢٦].

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقوى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٦٠).



والتقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد، قال تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَأَنْتُمْ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وبها الطريق إلى الجنة، فقد سئل النبي ﷺ ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا»^(٢).

والنبي ﷺ كان يسأل الله التقوى في دعائه فيقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(٣).

وفي دعاء السفر كان يقول ﷺ: «اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى»^(٤).

والنبي ﷺ أوصى مسافراً فقال: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»^(٥).

إذاً فالتقوى في السفر بالذات لها طعم خاص، فالمسافر يغيّر مكانه وحاله، وقد يكون في بلاد الغربة لا يخشى مما يخشى منه في بلده وموطنه، ولا يخشى فضيحة لو عُرف، لكن في بلده يخاف الفضيحة، لذلك كانت ملازمة التقوى في السفر مهمة جداً. وعلى كل حال الإنسان يسأل الله التقوى في السفر والحضر.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(١) حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٤).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٤) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٥) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٣).



إن تقوى الله تعالى أعظم جنة يجتني بها العبد يوم القيامة.
قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَتَجَمَّعُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَمْسُهُمْ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١]..

اللهم اجعل لنا وللمسلمين من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل همٍ فرجًا، اللهم فرِّج هم المهمومين، واقض الدين عن المدينين، واغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا وللمسلمين.
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم،
أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه
وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

اعلموا أن التقوى سببٌ في توفيق العبد في الفصل بين الحق والباطل ومعرفة كل منهما:
قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].
وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل
لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

التقوى سبب لعدم الخوف من ضرر وكيد الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

التقوى سبب لنزول المدد من السماء عند الشدائد ولقاء الأعداء: قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].
التقوى سبب لتعظيم شعائر الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن
تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

التقوى سبب لنيل رحمة الله، وهذه الرحمة تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة: قال تعالى:
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

التقوى سبب للإكرام عند الله عزَّ وجلَّ: قال تعالى: ﴿إِن أَكْرَمَكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكَ﴾
[الحجرات: ١٣].

وسئل النبي ﷺ من أكرم الناس؟ من أرفعهم حسابًا؟ فقال: الكريم بن الكريم بن الكريم
يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قالوا ليس عن هذا نسأل، بيّن لهم بعد
ذلك، فقال عندما سُئِلَ من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم الله»^(١).

(١) رواه البخاري (٣٣٨٣).

فأكرم الناس وأفضل الناس وخير الناس عند الله أتقاهم، التقي النقي، ولذلك فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب وذُكر أن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبيسٍ أو تميمٍ

التقوى سبب للفوز والفلاح، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

إنها سبب للنجاة يوم القيامة من عذاب الله: قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾ [مریم: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآنْفَى ﴾ [الليل: ١٧].

إنها سبب لقبول الأعمال، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

التقوى طريق لميراث الجنة قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مریم: ٦٣].

إن المتقين لهم في الجنة غرفٌ مبنية من فوقها غرف: قال تعالى: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمَن هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هِيَ لِمَن أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى اللَّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١).

فلا يفعل هذه الأعمال المباركة إلا المتقين.

إنهم بسبب تقواهم يكونون فوق الذين كفروا يوم القيامة: في محشرهم، ومنشرهم، ومسيرهم، ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني (٢٥٢٧).



إنها سبب في دخولهم الجنة: وذلك لأن الجنة أعدت لهم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].
وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

إن التقوى سبب لتكفير السيئات والعتو عن الزلات: قال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

إن التقوى سببٌ لنيل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، قال جل شأنه: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

إن التقوى سبب لعدم الخوف والحزن وعدم المساس بالسوء يوم القيامة، وقال تبارك تعالى: ﴿الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٢] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

إنهم يحشرون يوم القيامة وفدًا إليه تعالى، والوفد هم القادمون ركبانًا، وهو خير موفود، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

إن الجنة تقرب لهم، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].
وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

اللهم اجعلنا من الذين يتقونك، حتى نجني من ثمار التقوى ما يُفرحنا يوم نلقاك، وأنت عنا راضٍ.. يا حبيب المتقين.. يا رب!

جاء رجل إلى الجنيد - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - وقال له: (إن الشيطان عارضني في صلاتي الليلة. فقال له الجنيد: لأنك لم تتق الله).

جاء رجل إلى بشر الحافي، فقال له: إني أخاف ألا يقبل الله أعمالي، قال له بشر: (إن كنت تخافه حقًا فاتق الله).

قال حكيم: (لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق، فطيف به في السوق لم يستح منه!).



قال داود لابنه سليمان: «يا بني! إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحسن توكله على الله فيما نابه، وبحسن رضاه فيما آتاه، وبحسن زهده فيما فاتته»، وقال أيضًا عَلَيْهِ السَّلَام: «لو أن رجلاً اتقى مائة شيء، ولم يتق شيئاً واحداً لم يكن من المتقين».

قال معروف الكرخي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتُك امرأة ولم تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك).

قال ابن المعتمر:

خَلَّ الذنوبَ صَغيرها وكبيرها فَهوَ التُّقى
واصنع كـهـاشٍ فـوق أرض الشوكِ يحذر ما يرى
لا تحقـرنَّ صـغيرةً إن الجبال من الحصى

وسأل عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كعباً فقال له: «ما التقوى؟ فقال كعب: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقاً فيه شوك؟ قال: نعم. قال: فماذا فعلت؟ فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أشمر عن ساقبي، وانظر إلى مواضع قدمي وأقدم قدماً وأؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة. فقال كعب: تلك هي التقوى. تشمير للطاعة، وترك للمعصية، وورع من الزلل، ومخافة وخشية من الكبير المتعال سبحانه».

عبد الله كيف تكون تقياً؟

أولاً: أن تحب الله أكثر من أي شيء.

ثانياً: أن تستشعر مراقبة الله دائماً.

ثالثاً: البعد عن المعاصي والأوزار.

تفنى اللذات ممن نال لذتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار



رابعاً: أن تتعلم كيف تقاوم هواك وتتغلب عليه.
خامساً: أن تدرك مكائد الشيطان ووساوسه.

أسأل الله العليّ القدير أن يجعلنا من عباده المتقين، هذا وصلوا -رحمكم الله - على خير البرية، وأزكى البشرية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بذلك، فقال في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].





الفتنة والابتلاءات سنة جارية^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله.. الحمد لله الذي له الجلال والجمال والكمال، له الأسماء الحسنی والصفات العلا وهو الكبير المتعال، أنعم على خلقه بشرعه، وجعل القلوب مخاطبات بوحیه، فمنها ما اطمأنت ومنها التي ولت فوَلَّاهَا سبحانه ما تولت، ومنها التي دلت ثم زلت فمنه سبحانه يُرجى الثباتُ في الحياة وعند النزع وفي القبر بعد الممات.

أحمده سبحانه وهو للحمد أهلُّ، وأسأله العفو والصفح وهو ذو المنة والفضل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ - وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى حق التقوى، وأخلصوا له في السر والنجوى.. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

حقيقٌ بمن اتقى الله أن يعلم أن الله يومًا تُكعُّ فيه الرجال وتُنسَف فيهِ الجبال وتترادف الأهوال وتشهد الجوارح والأوصال، وتُبلَى السرائرُ ويُكشَفُ ما في الضمائر؛ فرحم الله من عمل لآخرته ولم تُلهه الدنيا عن الآخرة الباقية.

أيها المسلمون: لما خلق الله الأرض ودحاها ووضع فيها زينتها وقدر فيها أقواتها أسكنها خلقه من الجن والإنس، وحتى يتم نعمته ويقيم حجته والى فيهمُ النبواتِ وأنزل فيهم الشرائع وبعث إليهم الرسالات، وجعل الهدى والنور الذي جاء به الأنبياء هو تاج نعمه وذروة سنام فضله، فلا زينة الدنيا ولا ممالك الأرض ولا خيرات الحياة ولا كنوزها تعدل

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



نعمة الهدى والنور الذي جاء به رسل الله من لدنه؛ إذ كيف تساوي هداية السماء بمتاع الأرض؟! وكيف يقايس ما عاقبته الحسنى وجنة الخلد بما ماله الفناء والزوال؟!

وجعل الله حملة ميراث الأنبياء ومعتقي شرعة السماء هم خيار أهل الأرض في الأرض؛ فهم الذين خالط وحى الله شغاف قلوبهم، واستضاءوا بنور الله في دروبهم، وهم الذين ذلت جوارحهم وانقادت نفوسهم لشرع الله.

عباد الله: ولما كان دينُ الله عزيزاً وشريعته غالية، فإنه لا يستحق حملها إلا خيارٌ من خيار، فكانت الابتلاءاتُ والمحن تعرض للمؤمنين والأذية والفتن تحيط بالمصدقين حتى لا يبقى على الدين إلا من يستحقه وليعلم الله الذين صدقوا..

الفتنة والابتلاء سنة جارية في الأولين والآخرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿الرَّ ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿[العنكبوت: ١-٣].

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال، بل هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهادٍ يحتاج إلى صبر، والله - تعالى - يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكنَّ الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو معلومٌ لله تعالى فيحاسب الناس على ما يقع من عملهم؛ فهو فضل من الله وعدل وتربيةٌ للمؤمنين وصقل.

والفتن والابتلاءات أنواعٌ وصور: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فمنها

السراء والضراء، ومنها الفتنة بانتشار المنكرات وغلبة الأهواء، وكثرة الدعاة على أبواب جهنم وكثرة الاختلاف، وخلط الحق والباطل، ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ثم لا يملك النصر لنفسه ولا المنعة، ومن الفتنة أن يعيش المؤمن بدينه كالغريب بين الناس.. قال رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(١).

(١) رواه مسلم (١٤٥).



أيها المسلمون: الحديث عن الثبات وقت المحن والصبر في البلاء والفتن حديثٌ موجه إلى عموم المؤمنين من الأخيار والصالحين والدعاة وطلبة العلم والمحتسبين حين يتسرب الوهن والإحباط إلى بعض المسلمين، ويرون تسلط الأعداء والمرجفين، ومن يُشعل فتيل الخلافات ويثير النزاعات ويطرحون الأفكار الغريبة المشتتة..

وإذا كان أثر العلماء والمصلحين ظاهرًا في تسكين الناس وتثبيتهم على الحق حين الشدائد وكثرة الفتن.. فإن ثمة مرجفين يجدون في أوقات ضعف الأمة وتكالب الأعداء عليها فرصًا لترويج باطلهم وتشكيك الناس في عقائدهم؛ يسخرون من الدين ويلمزون المطوعين من المؤمنين، ويُسهمون في إحباط الأمة وتحاذلها وتميع مبادئها لتضييع هويتها..

لا تَحْذُوا حَذْوَ عَصَابَةِ مَفْتُونَةٍ يجدون كل قديمٍ أمرًا منكرا
وَلَوْ اسْتَطَاعُوا فِي الْمَجَامِعِ أَنْكَرُوا مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ عُمَرَاءَ
مَنْ كُلُّ مَاضٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدْمِهِ وَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْبِنَايَةِ فَصَّرَا

أيها المسلمون: أيها الأخيار والصالحون: لقد قص الله علينا في كتابه، وروى لنا رسوله في سنته من سير الأمم السابقة وأتباع الديانات السالفة، وقوة اطمئنان القلب لما جاء عن المرسلين على كثرة الصوارف وشدّة بأس المخالف ما يبين معه أن إيمانهم لو وُزِنَ بالجبال لرجح بها، فهذا يُنشرُ بالإنشار من رأسه إلى قدميه ما يتزحزح عن دينه، وأولئك تُحدّد لهم الأحاديثُ فتُسجَرُ بالنار ثم يقذفون فيها..

كما ضرب لنا نبينا محمدٌ ﷺ وصحابته الكرام أروع الأمثلة في الثبات على الدين؛ مما أوصل لنا الدين كاملا والعقيدة نقية صافية حتى اعتنقها ملايين البشر وعمّت السهّل والوعر.

وفي كل زمان فتنٌ وابتلاءات، ومع ذلك يبقى الدينُ ويبقى الخير، وفي زماننا هذا - وبالزماننا!! زمن زلزلة المفاهيم وخلخلة الثوابت وتقلب الآراء وانتكاس المبادئ.. زمن إعادة النظر في كل شيء دينيٍّ وإرثٍ عقديٍّ.. زمن السخرية من الدين وأهله وانتقاص الشريعة وحملتها، حتى كثر المتساقطون على الطريق واستحکم اليأس في بعض النفوس؛ فصار الباعثُ على إعادة



النظر في بعض أحكام الشريعة المستقرة ليس دليلاً راجحاً أو مأخذاً واضحاً، إنما الباعث ضغط الواقع أو اتباع الهوى ومسايرة الناس.

أيها المسلمون: أيها المؤمنون.. أيها الأخيار والصالحون: المؤمن لا يهين ولا يجبط ولا يستكين ولا ييأس ولا يستوحش من الطريق لقلة السالكين، ولا ينظر إلى الهالك كيف هلك، بل ينظر إلى الناجي كيف نجا.

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى الفأل والعمل والبشارة وتحفيز الهمم ومعرفة السنن.. سنن الله في أوليائه وأعدائه، سنن الإدالة والنصر والمد والجزر؛ حتى يطمئن مؤمن ولا يغتر فاجر، ولئلا يكون كثرة الباطل مدعاةً لليأس والقنوط، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

لا يجوز أن يضعف صاحب الحق أو يهين؛ فإن لهذا الدين إقبالا وإدبارا وامتداداً وانحساراً.. ضعفٌ وقوة وفرقة واجتماع وغربة وظهور وابتلاء وتمكين.. ينطق بذلك وحي السماء ويؤيده تاريخ البشر..

وفي الخبر المتفق عليه.. قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف الحرب بينكم؟ قال: سجال.. يُدال علينا مرةً ونُدال عليه أخرى، قال: كذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة»^(١).

حكمة بالغة وسنة ماضية: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

أخرج الترمذي بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالفأبض على الجمر»^(٢)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «ويل للعرب من

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) ومسلم (١٧٧٣).

(٢) صحيح الترمذي (٢٢٦٠).



شرٌّ قد اقترَب؛ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ.. يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسِي كَافِرًا؛ يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ، الْمَتَمَسِكُ يَوْمئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ» أو قال: «على الشوك»^(١).
إنها ابتلاءاتٌ وإدالات، والشدائد كاشفات لأصحاب النفوس كبيرة.. والذين لا تزيدهم إلا صبرًا و يقينا و حزمًا و عزمًا.

إخوة الإسلام: إخوة الإيمان: إننا بحاجة إلى تجديد الإيمان في قلوبنا وفي أعمالنا؛ سيما في وقت الشدائد والفتن: معاني الإيمان واليقين وحسن الظن بالله والتسليم، والصبر، وصدق الولاء، والتضرع لله والدعاء، وحسن المجاهدة وتهذيب النفوس وإصلاحها، والعبودية لله والاستعانة به وحسن التوكل عليه، والعمل بجدٍّ وفأل، وتوحيد الصف وجمع الكلمة، ومدافعة الباطل بلا يأس.

وكل هذه المعاني حققها المؤمنون السابقون في مثل تقوي العزائم وتشحذ الهمم، وقرأوا ما قص الله في القرآن من سيرة الرسل الكرام حتى قال الله تعالى في الختام: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].
قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: (أي نقوي به قلبك وتسكن إليه نفسك؛ لأنهم بلوا فصبروا، وجاهدوا فظفروا).. انتهى كلامه - رَحِمَهُ اللهُ -.

واقراء في سيرة الرسول الكريم ﷺ وكيف كان الفأل والعمل في أحلك الظروف والمواقف:

فيشير بظهور الدين وهو طريد بين مكة والطائف - كما أخرجه ابن سعد في (الطبقات) - ويعد سراقه بسواري كسرى وهو مُطارِدٌ في الهجرة، وتحاصر المدينة بعشرة آلاف مقاتل وتنقض اليهود عهداها؛ فيشير ببشارته الثلاث عند ضربه الصخرة التي عرضت - كما في صحيح البخاري -.

ودرج الصحابة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمْ وترَبَّوْا على هذه المثل، فهذا أبو بكر الصديق رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ يقف في أحلك المواقف حين ارتدت العرب ووقف جيش أسامة بين خطر الروم وبلاء المرتدين،

(١) رواه أحمد (٨٨٦٩) وصححه الألباني.



فيثبت أبو بكرٍ وحده حتى يثبت الله المؤمنين، وينفذ للروم جيش أسامة، ويقاوم المرتدين في اليمامة، ويحفظ الله الدين بمواقف المؤمنين..

إن الثبات يحتاج إلى عزيمة وجد وإيمانٍ و يقين.

أيها المؤمنون: وللدعاء أثرٌ عظيم في الثبات والنصر، والاستعاذة من الفتن واردة في الصحيحين، وفي الحديث المتفق عليه: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»^(١)..

وما انتصر النبي ﷺ في بدر حتى سقط رداؤه من على منكبه دعاءً وتضرعاً.

والعلم النافع يميّز به المسلم بين الحق والباطل حين تلبس الأهواء، والسير في ركاب جماعة المسلمين أمنٌ من الفتنة، كما في حديث حذيفة المُخَرَّج في الصحيحين.

ومن سيء المؤمنين: الثبُت من الأخبار.. خاصة فيما يتعلق بالدين وحملته، أما التَّخَوُّض في الباطل واعتماد أخبار الفساق والانتكاء على الحكايات والقصص الغريبة فذلك شأن الجهلة والغوغاء.

عباد الله: إن مرحلة الضعف والانحسار تدعو إلى إعادة بناء الأمة وتسهم في مراجعة حالها مع ربها، وكلما اشتدت الفتن وتلاحقت كلما اشتدت الحاجة للعبادة حيث ينشرح صدر المؤمن ويطمئن قلبه، ويجرسه الله من وسوسة الشياطين وإغوائهم.

والعبادة وقت الفتن هي وصية النبي ﷺ لأمته حيث قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ.. يَصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمَسِّي كَافِرًا»^(٢)، وقال ﷺ: «العبادة في الهُرْج كهجرةٍ إليَّ»^(٣).

فرقٌ بين من يتخوض في لجة الفتن وبين من يركن إلى الله تعالى ويهاجر بقلبه إليه، ويتملق بين يديه ويدعو إلى سبيله ويسعى إلى الإصلاح وتسكين الفتن وتثبيت الناس على الحق ودلالتهم عليه، فرق بين من ينشر الخير ويزكيه وبين من ينشر العيوب والإحباط والتشيط..

(١) رواه البخاري (٦٣٦٧) ومسلم (٥٩٠).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٨).

إنها سلبية لا تليق بالمسلم، ومن قال: «هلك الناس فهو أهلكهم»، والمؤمن - أبداً - قائم على سفينة المجتمع ألا تكثر خروقتها، وليس عليه إلا السعي: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

لقد قيل لمن هو خيرٌ منا: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ﴾ [الشورى: ٤٨].
وقال من هو خيرٌ منا: ﴿إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: ٨٨].

والمسلم يلزم نفسه بمجالس الصلاح ويهرب من مواطن الریب والفساد: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

وجماع كل الوصايا.. وجماع كل الوصايا ما وصى الله تعالى به رسوله محمداً ﷺ في آخر سورة الحجر.. حيث قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَيْتِكَ فَصَدْرُكَ إِذْ يُقُولُونَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٨٧-٩٩].

إن النبي ﷺ بشرٌ لا يملك أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله والاستهزاء بدعوة الحق فيغار ويضيق بالشرك والانحراف؛ لذلك يؤمر بالتسبيح والحمد والعبادة والثبات حتى يأتيه الأجل، فيعرض عن الكافرين ويلوذ بجوار الرب الكريم؛ ويؤمر بالصدع والبيان لأن الصدع بالحق والجهر به ضرورة في الدين لتنبه الفطرة الغافلة وتعلم الأمم اللاهية: ﴿لِيُهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

أما جعل العقيدة والشريعة عضين.. يُعرض جانب ويؤارى جانب مراعاةً للجواهر وأهواء الناس فهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ.



والصدع بالحق لا يعني الغلظة المنفرة ولا الخشونة والتعالي، كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني إخفاء الحق وكتمانه.. إنه البيان الكامل في حكمةٍ ولطف، ولينٍ ويسر:
﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعنا بسنة سيد المرسلين..
أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله .. الحمد أول كتابه وآخر دعوى أحبابه ساكني دار ثوابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له توحيداً وتقديساً لجنابه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

أيها المسلمون: فإن الصبر وصية الله للرسل والأنبياء والصلحاء والأولياء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الصبر رفيق الدرب حين تظلم الدنيا، والصبر منحة من الله للثبات على الحق، وحين يغتر الدهماء بالباطل إذا تكاثرت واستشرفت له النفوس وتناولت له الأعناق: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

الصبر هو الواحة الخضراء لمن فقد الظل في الصحراء، وفي خطاب الله لرسوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرَنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وبعد أن ذكر الله قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والذي دعا قومه عشرة قرون حتى نصره الله قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وبعد المعارك الطاحنة في سورة (آل عمران) ونزال المشركين وجدال الكتائبين وذكر أحوال المنافقين .. ختم الله السورة بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَانقُضُوا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وإذا علم الله صدق النوايا وتميز الصابرون الصادقون وانقطعت العلائق بأسباب الأرض وتعلقت بالله القلوب تحققت سنة الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].



أيها المسلمون: لا يزال الإنسان في فتن وبلاءٍ وشدةٍ حتى يضع قدمه في الجنة، وبرحمة الله وفضله شرع سبحانه أسباباً لزوال الخطوب؛ فتوحيد الله هو أسرع مخلص للكروب، وقد فرغ إلى ذلك يونس عليه السلام فنجى من الغم؛ قال عليه الصلاة والسلام: «دعوة ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ما دعا بها مكروبٌ سبع مراتٍ إلا فرج الله كربَه»؛ رواه أبو داود.

قال ابن القيم رحمه الله: (لا يُلقِي في الكُربِ العِظامِ سِوى الشِركِ، ولا يُنجِي منها إلا التوحيدُ، وقد علِمَ المُشْرِكُونَ أن التوحيدَ هو المُنجِي من المهالكِ؛ ففرعونُ نطقَ بكلمة التوحيد عند غرقه لينجو ولكن بعد فواتِ الحين). والتوكُّلُ على الله وتفويضُ الأمرِ إليه يكشفُ ما نزلَ، قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأُنعام: ٦٤].

ولما لجأ الرجلُ المؤمنُ من آلِ فرعونَ إلى الله كُفِيَ شرُّ قومِه، قال سبحانه عنه: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٤﴾ فوقه اللهُ سَعَاتٍ مَا مَكْرُؤٌ وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ [غافر: ٤٤، ٤٥]. والتضرُّعُ إلى الله بالدعاء سببٌ تغَيَّرَ الحَالُ، قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والصلاةُ مزيلةٌ للهمومِ كاشفةٌ للغمومِ، والله سبحانه أمرَ بالاستعانةِ بها عند حُلُولِ المصائبِ، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وذكر الله أنيسُ المكروبين، قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿[الحجر: ٩٧، ٩٨].

والاستغفارُ سببٌ تفریحِ الخطوبِ؛ لأن الذنوبَ هي مُوجِبُ الكروبِ، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأُنفال: ٣٣].

والتوبةُ تحطُّ السيئاتِ وتُفَرِّجُ الكُرباتِ، قال تعالى: ﴿وَيَلْوَنُهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

ومن عاملَ الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته، وجعل له فرقاناً من الفتن والتباس الأمور: إن تَقَوُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴿[الأُنفال: ٢٩].



الفتنة والابتلاءات سنّة جارية

والله وعدّ عباده بالفرج بعد الشدّة، وإذا اشتدّ الكرب لآح الفرّج، وحسن الظنّ بالله واجبٌ، والتفاؤل بزوال ما نزل من المصائب من حسن المعتدّ، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ثم صلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه..



الاستقامة على الدين (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض بالحق، ولتُجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الثقلين الجن والإنس لغاية تَراد منهم، وهي أن يعرفوه ويعبدوه وحده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وغاية تَراد بهم، وهي الجزاء بالعدل والفضل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليفه، لا خير إلا دَلُّ الأُمَّة عليه، ولا شرَّ إلا حذرَها عنه. فَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ.

أما بعد:

فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى أَيُّهَا النَّاسُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَجَعَلَكُمْ مِنْ أُمَّةٍ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الثَّبَاتَ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْمُدَاوَمَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْحَذَرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالْمَحْرَمَاتِ دَلِيلُ صِدْقِ الْإِيمَانِ، وَثَمَرَةُ الْهَدَايَةِ، وَسَبَبُ حُصُولِ الْخَيْرَاتِ، وَتَنْزُلِ الرَّحْمَاتِ، وَالْوُصُولِ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَحْقِيقِ الْكِرَامَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَبِهِ يَحْصُلُ الْيَقِينُ، وَمَرْصَاةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَجِدُ الْمُسْلِمُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَطُمَأْنِينَةَ النَّفْسِ، وَرَاحَةَ الْبَالِ، وَبَرْدَ الْيَقِينِ؛ ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلْبِ السَّيِّئِ

(١) ناصر بن محمد الغامدي.



قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلِيَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿ [الزمر: ٢٢]، ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام: ١٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (أعظم الكرامة: لزوم الاستقامة).

إِنَّ الاستقامة وَالثَّباتَ عَلَى دِينِ اللَّهِ هُوَ الرَّجُولَةُ الْحَقَّةُ، وَالانْتِصَارُ الْعَظِيمُ فِي مَعْرَكَةِ الطَّاعَاتِ وَالْأَهْوَاءِ، وَالرَّغَبَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ وَهُوَ الصَّمَانُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - لِلْحُصُولِ عَلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الثَّابِتُونَ الْمُسْتَقِيمُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِتَطْرُدَ عَنْهُمْ الْخَوْفَ وَالْحَزْنَ، وَتُبَشِّرَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَتُعْلِنَ وَقُوفَهَا إِلَى جَانِبِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٠-٣٢].

قال أبو بكر الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِلَهٍ غَيْرِهِ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى أَنْ اللَّهَ رَبُّهُمْ». وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ فَعَمِلُوا بِطَاعَتِهِ، وَاجْتَنَبُوا مَعْصِيَتَهُ).

مَا أَجْمَلَ الطَّاعَةَ إِذَا أُتْبِعَتْ بِالطَّاعَةِ! وَمَا أَعْظَمَ الْحَسَنَةَ وَهِيَ تَنْضَمُّ إِلَى الْحَسَنَةِ لِتَكُونَنَّ سِلْسِلَةً مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَرْفَعُ الْعَبْدَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَتُنَجِّيه مِنَ النَّارِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ! وَمَا أُنْعَسَ الْمَرْءُ وَأَقَلَّ حَظُّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَهْدِمَ مَا بَنَى، وَيُفْسِدَ مَا أَصْلَحَ، وَيَرْتَدَّ إِلَى حِمَاةِ الْمَعْصِيَةِ وَظُلْمَةِ الْكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ ذَاقَ لَذَّةَ الْإِيمَانِ، وَحَلَاوَةَ الطَّاعَةِ!.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ الْمُصْطَفَى ﷺ فِي صَلَاتِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشِدِ»^(١). وَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ الْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَوْ كَانَتْ قَلِيلَةً؛ سَأَلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْتَصُّ مِنَ الْأَيَّامِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً،

(١) السلسلة الصحيحة للألباني (٣٢٢٨).

وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُطِيقُ؟! متفقٌ عليه. وَيَقُولُ ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(١).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَبَى قَوْمٌ الْمَدَاوِمَةَ، وَاللَّهُ مَا الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَعْمَلُ الشَّهْرَ أَوْ الشَّهْرَيْنِ، أَوْ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ، لَا وَاللَّهِ! مَا جُعِلَ لِعَمَلِ الْمُؤْمِنِ أَجَلٌ دُونَ الْمَوْتِ). ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وَإِنَّ الثَّبَاتَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلِزُومَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ عَزِيزٌ وَعَظِيمٌ، لَا سِيَّمَا مَعَ فَسَادِ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةِ الْمُغْرِبَاتِ، وَتَتَابُعِ الشَّهَوَاتِ، وَكَثْرَةِ الشُّبُهَاتِ، وَضَعْفِ الْمُعِينِ، وَكَثْرَةِ الْفِتَنِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا الْمُصْطَفَى ﷺ بِقَوْلِهِ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا؛ يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢).

وَالنَّفْسُ الثَّابِتَةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى تَحْتَاجُ إِلَى الْمُرَاقَبَةِ النَّاتِمَةِ، وَالْمَلَاخِظَةِ الدَّائِمَةِ، وَالْأَطْرِ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَالْبُعْدِ عَنِ مَوَاطِنِ الْهَوَى وَالْمَجَاوِزَةِ وَالطَّغْيَانِ؛ وَلَا جُلَّ هَذَا فَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ أُمَّتَهُ بِقَوْلِهِ: «اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تُخْصُوا»^(٣)، وَبِقَوْلِهِ ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»^(٤)، وَالسَّدَادُ هُوَ حَقِيقَةُ الْاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ، وَهُوَ الْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْمَقَاصِدِ. وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ قَوْلُ الْحَقِّ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. وَهُوَ تَوْجِيهُ الْهَيِّ كَرِيمٍ لِجِبْرِ مَا قَدْ يَخْضُلُ مِنْ ضَعْفِ بَشَرِيٍّ، وَقُصُورِ إِنْسَانِيٍّ.

وَمَدَارُ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَالْاسْتِقَامَةِ عَلَى مَنْهَجِهِ وَطَاعَتِهِ عَلَى أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ: حِفْظُ الْقَلْبِ، وَحِفْظُ اللِّسَانِ؛ فَمَتَى اسْتَقَامَا اسْتَقَامَتِ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ، وَصَلَحَ الْإِنْسَانُ فِي سُلُوكِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَمَتَى اعْوَجَّ وَفَسَدَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ، وَصَلَّتْ أَعْضَاؤُهُ جَمِيعًا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٥)، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ

(١) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٣).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٦) وأحمد (٢٢٤٣٢) وصححه الألباني في تمام المنة برقم (٢٣٤).

(٤) رواه البخاري (٦٤٦٤) ومسلم (٢٨١٨).

(٥) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).



أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»^(١)، وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ وَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنْ الْقَدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ عَلَيَانَا»^(٢).

وَإِنَّ لِلثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى شَرْعِهِ، أَسْبَابًا وَأَخْلَاقًا، مَتَى مَا أَخَذَ بِهَا الْمُسْلِمُ وَتَخَلَّقَ بِهَا وَحَرَصَ عَلَيْهَا ثَبَّتَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى دِينِهِ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَالضَّلَالِ بَعْدَ الْهُدَى.

فَمِنْ أَمِّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْإِيْمَانُ الصَّادِقُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالتَّمَسُّكُ بِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَإِنَّهُمَا النُّورُ وَالضِّيَاءُ اللَّذِينَ يُهْتَدَى بِهِمَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَيُرْجَعُ إِلَيْهِمَا عِنْدَ الْمَلَمَّاتِ، وَيُعْتَصَمُ بِهِمَا وَقْتُ الْفِتَنِ، مُصَدِّقٌ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُذَكِّرُ أُمَّتَهُ بِهِ قَائِلًا: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»^(٣).

وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْحِكْمِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ مُفْرَقًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التَّشْيِيتُ عَلَى الْحَقِّ؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فَالِاعْتِصَامُ بِالْقُرْآنِ، وَقِرَاءَتُهُ، وَحِفْظُهُ، وَمُدَارَسَتُهُ، وَالْقِيَامُ بِهِ، مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ؛ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَزِيَادَةِ الْإِيْمَانِ؛ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وَلِمُعَالَجَتِهِ لِأَمْرَاضِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْقَصَصِ الْحَقِّ الَّذِي يُسَلِّي الْمُؤْمِنِينَ وَيُسِّرُهُمْ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَيُبَيِّنُ عَاقِبَةَ الْمُجْرِمِينَ الْمُكذِّبِينَ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَالمُؤْمِنِينَ عَبْرَ

(١) حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٥٤).

(٢) قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٧٢): (صحيح بمجموع طرقة).

(٣) حسنه الألباني في تخریج مشكاة المصابيح برقم (١٨٤).

التَّارِيخُ؛ ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وَمِنْ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْمَدَاوِمَةُ عَلَى الطَّاعَةِ وَلَوْ قَلَّتْ، وَالْاِقْتِصَادُ فِي السُّنَّةِ، وَالْحَذَرُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُبْتَدَعَاتِ، وَالِاسْتِجَابَةُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالِانْتِهَاءُ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، وَالْعَمَلُ بِمَا يُوعِظُ بِهِ الْمَرْءُ مِنْ خِلَالِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَنُصُوصِ السُّنَّةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مِمَّا يَقْوِي اللَّهُ تَعَالَى بِهَا قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، لِتُصْبِحَ ثَابِتَةً رَاسِخَةً، لَا يُزْعِزُهَا إِزْجَافُ الْمُرْجِفِينَ، وَلَا تَهْوِيلُ الْمُبْطِلِينَ؛ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانِهِمْ بِقَوْلِهِمْ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ؛ فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»^(١).

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: (أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُثَبِّتُهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَفِي الْآخِرَةِ فِي الْقَبْرِ).

وَمِنْ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ الرَّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَالِاطْمِئْنَانُ إِلَى خَيْرَتِهِ لِلْعَبْدِ، وَأَنَّ الْخَيْرَ فِيمَا اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَالشَّرَّ فِيمَا صَرَفَهُ عَنْهُ؛ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وَالثَّقَةُ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَعْدِهِ لِعِبَادِهِ؛ ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وَعَدَمُ الْاِعْتِرَارِ بِالْبَاطِلِ وَكَثْرَةُ أَهْلِهِ وَسَوْكَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ جَمِيعًا تَحْتَ فَهْرِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ؛ ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١١٦) مَتَعَّ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]،

(١) صحيح النسائي (٢٠٥٦).



وَمَعْرِفَةُ زَيْفِ الْبَاطِلِ وَسُرْعَةِ زَوَالِهِ مَهْمَا عَلَا وَارْتَفَعَ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْلَاهُ وَنَاصِرَهُ مَعَ مَنْ كَانَ إِبْلِيسُ مَوْلَاهُ وَقَائِدُهُ.

وَبِمِثْلِ هَذَا كَانَ الْمُصْطَفَى ﷺ يُبَيِّنُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ فِي أَشَدِّ الظُّرُوفِ، وَأَصْعَبِ الْمَوَاقِفِ، فَالصَّحَابَةُ يُعَذِّبُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَهُمْ مُسْتَضْعَفُونَ مُطَارِدُونَ مُشَرَّدُونَ، قَلَّةٌ يُنْكَرُ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ يُبَشِّرُ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَهَزِيْمَةَ الْمُشْرِكِينَ؛ ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلاَّ إِنَّا نَصُرُ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ﴾ (٤٥) ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوَدَّتْهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَالضَّاكِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وَمِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى الدُّعَاءُ وَالِإِحْتِاجُ عَلَى اللَّهِ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى الْمَمَاتِ؛ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥٧) ﴿فَإِنَّهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ حَسَنٌ تَوَّابٌ الْآخِرَةُ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَكْثَرَ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ أَدْمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ؛ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَرَاغَ» (١).

وَمِنْ وَسَائِلِ الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ الْمُدَاوَمَةُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ الصَّلَاةُ الْعُظْمَى بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ فَمَعَهُ الْفَيْتَةُ الَّتِي لَا تُغْلَبُ، وَالْحَارِسُ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يَضِلُّ. وَتَأَمَّلْ - أَخِي الْمُسْلِمُ - كَيْفَ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى الذِّكْرَ بِالثَّبَاتِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفِي مَوْقِفٍ مِنْ أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ وَأَخْطَرِهَا؟! ﴿يَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَامِنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

(١) صحيح الترمذي (٣٥٢٢).



وَإِنَّ مِمَّا يُعِينُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَلُزُومِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ سُلُوكُ سَبِيلِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَاتِّبَاعِ الدَّلِيلِ وَالْأَثَرِ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِمْ عَلِيمًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ؛ وَإِنَّ أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْحَارِجِينَ عَنِ مَنَهْجِ السَّلَفِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ شَكًّا وَاضْطِرَابًا فِي الْحَيَاةِ وَعِنْدَ الْمَمَاتِ.

وَعَلَى الْمُسْلِمِ الْبَاحِثِ عَنِ الثَّبَاتِ وَأَسْبَابِهِ أَنْ يَجْرِصَ عَلَى مُرَافَقَةِ الصَّالِحِينَ، وَالِاتِّفَافِ حَوْلَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَانِيِّينَ الْعَامِلِينَ، وَالِدُّعَاةِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ يُثَبِّتُونَ النَّاسَ عِنْدَ الْفِتَنِ، وَيُؤْمِنُونَهُمْ فِي أَرْمَةِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، وَيُكْثِرُ مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ، فَإِنَّ مُلَازِمَتَهُمْ وَمُجَالَسَتَهُمْ تَزِيدُ الْإِيمَانَ، وَتُثَبِّتُ الْأَقْدَامَ عَلَى طَرِيقِ الرَّحْمَنِ.

وَهَا هُوَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ الْأَيْدِيَ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا». رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وسنده صحيح.

وَلَا يُنْسَى مَوْقِفُ الصَّدِيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ ثَبَتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُذَكِّرًا النَّاسَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَخْبَرَ عَنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحِينَ ثَبَتَ عَلَى الْحَقِّ فِي وَجْهِ الْمُرتَدِّينَ وَحَارَبَهُمْ، حَتَّى نَصَرَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ، وَقَمَعَ فِتْنَةَ الرَّدَّةِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَوَاقِفِ الصَّالِحِينَ فِي تَثْبِيتِ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْفِتَنِ وَشَدِّ أَرْزِهِمْ عِنْدَ الْمِحَنِ مَا وَقَعَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِي نَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دِينَهُ فِي فِتْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ لَمَّا صَارَ إِلَى رَحْبَةِ طَوْقِ بِالشَّامِ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالَ: يَا هَذَا إِنَّكَ وَإِذُ النَّاسِ، فَلَا تَكُنْ شُوْمًا عَلَيْهِمْ، وَإِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ الْيَوْمَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُجِيبَهُمْ إِلَى مَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ! فَيُجِيبُوا فَتَحْمِلَ أَوْزَارَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ كُنْتَ مُحِبُّ اللَّهِ فَاصْبِرْ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ تُقْتَلَ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: (فَكَانَ كَلَامُهُ مِمَّا قَوَى عَزْمِي عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْإِثْنَاعِ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ).



وَقَالَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ نُوحٍ الَّذِي صَحِبَهُ فِي السَّجْنِ وَصَمَدَ مَعَهُ فِي الْفِتْنَةِ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهِ وَقَدْرِ عِلْمِهِ أَقْوَمَ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ نُوحٍ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ خُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ، قَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، اللَّهُ إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي، أَنْتَ رَجُلٌ يُقْتَدَى بِكَ، قَدْ مَدَّ الْخَلْقُ أَعْنَاقَهُمْ إِلَيْكَ لِمَا يَكُونُ مِنْكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَاتَّبِعْ لِأَمْرِ اللَّهِ).

فَكَانَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ثَبَاتِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَلَى قَوْلِهِ الْحَقُّ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مُنَزَّلٌ غَيْرَ مَخْلُوقٍ، حَتَّى ظَهَرَ الْحَقُّ، وَبَطَلَ مَا كَانَ يُرْوَجُ لَهُ أَهْلُ الْبِدْعِ مِنَ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَانْقَمَعَتِ الْفِتْنَةُ، وَخَرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنَ السَّجْنِ شَاخِحًا عَزِيزًا، مُهَابًا مُكْرَمًا، مَذْكُورًا بِهَذَا الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَيَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ وَاصِفًا شَيْخَهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى -: (وَعَلِمَ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطْيَبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ وَخِلَافِ الرَّفَاهِيَةِ وَالنَّعِيمِ، بَلْ ضِدِّهَا، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحَبْسِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْإِرْهَاقِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا، وَأَقْوَاهُمْ قَلْبًا، وَأَسْرَهُمْ نَفْسًا، تَلُوْحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ؛ وَكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الْحَوْفُ، وَسَاءَتْ بِنَا الظُّنُونُ، وَضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضُ، أَتَيْنَاهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ، وَنَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَيَذْهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَيَنْقَلِبَ انْشِرَاحًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا وَطَمَأْنِينَةً).

وَهَكَذَا يَكُونُ دَوْرُ الْأَخْيَارِ وَالصَّالِحِينَ فِي تَثْبِيْتِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْفِتَنِ، وَتَقْوِيَةِ قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ عِنْدَ الْمِحَنِ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ لِي وَلِكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ وَتَوُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَكَفَى، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَمَنْ أَقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فعن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١).

عباد الله: الاستقامة والثبات على دين الله تعالى هو حقيقة الإسلام؛ فإنَّ الإسلام في حقيقته إيمانٌ بالله وحده، ثمَّ استقامةٌ وثباتٌ عليه حتى المماتِ.

وهو دليلٌ على كمال الإيمان، وحسن التوكل على الله تعالى، وقوة النفس، ورباطة الجأش، والتأسي بأبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، الذين ضربوا أروع الأمثلة وأصدقها في الثبات على الدين، وتبليغ رسالات الله تعالى، رغم ما ناههم من الأذى، وما لحقهم من العذاب والضّرر، مما سطره كتاب الله تعالى قرآناً يتلى إلى يوم القيامة في صبر أولي العزم من الرسل، وثباتهم على دين الله وتبليغ رسالاته.

وإنَّ على المسلم الصادق في إيمانه أن يجرّص على الثبات سيما في هذا العصر؛ عصر التحدّيات والفتن والمُغربيات، فبالثبات يعيش المسلم، ويستمرُّ على منهج الله ثابت الأركان، عظيم القيم، مُحققاً أسمى غاياته في الدنيا والآخرة.

وإنَّ عليه أن يجرّص على تحصيل أسباب الثبات، والتخلُّق بأخلاق الثابتين، وفي مُقدّماتها الصبر، فما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر، وأن يجرّص على التحصن بالعلم الشرعي؛ فإنه يجلو العمى، ويبدد الشبهات، ويقود صاحبه إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا نباس، وأن يتأسى بمواقف الصالحين في الثبات على الحق مع شدة العذاب الذي لحقهم.

حدّث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِي فِي فِيهَا أَتَتْ عَلِيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيْلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ

(١) رواه مسلم (٨٣).



رَائِحَةٌ مَاشِطَةَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْشِي ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى - يَعْنِي الْمِشْطَ - مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ اللَّهُ. قَالَتْ: أَخْبِرْهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرْتُهُ.

فَدَعَاها فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرِي؟! قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِبِقَرَةٍ مِنْ نَحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكَ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ.

قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنْ أَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضِعٍ، وَكَأَنَّهَا تَفَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهَا، قَالَ: يَا أُمَّهُ اقْتَحِمِي؛ فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ؛ فَاقْتَحَمَتْ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يَوْسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

اللَّهُ أَكْبَرُ! مَا أَعْظَمَ إِيَّانَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ! وَمَا أَشَدَّ ثَبَاتَهَا! لَقَدْ كَانَتْ تَعِيشُ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ مُكْرَمَةً مُعَزَّزَةً، فَأَخْرَجَهَا الْإِيَّانَ، وَمَلَكَ عَلَيْهَا أَمْرَهَا، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ يَسْتَرُوحُ الْمُؤْمِنُونَ الْعَذَابَ، وَيُؤَاجِهُونَ الطُّغَاةَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَلْطَفُ بِهِمْ، وَيُبْتَلِيهِمْ عَلَى الْحَقِّ بِالْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَيُكْرِمُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لَهِىَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وَلَقَدْ قَالَ الْمُصْطَفَى ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُسْقَى بِإِثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشِطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حِمِيهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»^(١).

فأين نحن من الثبات حال الرخاء قبل حال الشدة؟ وأين الاستقامة على العبادة حال الصحة قبل حال السقم؟ إن أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه، وإن قل، فإنه أدل على الصدق وأكثر أثرًا في القلب، فليجعل كل امرئ منا لنفسه عملاً صالحًا يداوم عليه، لا يعلمه

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).



أحد إلا الله، كصيام ثلاثة أيام من الشهر، أو صدقة يخفيها لمحتاج، أو تلاوة يومية لورد من القرآن، أو تسيحات يسبح الله تعالى، أو ركعات في جوف الليل، ومن عجز فقبل النوم.. المهم أن تكون بينك وبين الله خبيثة من عمل صالح لا يطلع عليها إلا الله تعالى، فإنها من أعظم العمل، وأنفعه في الدنيا والآخرة، ومن أسباب استجابة الدعاء.. نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ،
والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.





• الثبات على الطاعات عند السلف (١)

• الخطبة الأولى:

الحمد لله، الحمد لله العليّ الكبير، تعالى وتنزهه عن الشبيه والنظير والمعين والظهير، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، أحمدته سبحانه وأشكره أعطى الكثير، وتجاوز عن التقصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصةً مُخلصاً أرجو بها النجاة من عذاب السّعير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله البشير النذير، والسراج المنير، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ذوي القدر العليّ والشرف الكبير، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وعلى نهج الحق يسير، وسلّم التسليم الكثير.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فإن الكرامة كرامة التقوى، والعزّ عزّ الطاعة، والأنس أنس الإحسان، والوحشة وحشة الإساءة، الحياة -يا عبد الله- في مداومة الذكر، والعافية في موافقة الأمر، والنجاة في لزوم الكتاب والسنة، والفوز لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

إخوة الإيمان:

تأتي مواسم الرّحمت، فتَهْبُ عَلَى الْعِبَادِ بِخَيْرِهَا وَخَيْرَاتِهَا، ونورها وهداياتها، تأتي فتتروّض فيها النفوس على صالح الأعمال، وتكتسب فيها كل هدى ورساد. لَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ أَهْمِيَّةِ الْإِسْتِمْرَارِ عَلَى الطَّاعَةِ فِيهِ لَا تَخْفَى، وَلَنْ نَتَذَكَّرَ الْأَسْبَابَ الْمَعْنِيَّةَ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَيْهَا - مع أهميّة التذكير بها دوّماً - فهي معلومة كإدمان الدعاء والتضرع، وكثرة

(١) إبراهيم بن صالح العجلان.



الذكر، واختيار الصحبة الصالحة، وتأمل قصر الحياة الدنيا وزوالها، ومطالعة أخبار الأنبياء والعلماء والصالحين المصلحين من المتقدمين..

وهنا سَنَفِّقُ مَعَ صَفَحَاتٍ وَضَاءَةٍ، وَصُورٍ بَرَّاقَةٍ، مِنْ سِيرِ سَلَفِنَا وَصَالِحِي أُمَّتِنَا، وَشَأْنِهِمْ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَضِّهِمْ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ.

إِنَّ اسْتِذْكَارَ أَخْبَارِ هَؤُلَاءِ وَسِيرِهِمْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ لِشَحْنِ النُّفُوسِ لِلْمَعَالِي، وَارْتِقَاءِ الْهَمَمِ لِلْخَيْرِ، وَعَدَمِ الْإِعْجَابِ بِالْعَمَلِ.

لَقَدْ كَانَ سَلَفُكُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَصْدَقَ الْأُمَّةِ عَمَلًا، وَأَشَدَّهُمْ لَهَا إِتْقَانًا، وَخَبْرَهُمْ فِي هَذَا عَجَبٌ مِنَ الْعُجَابِ، لَمْ يَكُونُوا مُوسِمِيِّينَ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَاتَرَيْنَ بَقِيَّةَ عَامِهِمْ، كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَّبِثُ بِعَمَلِهِ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ جَسَدِهِ، فَلَا يَفْصَلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا خُرُوجَ الرُّوحِ.

هَذِهِ الْجَوَارِحُ الَّتِي تَمَسَّكَتْ بِصَالِحِ الْعَمَلِ كَانَتْ تَحْمُلُ قُلُوبًا مَلَأَى بِالتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ، وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ لِلْمَلِكِ الدِّيَانِ، حَتَّى هَانَ كُلُّ نَصَبٍ وَتَعَبٍ فِي سَبِيلِ الْجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ، بَلْ كَانَتْ حَلَاوَةُ الْحَيَاةِ لَا تُدَاقُ إِلَّا فِي جَوْ هَذِهِ الطَّاعَاتِ.

وَمَعَ قُدُوتِنَا وَحَبِيبِنَا ﷺ وَخَبْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ:

كَانَ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا وَاطْبَ عَلَيْهِ حَيَاتُهُ كُلُّهَا، وَإِنْ شَغَلَهُ شَاغِلٌ عَنْهُ قَضَاهُ فِيهَا بَعْدَ، تُحَدِّثُنَا أُمَّنَا أَمْ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَتَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ، وَكَانَ إِذَا نَامَ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ مَرَضَ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً (١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ سُئِلَ الْخَبِيرَةُ عَائِشَةُ عَنْ عَمَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: هَلْ كَانَ يُحْضُ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ؟ فَتَقُولُ: لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيْكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَطِيعُ، (٢) (وَالدَّيْمَةُ: الْمَطَرُ الدَّائِمُ، شَبَّهَتْ عَمَلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَوَامِهِ بِدَيْمَةِ الْمَطَرِ).

مَسْجِدُ قِبَاءَ يُبْعَدُ عَنْ دَارِهِ وَمَسْجِدِهِ مَسَافَةٌ لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ زِيَارَةَ هَذَا الْمَسْجِدِ وَالصَّلَاةَ فِيهِ جُزْءًا مِنْ بَرَّنَاجِهِ الْأُسْبُوعِيِّ.

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٦) ومسلم (٧٨٣).



قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي قِبَاءَ كُلِّ سَبْتٍ، وَكَانَ يَأْتِيهِ رَاكِبًا وَمَاشِيًا». هَذِهِ الْقُدْوَةُ الْمُثَلِّي، وَالْهِمَّةُ الْمُشْتَعَلَةُ بِالْأَعْمَالِ، كَانَتْ صُورَةً حَيَّةً انْعَكَسَتْ عَلَى صَحَابَتِهِ ﷺ،

فَهَذَا بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ يُسِرُّهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَأَنَّهُ سَمِعَ ذَفَّ نَعْلَيْهِ فِيهَا، فَيَسْأَلُهُ عَنْ أَرْجَى عَمَلٍ عَمَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ؟ فَإِذَا الذِّكْرِيَّاتُ تَطَوَّفُ فِي ذَاكِرَةِ بِلَالٍ، فَلَا يَرَى سَبْقَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَجِهَادِهِ، وَلَا يَرَى تَعَرُّضَهُ لِلِابْتِلَاءِ أَوَّلَ الدَّعْوَةِ، وَصَبْرَهُ عَلَى أَلْمَاهَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا كَانَ أَرْجَى عَمَلٍ عِنْدَهُ هُوَ مُوَاطَبَتُهُ وَاسْتِمْسَاكُهُ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْرُوفِ، فَيَقُولُ: «مَا عَمَلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ». (١)

اشْتَكَّتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ حَالَهَا لِابْنَيْهَا، وَشِدَّةَ حَاجَتِهَا وَرَوْجِهَا لِلْخَادِمِ؛ فَأَوْصَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَوْرَادٍ مَخْصُوصَةٍ، قَالَ هُمَا: «أَلَا أَعْلَمُكُمْ خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَحْذَمْتُمَا مَصَاجِعَكُمْ أَنْ تُكْبِرَاهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ». (٢)

فَإِذَا الزَّوْجَانِ يَتَلَقَّيَانِ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ، فَلَا يَدَعَانِيَا طِيلَةَ حَيَاتِهِمَا، لَا فِي سَفَرٍ وَلَا حَضْرٍ، وَلَا فِي سَلْمٍ وَلَا حَرْبٍ، يُحَدِّثُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ نَفْسِهِ، فَيَقُولُ: «مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ»، فَقَالَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِينِ؟ قَالَ: «وَلَا لَيْلَةَ صِفِينِ».

وَمَعَ خَيْرِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْعَمَلِ، وَمَا أَعْجَبَ أَخْبَارَ ابْنِ عُمَرَ! يَرَى ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُؤْيَا فِي مَنَامِهِ، فَيَقْضُهَا عَلَى أُخْتِهِ حَفْصَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَحْكِيهَا حَفْصَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ» (٣).

(١) رواه البخاري (١١٤٩).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠٥) ومسلم (٢٧٢٧).

(٣) رواه البخاري (١١٥٦) ومسلم (٢٤٧٩).

انتهى التعيير، ولكن هل انتهى أثره؟ كلا، كلا، لقد فعلت هذه الكلمات المعذوبات فعلها في نفس ابن عمر فهلح، وشحد همته لقيام الليل، ليس مرة واحدة ولا مرات، وإنما لجميع ليالي العمر، غيرت تلك الكلمات مجرى حياة ابن عمر وبرئانه في اليقظة والمنام. قال سالم بن عبد الله: فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وهذا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان شاباً يافعاً في زمن النبي ﷺ يشع همة وعملاً في الطاعات، فكان يسرد الصوم سرداً، فنهاه النبي ﷺ وقال له: «صم من كل شهر ثلاثة أيام»، فقال: إني أطيق أكثر من ذلك يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «يكفيك من كل شهر خمس»، قال: إني أطيق أكثر من ذلك، فقال: «سبعاً»، فقال: إني أطيق أكثر، فقال: «تسعاً»، فقال: إني أطيق أكثر، حتى قال له النبي ﷺ: «لا صوم فوق صوم داود، صم يوماً، وأفطر يوماً».

فاستمسك ابن عمرو بهذا العمل وهو في أول شبابه بعد البلوغ، وما زال مواظباً عليه طيلة عمره حتى شاب وضعف ورق عظمه، فكان يقول: «ليتني كنت أخذت برخصة رسول الله ﷺ؛ أي: صيام ثلاثة أيام^(١). ومع ذلك لم يترك عمله الذي واطب عليه طيلة حياته، فكان يصوم خمسة عشر يوماً، ويفطر خمسة عشر يوماً حتى لقي الله تعالى.

وإن تعجب فعجب خبر أم حبيبة، وخبر من بعدها في التسلسل على مواظبة العمل، تقص علينا أم حبيبة أم المؤمنين خبرها، فتقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة؛ بني له بين بيت في الجنة»^(٢).

قالت أم حبيبة: «فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ»، وقال عتبة بن أبي سفيان الراوي عن أم حبيبة، قال في مرضه الذي مات فيه: «فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة». ويستمر التسلسل العملي لرواة الخبر، فيقول عمرو بن أوس: «ما تركتهن منذ سمعتهن

(١) رواه البخاري (٣٤١٩) ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه مسلم (٧٢٨).



مِنْ عُبْتَبَةَ»، وَيَقُولُ النُّعْمَانُ بْنُ سَالِمٍ: «مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ».
 * وَهِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ لَهَا مَعَ صَلَاةِ الضُّحَى شَأْنٌ وَأَيُّ شَأْنٍ! كَانَتْ
 تُصَلِّي كُلَّ ضُحَى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَشْغَلَهَا أَيُّ شَاغِلٍ عَنْهَا، تُعَبَّرُ عَنْ شِدَّةِ اهْتِمَامِهَا
 بِهَا، فَتَقُولُ: «لَوْ نَشَرَّ لِي أَبُوَايَ مَا تَرَكْتُهُنَّ».

عَدِيُّ بْنُ حَاتِمِ الطَّائِيُّ أَحَدُ الصَّحَابَةِ كَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ، قَالَ عَنْ
 نَفْسِهِ: «مَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا عَلَى وُضُوءٍ».

وَهَذَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ إِمَامُ التَّابِعِينَ، تَنَزَّلَ بِهِ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ وَعِنْدَ رَأْسِهِ بَنَاتُهُ يَبْكِينَ
 عَلَيْهِ، فَقَالَ هُنَّ: «أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ؛ فَوَاللَّهِ مَا فَاتَنِي تَكْبِيرُهُ الْإِحْرَامِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً».
 نَزَلَ الْمَوْتُ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسِ الْأَوْدِيِّ، فَبَكَتْ عِنْدَهُ ابْنَتُهُ، فَقَالَ: (لَا تَبْكِي؛ فَقَدْ
 خَتَمْتُ الْقُرْآنَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَرْبَعَةَ آلَافِ خَتْمَةٍ).

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، أَحَدُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَقَرَأْتُهُمْ، جَلَسَ سَبْعِينَ سَنَةً يُعَلِّمُ النَّاسَ
 الْقُرْآنَ مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ إِلَى أَيَّامِ الْحَجَّاجِ، فَأَخَذَ عَنْهُ الْقُرْآنَ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاؤُ.

وَمَاتَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، فَعَسَلُوهُ، فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى آثَارِ سَوَادٍ فِي
 ظَهْرِهِ، فَسَأَلُوا؛ فَعَرَفُوا أَنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَحْمِلُ جِرَابَ الدَّقِيقِ لَيْلًا عَلَى ظَهْرِهِ لِيُعْطِيَهُ الْفُقَرَاءُ!
 تِلْكَ عِبَادَ اللَّهِ شَذَرَاتٌ مِنْ أَحْبَابِ الْقَوْمِ مَعَ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَمُسْتَحَبَّاتِ الطَّاعَاتِ، فَلَا
 تَسَلُّ بَعْدَ ذَلِكَ: كَيْفَ يَكُونُ حِرْصُهُمْ عَلَى الْوَاجِبَاتِ وَاهْتِمَامُهُمْ بِالْفَرَائِضِ.

لَا تَعْرِضَنَّ بِذِكْرِنَا مَعَ ذِكْرِهِمْ لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمُقْعَدِ
 بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَفَعَّلِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ،
 أَقُولُ مَا سَمِعْتُمْ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخطبة الثانية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.
أَمَّا بَعْدُ:

فِيَا إِخْوَةَ الْإِيمَانِ: الثَّبَاتُ عَلَى صَالِحِ الْعَمَلِ هُوَ نِدَاءُ الرَّحْمَنِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].
وَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ لِصَفْوَتِهِ مِنْ رُسُلِهِ؛ قَالَ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]

فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ، تَحْتَاجُ إِلَى سِقَايَةٍ وَرِعَايَةٍ لِتَنْمُوَ وَتُؤْتِيَ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَلَنْ يَبْلُغَ الْعَبْدُ مَنْزِلَةَ عِبَادِ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ إِلَّا بِالثَّبَاتِ عَلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ ثَبَاتًا لَا يَنْقَطِعُ دُونَ الْمَوْتِ.

عبادة الله:

وَإِذَا وَفَّقَ الْعَبْدُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الطَّاعَاتِ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ الْمَكَاسِبُ، وَحَقَّتْ بِهِ الْمَوَاهِبُ، فَحَبَبَهُ اللَّهُ تَزْفُّ لَهُ؛ «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» (١).
وَسَيِّئَاتُهُ وَخَطِيئَاتُهُ فِي تَكْفِيرٍ دَائِمٍ؛ «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرَ» (٢).
وَإِنْ حَبَسَهُ مَرَضٌ أَوْ سَفَرٌ عَنْ طَاعَتِهِ، فَأَجْرُهُ مَدْخَرٌ، وَثَوَابُهُ مَحْفُوظٌ؛ «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» (٣).

(١) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٦).

الْمُدَاوِمُ عَلَى الطَّاعَةِ أَهْلٌ لِأَن يُحْتَمَ لَهُ بِخَيْرٍ؛ فَالْوَاقِعُ وَالسَّنَنُ تَشْهَدُ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، الدَّوَامُ عَلَى الطَّاعَةِ فِي الرَّخَاءِ سَبَبٌ لِتَقَشُّعِ الْكُرُوبِ فِي الشَّدَّةِ؛ «تَعَرَّفَ عَلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ»^(١).

الدَّوَامُ عَلَى الطَّاعَةِ سَبَبٌ لِطَمَأِينَةِ الْقَلْبِ، وَرَاحَةِ النَّفْسِ؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فِيَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، هَا قَدْ طَرَقْتُمْ أَبْوَابًا مِّنَ الطَّاعَاتِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ الْخَالِيَاتِ، فَوَاصِلُوا الْمَسِيرَ فِي دُرُوبِ الطَّاعَاتِ، وَأَمْلُوا دِيوَانَ حَسَنَاتِكُمْ بِالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، فَمَنْ زَرَعَ فِي دُنْيَاهُ حَصَدًا فِي آخِرَاهُ، وَمَنْ تَغَافَلَ عَنِ بَذْرِ الْحَصَادِ، تَأَوَّهَ نَادِمًا يَوْمَ التَّنَادِ.

ثُمَّ أَبْشِرُوا أَيُّهَا الْعَامِلُونَ وَأَمْلُوا؛ فَرَبُّكُمْ كَرِيمٌ شَكُورٌ، يُرِي الصَّدَقَاتِ، وَيُضَاعِفُ الْأُجُورَ؛ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ. وَإِنَّا لَهُ كَنُزُوبٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ...



(١) صححه الألباني في التوسل (٣٥).

حسن الخلق (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله، أحمدته حمدًا يليق بجلال وجهه وعظمة سلطانه كما يحمده المتقون، وأشكره شكرًا يزيد نعمه التي لا يحصيها العادون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لاذ بحماه الخائفون، وتعلق بأذيال رجائه الراجون، وألح في سؤاله السائلون. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ أدبه ربه فأحسن تأديبه، ثم أثنى على خلقه فكان خلقه القرآن، يتلوه في النهار، ويتجافى جنبه عن مضجعه والناس نيام، ﷺ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا في النهار فرسانًا، وفي الليل قيامًا، يقتنون لرهبهم ويسجدون، ويتعبدون ويخشعون؛ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله واستباق الخيرات، والمسارعة في الباقيات الصالحات، ومجانبة المعاصي والمحرمات، والصبر على المكروهات، ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

أيها الإخوة المؤمنون: الأخلاق الكريمة، والصفات الحسنة، لها اعتبار كبير في دين الله تعالى، وإذا كانت العلاقة بين الخالق والمخلوق تُبنى على الإيمان والإخلاص والمتابعة للنبي ﷺ؛ فإن علاقات المخلوقين فيما بينهم يُبنى أغلبها على أساس الأخلاق والسلوك؛ لذا أخبر ﷺ أن البر حسن الخلق.

بل جعل النبي حسن الخلق من أبواب الخيرية، قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا»، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا» (٢).

(١) إبراهيم بن محمد الحقييل.

(٢) رواه البخاري (٣٥٥٩) ومسلم (٢٣٢١).



وأخبر عليه الصلاة والسلام أن حسن الخلق أفضل ما أعطي المسلم، فعن أسامة بن شريك قال: قالوا: يا رسول الله! ما أفضل ما أعطي المرء المسلم؟ قال: «حسن الخلق»^(١).

ما كان هذا الاهتمام منه ﷺ بحسن الخلق إلا لعظم منزلته عند الله تعالى، كيف لا وهو سبب للقرب من الله تعالى، ونيل محبته؟! فعن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٣).

وحسن الخلق كذلك طريق يوصل إلى كمال الإيمان؛ قال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٤).

ويعظم شأن الأخلاق الحسنة حتى يكون صاحبها في عبادة دائمة يعادل درجة الصائم القائم، مع أنه قد لا يكون مجتهداً في نوافل العبادات، لكن تقصيره في جانب النوافل يجبره دماثة خلقه وطيب معشره، فأدرك بذلك من الأجر ما يدركه الصائم الذي لا يفطر والقائم الذي لا يفتر، يقول ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(٥).

والأخلاق الحسنة تثقل ميزان العبد في وقت يكون أحوج ما يكون إلى مثقال الذرة من الأجر؛ بل صحَّ في الحديث أن حسن الخلق هو أثقل الأعمال الصالحة في الميزان، قال عليه الصلاة والسلام: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خَلْقٍ حَسَنٍ»^(٦).

وحسن الخلق كذلك من أقوى الأسباب التي تُدخل الجنة، فقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام: ما أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق». قيل: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الجوفان: الفم والفرج»^(٧).

(١) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، للوادعي (١٦).

(٢) صحيح الترمذي (٢٠١٨).

(٣) صحيح الجامع (١٧٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢) وصححه الألباني في كتاب الإيمان لأبي عبيد (٢٨).

(٥) صحيح أبي داود (٤٧٩٨).

(٦) صحيح الترمذي (٢٠٠٢).

(٧) صحيح الترمذي (٢٠٠٤) قال الألباني: (إسناده حسن).



وَيُعْطَى صَاحِبُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ بَيُوتًا فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسْطُهَا وَرَبْضُهَا؛ جِزَاءً لِرَقِيَّتِهِ فِي مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَمَكَارِمِهَا، فَقَدْ رَوَى أَبُو أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمُ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ»^(١)، فَهَنِيئًا لِمَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْبُيُوتَ كُلِّهَا، وَالتِّي هِيَ جِزَاءٌ لِمَعْرِفَةِ الْخُلُقِ الْحَسَنِ.

وقد ورد أن المرأة إذا تزوجت عدة مرات في الدنيا، نتيجة وفاة أزواجها أو طلاقها منهم، فإذا دخلت الجنة ودخل أزواجها الجنة فإنها تُخَيَّرُ، فتختار أحسنهم خلقًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنْ اسْتَعْرَاضَ النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى فَضْلِ حَسَنِ الْخُلُقِ، وَمَكَانَتِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتَعْدَادِ مَزَايَاهُ، لَا يَكْفِيهِ وَقْتُ قَلِيلٍ، وَلَا يَتَسَعُّ لَهُ هَذَا الْمَقَامُ؛ لَكِنْ هَذَا غِيضٌ مِنْ فَيْضٍ، وَتِلْكَ أَمْثَلَةٌ تَنْبِيهُ الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ، وَتَوْضِيحَ الدَّرَجَاتِ لِلسَّالِكِينَ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ فَضْلُ حَسَنِ الْخُلُقِ عَلَى مَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْجِزَاءِ؛ بَلْ شَمِلَ الدُّنْيَا أَيْضًا؛ فَمُلِّكْ قُلُوبَ النَّاسِ، وَنَيْلُ مَحَبَّتِهِمْ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، قَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ يَوْمًا لِقَوْمِهِ - وَكَانَ سَيِّدَهُمْ - : (إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ، لَيْسَ فِيَّ فَضْلٌ عَلَيْكُمْ؛ وَلَكِنِّي أَبْطَلُ لَكُمْ وَجْهِي، وَأَبْذُلُ لَكُمْ مَالِي، وَأَقْضِي حَقُوقَكُمْ، وَأَحْوَطُ حَرِيمَتَكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِي فَهُوَ مِثْلِي، وَمَنْ زَادَ عَلَيَّ فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وَمَنْ زَدْتَ عَلَيْهِ فَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا يَدْعُوكَ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ؟ قَالَ: أَحْضَهُمْ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ. وَقَدْ ذَهَبَ الْخُلُقُ الْحَسَنُ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).

إذا تقرر هذا الفضل في الخلق الحسن فما هو؟ وما كيفية إدراكه؟ حتى يحصل المسلم على ثوابه؟!

سئل الإمام أحمد - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَنْ حَسَنِ الْخُلُقِ فَقَالَ: (أَنْ لَا تَغْضَبَ وَلَا تَحْتَدَّ)، وَقَالَ أَيْضًا: (أَنْ تَحْتَمِلَ مَا يَكُونُ مِنَ النَّاسِ).

وإنما جعل حسن الخلق في عدم الغضب والحدة؛ لأن الغضب والحدة يولدان الاعتداء باليد، والجرح باللسان سبًا وشتنًا، وقد يولدان الغيبة والنميمة والكذب، وكل ذلك يتنافى مع

(١) حسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٨٠٠).



حسن الخلق. وقال الحسن وابن المبارك - رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى -: (هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى)، وقال الواسطي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (هو أن لا يخاصم ولا يخاصم، من شدة معرفته بالله).

ونقل الحافظ ابن رجب عن بعض أهل العلم قوله: (حسنُ الخلق: كظم الغيظ لله، وإظهارُ الطلاقة والبشر إلا للمبتدع والفاجر - المجاهر بفجوره-، والعفو عن الزالين إلا تأديباً أو إقامة حدٍّ، وكف الأذى عن كل مسلم أو مُعاهد، إلا تغييراً لمنكر، أو أخذاً بمظلمة لمظلوم، من غير تعدٍّ).

قال السفاريني: (وهذا في غاية التحقيق... ثم ذكر أن من حسن الخلق: أن يحب للمسلمين ما يجب لنفسه، وأن يتواضع لهم، ولا يفخر عليهم، ولا يختال... ولا يتكبر ولا يعجب، وإن تكبر عليه غيره فليحمل منه ذلك، ويعامله باللين، ويغض الطرف عن أهل الرقاعة من المتكبرين، وأن يوقر الشيخ الكبير، ويرحم الطفل الصغير، ويعرف لكل ذي حق حقه، مع طلاقة الوجه، وحسن التلقي، وداوم البشر، ولين الجانب، وحسن المصاحبة، وسهولة الكلمة، مع إصلاح ذات بين إخوانه، وتفقد أقرانه وأخدانه، وأن لا يسمع كلام الناس بعضهم في بعض، وأن يبذل معروفه لهم لوجه الله، لا لأجل غرض، مع ستر عوراتهم، وإقالة عثراتهم، وإجابة دعواتهم، وأن لا يقف موقف التهم، وأن يحلم عن جهل عليه، ويعفو عن ظلمه...) اهـ.

أبها الإخوة: هذا وزن حسن الخلق في دين الله تعالى، وهذه حدود الأخلاق الحسنة وصفاتها؛ فليزن كل منا أخلاقه بميزانها، فمن كان سيء الخلق أو ضعيفاً يتعامل فقط حسب ما يعامله الآخرون، فليحسن خلقه، ومن كان ذا خلق حسن فليحمد الله تعالى، ويسأله الثبات.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَائِنُ غَنَّاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿فصلت: ٣٤-٣٦﴾.



الخطبة الثانية:

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم، إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا عباد الله! اتقوا الله وحسنوا أخلاقكم؛ فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق، والبذاءة والفحش وسوء الخلق تدل على قلة التقوى. حسن الخلق هو: بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى. وقيل: التحلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام، والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له. وتعطي من حرمك من التعليم، والمنفعة، والمال. وتعفو عمن ظلمك في دم، أو مال، أو عرض. وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب). وقال ابن القيم: (وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل).

وقال الماوردي في تعريف حسن الخلق، ووصف حسن الخلق: (أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة).

وقال الشيخ ابن سعدي في حسن الخلق: (هو خلق فاضل عظيم، أساسه الصبر، والحلم، والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلق أجمعين، فهو احتمال الجنايات، والعفو عن الزلات، ومقابلة السيئات بالحسنات، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].



أيها المؤمنون: لقد كان نبيكم وحبيكم وقدوتكم ﷺ أحسن الناس أخلاقاً، وألطفهم معشراً، وأكثرهم عفواً، وأوسعهم حلماً، كما قال ربه عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال عنه في تعامله مع أصحابه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وإن من أهداف بعثته عليه الصلاة والسلام الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، كما قال في الحديث: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١).

وقد أمر رسول الله ﷺ بلزوم الأخلاق الحسنة، ومجاهدة النفس على التحلي بها، وليس عذراً لصاحب الخلق السيء أن يقول: طبعٌ جُبلت عليه؛ إذ إن من الأخلاق ما هو مكتسب يؤخذ بالدربة والريضة؛ ودليل ذلك أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «أفشِ السَّلامَ وابذلِ الطَّعامَ، واستخِي من الله استحياءك رجلاً من أهلك، وإذا أسأت فأحسن، ولتُحسِّنْ خُلُقَكَ ما استطعت»^(٢)، وفي حديث آخر قال له: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٣). فهذا يدل على أن منه ما هو مكتسب يربي الإنسان نفسه وأهله وأولاده عليه، وكذا أن لا يكون الخلق فقط بناءً على تعامل الناس، فإن أسأوا وأساء، وإن أحسنوا أحسن، بل قال: «وخالق الناس بخلق حسن»، كيفما كان تعاملهم، بل حتى المسيء منهم قال الله عنه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

واسمعوا إلى هذا الكلام الجميل من الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-، حيث قال: (وقوله ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن» هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه؛ فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلماً لهم ومفقهماً وقاضياً، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالفة الناس بخلق حسن ما لا

(١) صحيح الجامع (٢٣٤٩).

(٢) السلسلة الصحيحة (٣٥٥٩).

(٣) صحيح الترغيب (٣١٦٠).



يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به ولا يخالطهم. وكثيراً ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته، إهمال حقوق العباد بالكلية، أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيزٌ جداً، لا يقوى عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصدّيقين).

أيها الإخوة: كم يحتاج الناس منا إلى حسن الخلق! إننا لن نسع الناس بأموالنا ولا بجاهنا، ولكن يسعهم منا حسنُ أخلاقنا؛ لا يريد من يتعامل معنا منا إلا الكلمة الطيبة، والابتسامة الجميلة، والتعامي عن الهفوة، وتلمس العذر.

قال أيوب: (لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عمّا في أيدي الناس، والتجاوز عنهم). وقال سلمة بن دينار: (السيئُ الخلق أشقى الناس به نفسهُ التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته، ثم ولده، حتى أنه ليدخل بيته، وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته، فينفرون منه فرقاً منه).

يحتاج إلى حسن أخلاقنا والدانا حتى نحقق برّهما ونحوز رضاهما، ومن أحق الناس بحسن أخلاقنا أهلونا وأولادنا حتى نعينهم على القيام بحقنا وبرنا، كما يحتاجه إخواننا وقرابأتنا حتى تدوم المودة، وتتحقق الصلة؛ وحسنُ الأخلاق مع الجيران هو من إكرام الجيران، والنبي ﷺ يقول: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِم جاره»^(١).

ومن أشدّ الناس حاجة إلى الأخلاق الحسنة من يكثر تعاملهم مع الناس، وتشتدّ حاجة الناس إليهم، من العلماء وطلاب العلم؛ حاجة الناس إليهم في الفتيا والسؤال عن أمور الدين، والقضاء؛ لفصلهم في النزاعات والخصومات، والمسؤولون والمدراء، لكثرة تعامل من هم تحت إدارتهم معهم.

ويجب أن يتحلّى بالخلق الحسن من كان في مواجهة جماهير الناس، وتشتدّ الحاجة إليهم، كالأطباء والموظفين في الدوائر التي يكثر مراجعوها؛ فعليهم بالصبر واللين، والمداورة والرفق، وأن يُحَسِّنُوا أخلاقهم للناس، ولا تكن كثرة المراجعين سبباً لسوء أخلاقهم؛ فذلك امتحانٌ لهم، ولا شك أنهم ليسوا كغيرهم في الثواب والأجر.

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ومسلم (٤٧).



كم من موظف مسؤول نال محبة الله والناس بحسن أخلاقه! وكم من آخر مبعوض عند الله والناس لسوء خلقه، وحادّة لسانه وقلة صبره!

وكم من موظف دخلت عليه في حاجة لك فربما عجز عن قضائها لك؛ لكنه أزال ما في قلبك، وشفى صدرك بكلمة طيبة، واعتذار لطيف، واستقبال حسن، وآخر لا هو الذي قضى معروفًا، ولا ردّ ردًّا لطيفًا، وصدق القائل:

لا خيل عندك تهديها ولا مالٌ فليحسنِ النطقُ إن لم يحسن الحال

كم من موظف كانت لك عنده حاجة فقضاها، مع ابتسامة جميلة، وكلمة طيبة، ومبادرة لطيفة، وتواضع جمّ، فنال عندك حسن الثناء والدعاء، وعند الله الثواب والجزاء، وتجد آخر عبوس الوجه، مقطب الجبين، إذا نظر نظر شزرًا، وإذا تكلم تمطط في كلامه، يلقي إليك أوراقك بطرف أصابعه، كأنها ينفق عليك أو يرزقك، بل ربما سد الأبواب في وجهك ليُخرج بغير حق ما في جيبك، ويضطرك للرشوة عدوانًا وظلمًا، فعسرّ عليك ما كان يسيرًا، وحجّر من الأمر ما كان واسعًا، وكلفك مالًا بغير وجه حق، فأكل السُّحت، وباء بالظلم والإثم، وما علم أنه إنما أكل في بطنه نارًا، واستحق بها جناه عارًا، وكفاه دعوة النبي نكالًا وبوارًا، فقد قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به»^(١).

قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته -أي: نومة القيلولة- فعرض له رجل بيده طومار -صحيفة مطوية داخل اسطوانة- وخاف أن يدخل بيته قبل أن يقضي حاجته، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه فشجّه، فقام عمر في الشمس والدماء تسيل على وجهه، ولم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر للرجل بحاجته، وخلّى سبيله.

إنك أيها الحبيب مُحْتَبَرٌ مُتَحَنٌّ في هذه الحياة، فاختر لنفسك ما شئت، وأحب للناس ما تحب لنفسك، وعامل الناس كما تحب أن يعاملوك به، واعلم بأنه لا يبقى للعبد في الدنيا إلا

(١) رواه مسلم (١٨٢٨).



الذكر الجميل، وعند الله الثواب الجزيل، فكن حسن الأخلاق مع الناس؛ حتى تنال محبة الله تعالى ومحبتهم، وتذكر بخير حياً وميتاً.
فإنهم ذهبَتْ أخلاقهم ذهبوا
اللهم كما حسنت خَلَقنا فحسن أخلاقنا، اللهم صلِّ على محمد وآله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.



بالحمم تنهض الأمم^(١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إنه هو البر الرحيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الداعي إلى الدين القويم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وزوجاته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

اتقوا الله -عباد الله-، وأعدّوا العدة ليوم تنفطر فيه الأكباد وتتقلب فيه القلوب والأبصار، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ أَلَسَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

أيها الناس: اعلّموا أن الإسلام دين العزة والمجد، ودين الرفعة والجد، فلا كسل ولا خمول ولا ذلة ولا تواكل في الإسلام، ومن هنا فإنّ ديننا الحنيف يحثّ على علوّ الهمة ورفعة العزيمة وقوة الإرادة، إن عالي الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته، وتحقيق بغيته، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره، وأن المصالح والخيرات، واللذات والكمالات كلها لا تنال إلا بحظ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا على جسر من التعب:

بصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكَبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جَسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
فَقُلْ لِمُرَجَّجِي مَعَالِي الْأُمُورِ بغير اجتهادٍ: رجوت المحالاً

معاشر الآباء والأمهات والإخوة والأخوات: ما من عاقل إلا وله في حياته هدف يسعى لتحقيقه، ورسالة يوّد أداءها، أي: أن له همّاً في هذه الحياة؛ لذا قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء

(١) عبدالله بن عمر البكري.



حارث وهمام»^(١). قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ فِي مَعْنَى هَمَامٍ: (وَإِنَّمَا كَانَ أَصْدَقُهَا لِأَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يَهْمُ بِأَمْرٍ، خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا). إِذَا فَكَلَ أَحَدٌ يَحْمِلُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ هَمًّا وَهَدَفًا يَجْرِكُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَيُوجِهُ طَاقَاتِهِ لِتَحْقِيقِهِ.

اجتمع ذات يوم بفناء الكعبة أربعة من أبناء سادات قريش هم: عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، وأخوه مصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، فقال لهم مصعب: «تَمَنَّوْا، فَقَالُوا: ابْدَأْ أَنْتَ، فَقَالَ: وَلايَةِ الْعِرَاقِ وَتَزَوُّجِ فُلَانَةٍ وَفُلَانَةٍ وَسَاهِمَا، وَتَمَنَّى عُرْوَةُ الْعِلْمَ وَالْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَتَمَنَّى عَبْدُ الْمَلِكِ الْخِلاَفَةَ، وَتَمَنَّى ابْنُ عَمْرِو الْجَنَّةَ. فَسَعَى كُلُّ مِنْهُمُ لِإِدْرَاكِ غَايَتِهِ، وَاسْتَجْمَعَ قَوَاهُ فِي تَحْقِيقِ أَمْنِيَّتِهِ، فَنَالَ مَصْعَبٌ وَلايَةَ الْعِرَاقِ وَتَزَوَّجَ بِمَنْ سَمَّى، وَنَالَ عُرْوَةُ الْفِقْهَ فَكَانَ مِنَ الْأَثَمَةِ الْعِظَامِ وَمِنْ فَقْهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ، وَنَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْخِلاَفَةَ وَالْمَلِكُ، وَاجْتَهَدَ ابْنُ عَمْرِو فِي طَلْبِ الْجَنَّةِ، وَنَرَجُو أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا».

وفي القصة شاهدان: الأول: كيف رَبَّى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَمَاذَا كَانَ هَمُّهُمْ فِي الْحَيَاةِ، وَكَيْفَ كَانُوا سَادَةَ الدُّنْيَا بِذَلِكَ. فَابْنُ عَمْرِو الَّذِي تَرَبَّى بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ أَسْمَى الْأَرْبَعَةِ هِمَّةً وَأَنْبَلَهُمْ طَلِبَةً، فَكَانَ هَدَفُهُ أَنْبَلُ، وَكَانَتْ أَمْنِيَّتُهُ أَسْمَى.

والشاهد الثاني: تفاوت هم الرجال مع أن مطالب الأربعة كلها في حدود المباح، لكن شتآن بين من جعل همه بلوغ الجنة أو الفقه في الدين وهو طريق إلى الجنة، وبين من جعل همه التزوج بامرأة أو نيل منصب زائل، إن تركه الناس فيه فلم يخلعوه لم يتركه الموت حتى ينزله من كرسيه ويقذف به تحت التراب.

وفي القصة شاهد آخر: وهو أن ما يحمله الإنسان بداخله من هم ورسالة يُجَرِّكُ طَاقَاتِهِ نَحْوَ تَحْقِيقِهِ، فَإِذَا بِهِ يَتَحَقَّقُ، لَا لِأَنَّهُ تَمَنَّاهُ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ جَدَّ فِي تَحْقِيقِهِ وَبِذَلِكَ سَبَابُ الْوَصُولِ إِلَيْهِ، فَتَحَقَّقَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وتأمل معي -أخي الكريم- تفاوت الهمم وكيف تتفاوت مقادير الرجال بتفاوتها، فمن الناس من همه جمع الدراهم وتكثيرها، وربما شح بها على نفسه أو أهله لأن همه في رؤيتها كثيرة وإن لم ينتفع بها، وهو بمثابة العبد الذي يجرس المال لسيدته ولا حظ له فيه، ومنهم من

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/٥٧٣).

همه نيل المناصبِ والترفع بها، ومنهم من همه في الحياة امرأة يرى أنه إن ظفر بها فاز فوزًا عظيمًا، وإلا فقد فاتته الحياة، ومن الناس من همه البنيان والعمران، فيرى أنه متى أكثر من العمران وأطال البنيان فقد قام بواجبه في الحياة؛ لأن الغرض من الحياة عند البعض أن نعمر الأرض ونحريتها ونزينها وكأننا خلقنا لها لا أنها خلقت لنا مع أن مولانا سبحانه يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ومن الناس من همه بطنه، ومنهم من همه نزواته، بل من الناس من همه أن يصبح لاجبًا يركض خلف مطاط منفوخ.. ولا تزال الهمم تدنو وتدنو حتى إن من الناس من همه أن يكون مغنيًا يتمايل طربًا فيتمايل معه السفهاء، أو ممثلًا يشيع الفاحشة وينشر الرذيلة ويروج للباطل لينال به عرضًا زائلًا وصيتًا حائلًا.. وهكذا لا تزال الهمم تصغر وتصغر حتى يصبح هم أحدهم في أمر تافه حقير يقضي ساعات عمره في الانشغال به، مع أنه يعود عليه بالضرر عاجلاً أو آجلاً، وكلُّ يسير إلى غايته، ويجهد في تحقيق رسالته، ومن هنا ينشأ التفاوت بين النبلاء والغوغاء، بين العقلاء والسفهاء؛ لأن منازل الرجال وكذلك النساء تتفاوت بتفاوت ما يحملونه من الهموم والغايات، فالهمم العالية تسمو بصاحبها إلى ذرى المعالي، والهمم الدنيئة تسفل بصاحبها إلى الحضيض، وكلُّ يسعى لإدراك غايته وتحقيق أمنيته، جليلة كانت أم حقيرة، خيراً كانت أم شراً..

ألا بلِّغ الله الحمى من يريده وبلِّغ أكتاف الحمى من يريدها
وشتان بين من همُّه الحمى ومن هممه كنيف الحمى.

معاشر المسلمين: علو الهمة يكون أولاً بتربية النفس على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، وشمائل العظماء، وعدم الرضى بالدون، فإن الراضي بالدون دنيء.

لعمرك ما أهويت كفتي لريية ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قاذني سمعي ولا بصري لها ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولست بهاشٍ ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي
وأعلم أنني لم تصبني مصيبةٌ من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي



ولقد كان الصحابة الكرام -عليهم الرحمة والرضوان- مثلاً يحتذى في علو الهمة وإدراك الغاية من هذه الحياة؛ لأن النبي ﷺ رباهم على المعالي والترفع عن السفاسف والتّوافة، حتى في طلب الجنة كان النبي ﷺ يحثهم على طلب الفردوس منها، وهو خيرُ بقاعها، وهو منتهى المهمة النبيلة، فقال ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس؛ فإنه سرُّ الجنة»^(١). أي: أفضل موضع في الجنة، وقال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»^(٢).

وهذا عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ لِعِلامه: (يا غلام: لا يكن همّك ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح، وما تسكن وما تجمع، كل هذا همّ النفس والطبع، فأين همّ القلب؟! همّك ما أهمّك، فليكن همّك ربّك عزّوجلّ وما عنده).

واعلم -أيها الحبيب اللبيب- أن الهمة الذي تحمله بين جنبيك هو الذي يحدّد قيمتك في سوق الرجال، فإن كان همّك في الحياة رضوان الله عزّوجلّ فتحيا بدينك ولدينك ذاباً عن حياضه حامياً لحماه دائماً في نشره مجاهداً لعزّه ونصره مجتهداً في نصح الخلق وتعبيدهم لخالقهم، ساعياً في الخيرات آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فاعلم أن همّك عظيم ومطلبك كريم، فأخلص العمل لله جل وعلا، واقتف سنة رسول الله ﷺ، وسترى الشار يانعة بإذن الله، فإن كنت ذا علم فعلمه من لا يعلم، وإن كنت ذا مال فلا تبخل بالبذل لإعزاز دينك وغوث إخوانك ودحر أعداء دينك، وإن كنت ذا منصب وجاه فاستعمله في مرضاة ربك وخدمة دينك وأمتك.

أما من كان همّه في الحياة ليس إلا منصباً رفيعاً، وقصراً منيفاً، ومالاً وفيراً، ولا همّ له في دينه فلا يغضب الله ولا ينتصر لأولياء الله من العلماء والدعاة، ولا يابه بانتهاك حدود الله فهذا

(١) السلسلة الصحيحة (٢١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠).



ميت يمشي بين الأحياء، فأحسن الله عزاءه في نفسه، ولا كثر في المسلمين من جنسه، فبطن الأرض خير له من ظهرها.

وما للمرء خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُد من سقط المتاع
قال الخطيب البغدادي: (سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي، يحكي أن محمد بن جرير الطبري مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة فأَي همة هذه التي وصلت بهذا العالم الجليل إلى هذه المنزلة العالية!).

وهذا الإمام أبو الفرج ابن الجوزي يقول عن نفسه: (كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديّ مائة ألف، وأسلم على يديّ عشرون ألف يهودي ونصراني). ويقول: (ولو قلت إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد لا أزال في الطلب). فإذا كان قدر ما قرأ وهو في الطلب (عشرين ألف) مجلدة، واحتسبنا أن صفحات المجلد الواحد في المتوسط (٣٠٠) صفحة، كان مقدار ما قرأ (٦٠٠٠٠٠٠) ستة ملايين صفحة، وإذا كان ما كتب بأصبعيه (ألفي) مجلدة، كان مقدار ما كتب (٦٠٠٠٠٠٠) ست مائة ألف صفحة، هذا ما قرأ ونسخ، فما هو مقدار ما كتب وصنف؟!)

ويحدث الإمام ابن عقيل عن همته وهو في عشر الثمانين من عمره، فيقول: (إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين.

وكان عثمان الباقلوي دائم الذكر لله تعالى، فقال: (إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج! لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر. وكان الإمام البخاريّ يقوم في الليلة الواحدة ما يقرب من عشرين مرّة لتدوين حديث أو فكرة طرأت عليه، وقالت بنت الشافعي: أسرجت لأبي في ليلة سبعين مرة، كلما أراد أن ينام تأمل مسألة فقهية، فيقوم ويكتبها).

يقول ابن الجوزي: (تأملت أحوال الناس في حالة علوّ شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين حسراتهم حينئذ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات. فكلّهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك



لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت، قال: وا أسفاه على ما جنيت؟ وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفا على فوات ما كان يلتدّ به. فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنّه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس ويلتدّ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم.

ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم. ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديد وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلمها أكلت لقمة شربت عليها، وعين همّتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

إخوتي الكرام: لقد أصيب المسلمون في عصورهم المتأخرة بدنو الهمم والرضا بالهوان والقعود عن معالي الأمور، والاشتغال بالسفاسف والترهات على مستوى الأفراد والجماعات، فصاروا إمّعات وبيغاوات إلا من رحم الله، وغلب على الأمة اللهو والبطالة والعبث؛ ولهذا أصبحت الأمة غرضًا لأعدائها الذين تسلطوا عليها وجاسوا خلال ديارها فساموها سوء العذاب، بعد أن كانت عزيزةً مهيبةً الجنب، فهوت من عليائها، ونزلت من شامخ عزها، ولقيت صغارًا بعد شمم، وذلاً بعد عزة، وجهلاً بعد علم، وعبثًا وهواً بعد جدٍ وحزم. فما أحوجنا أن نرجع إلى ديننا وأن نُعلي هممنا، فبالدين نرجع إلى الجادة، وبالحمم العالية ننفض غبارَ الذل ونرفع غشاوةَ المهانة.

معاشر المسلمين: إن المسلم بطبيعته عالي الهمة؛ لأنه يشعر أنه مُبتعث لهداية الخلق والأخذ بأيدي الضالين إلى معرفة الله وما شرعه لخلقهم، فهذا ربعي بن عامر يعرف كسرى بحقيقة المسلم فيقول له: (نحن قوم ابتعثنا الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان -يعني بعد تحريفها- إلى عدل الإسلام).

نعم -أيها الكرام-، هذه حقيقة المسلم وهذه همته، ولكنها تضعف بضعف العلم ونقص الإيمان، فكلما زاد العلم بالله ودينه وزاد الإيمان علت الهمة. وهذا سرّ علو همة الصحابة والتابعين الذين امتد سلطانهم من جنوب فرنسا إلى تخوم الصين، فهمة المسلم إنما تضعفها المعصية والجهل بحقائق الدين، وإلا فالأصل في المسلم علو الهمة، فهمة قد علت الجوزاء، ولم تتسع لها الأرض، فتطلعت إلى ما أعد الله لأولياؤه في السماء.

وإن الهمة العالية لا تزال بصاحبها تزجره عن مواقف الذل ومواقع التهم وتتأى به عن التلطيخ بالردائل وتحته على اكتساب المكارم والفضائل. والهمة العالية ترفع القوم من سقوط، وتبدلهم بالخمول نباهة وبالضعة رفعة، ذلك أن علو الهمة يستلزم الجدّ والإباء ونُشدان المعالي وتطلاب الكمال والترفع عن الدنيا. ولا تزال الهمة النبيلة ترقى بصاحبها في مراقي الكمال في



دينه وديناه، فلا يقصر همه على نفسه، بل يصل خيره لغيره، ويسعى في مصالح الأمة، ويجتهد في كل ما يرفع عنها الغمة، يحيا لأهداف سامية، فيحيا كبيراً ويموت كبيراً، أما الذي يعيش لنفسه فلا يُفَرِّح بحياته، ولا يؤسى لوفاته، وإن صغير المهمة عندما يرى أعداء الأمة في قوة وسطوة يذوب أمامهم رهبة، ويُطرق إليهم رأسه انبهاراً وذلة، ثم لا يلبث أن يسير في ركابهم، ويسارع في مشاكتهم ومرضاتهم، ويهرول خلفهم في كل صيحة هرولة الإمعة الأبله.

والناس ألفٌ منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنى

معاشر الإخوة: إن هذا الدين العظيم أشد ما يكون حاجةً إلى رجال يحملون همّه، رجال أقدامهم في الثرى وهمة هاماتهم في الثريا؛ لذا كان الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: (يال له من دين لو أن له رجلاً).

إن علو المهمة هو أول طريق النجاح في الدين والدنيا بعد تقوى الله جل وعلا، ولكن لا بد من التخطيط السليم لتحقيق الأهداف، فالهدف الذي لا نخطط لبلوغه يبقى حلمًا جميلًا يصعب الوصول إليه كما قال بعضهم:

إذا تمنيت بتّ الليل مغتبطًا إن المنى رأس أموال المفاليس

فينبغي تحيّر الأهداف السامية والغايات النبيلة، ثم التخطيط لأهدافنا، دينية كانت أم دنيوية، مباحة من المكاسب والتجارات أن العلوم والمهارات أم غيرها، وينبغي أن تكون أهدافنا واضحة، فوضوح الهدف في ذهن صاحبه من أقوى أسباب تحقيقه بعد عون الله وتوفيقه، وحبذا لو كتبت الخطة، فقد ثبت بالتجارب أن الخطة المكتوبة أجدى وأفضل ثمرة من غيرها. وقد استغنى السلف عن ذلك لوضوح الهدف في أذهانهم وقلة الصوارف والشواغل عن بلوغ الغايات.

عندما نتحدث عن علو همم السلف فإننا ذلك لأنهم جعلوا الهموم همًا واحدًا هو هم الآخرة وطلب رضى الله، وقد قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من جعل الهموم همًا واحدًا هم آخرته كفاه الله هم

دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك»^(١). وإن التحلي بما كانوا عليه من كريم الصفات وجميل الشيم من مفاتيح العزة بإذن الله، لعلنا نربي جيلاً يصنعون الأجداد، ويننون البلاد، ويصلحون العباد.

إذا غَامَرْتَ فِي شَرَفِ مَـرُومٍ فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيمٍ

ولكن هل انتهى زمن الهمم العالية؟! هل همم الرجال تاريخ أم لا زال له شواهد في الواقع؟! إن أمة الإسلام ولود لا يزال فيها همم تطرب النفوس لذكرها وتعطر المجالس بأخبارها، هل تريدون أن تسمعوا عن علو الهمة في زماننا؟! أبشركم، فالنماذج كثيرة، ولكن سنقتصر على ذكر نموذجين لعلو الهمة في زماننا، همة عالم إمام وهمة داعية إغاثي مبارك:

أما الأول فهو العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، يقول أحد مرافقيه الذين سافروا معه برًا، والشيخ قد تقدمت به السن يقول: بعد الساعة الثانية ليلاً قال الشيخ لمرافقيه: يبدو أننا تعبنا، قفوا لننام، فوقفنا فما مست أقدامنا الأرض إلا ونمنا من التعب، وشرع الشيخ في الصلاة، فلما استيقظنا قبل صلاة الفجر فإذا بالشيخ يصلي. ويقول بعض من أصحابه: لا أذكر أن ابن باز أخذ إجازة لا شهرًا ولا يومًا، بل كل وقته لدينه وأمته، نشر للعلم، وقضاء لحوائج الناس، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ومناصحة للقريب والبعيد من الولاية والعامّة، حتى كتب لبعض الطغاة كتابًا شديدًا لإيذائه للصالحين وقتله للمصلحين، وختم كتابه بقوله تعالى:

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

داوم رَحِمَهُ اللهُ أكثر من سبعين سنة بين قضاء وإفتاء ومناصب علمية، قضى من خدمته قرابة ثلاثين عامًا بعد استحقاقه للتقاعد، وجاوز التسعين وهو على منصبه يباشر مهامه الكثيرة التي تنوء بها العُصبة من الرجال، فإذا انتهى الدوام كان بقية يومه بين تعليم وإفتاء وإغاثة ملهوف ومساعدة محتاج وشفاعة لمستضعف، لا ينام إلا نحو أربع ساعات هي حظ نفسه منه، وباقي يومه لدينه وأمته، أتته الدنيا فأعرض عنها؛ لأن همته تجاوزت حدود التراب وما

(١) حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٩).



عليه، ولو شاء أن يكون من الأثرياء لكان، فقد أثرى من هو دونه جاهًا ومنصبًا، ولكنه أثر الزهد والخروج من الدنيا خفيًا، فكان يبذل ماله بذلاً قلماً تسمع به أذن، فقد كان من كرماء هذا الزمان، وله في الجود والإنفاق في وجوه الخير مواقف لا يتسع المقام لذكرها. وبالجملة فقد كانت الدنيا عنده أهون من أن يلتفت إليها؛ لأن همته أعلى من الدنيا وما فيها، حتى قال بعضهم: نحن نركض خلف الدنيا وابن باز يهرب منها. فما أحوج أبناء العشرين والثلاثين والخمسين لهمة ابن التسعين - عليه رحمة الله وعلى سائر علماء المسلمين -.

وأما المثال الآخر الذي يشهد أنه لا زال للهمة رجال ولا زالت الأمة ولادة: فطيب عربي مسلم سمع بجهود المنصرين في إفريقيا، فتحررت فيه حمية الدين ونخوة المؤمن، فترك حياة الرغد والرفاه والوظيفة المرموقة ليعيش في إفريقيا سنوات طويلة، وظل أكثر من ثلاثة عقود إلى أن توفاه الله يجوب أذغالها ويخوض مستنقعاتها غير مبالٍ على أي فراش نام، أو من أي طعام أكل، ومن أي ماء متعكر شرب، ففضى هناك زهرة شبابه؛ باذلاً نفسه لدينه، دائماً في الدعوة والإغاثة حتى تقدمت به السن، فلم يبالٍ بكبر سنه، ولم تعقه الأمراض التي أنهكت جسده الذي صار مستودعاً لعدد منها، هانت عليه نفسه في الله، وعلت همته في سبيل الله، فأسلم على يده الملايين من أهل هذه القارة السمراء، وبنى المئات من المساجد والمدارس والمشافي، ووقف للتنصير في هذه القارة كالطود الأشم، فلم يلقيه المنصرون في بلدة إلا عادوا أدرأجهم وانكفؤوا في جحورهم، رجل واحد يفعل كل هذا، فرزقه الله محبة الخلق، فلا يسمع بجهد أحد إلا أحبه، إنه الدكتور عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ اللهُ تعالى، هذه هي الحمم، وهؤلاء هم الرجال.

هم الرجال وعيب أن يقال لمن لم يتصف بمعالي وصفهم رجلٌ

وقد يقول قائل: وأين نحن من هذه الحمم؟! هذا مما يعجز عنه أكثر الناس، فنقول: سدّدوا وقاربوا، وليبذل كل منا لدينه ما يستطيع وما في وسعه، وفي المجال الذي يُحسّنه، فلدى كل مسلم ما يستطيع أن يُقدمه، فلا تحقرن نفسك -أيها الحبيب-، فإن لم تكن بحرًا فكن بئرًا، وإن لم تكن بئرًا فكن دلوًا، وإن لم تكن سيفًا فكن غمدًا، وإن لم تكن قلماً فكن حبرًا.



أيها الناس: إن العاقل اللبيب من جعل همّه في مرضاة الله، وعلم أنه لن ينال من الدنيا إلا ما كتب له مولاه، فاجتهد في رضاه، وأثره على هواه، وبذل الأسباب ثم توكل على الله، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قُدّر له»^(١).

هذا؛ وصلوا وسلموا على خير البرية وأزكى البشرية...



(١) صحيح الجامع (٦٥١٠).

الإحسان إلى الناس (١)

الخطبة الأولى:

الحمد لله الكريم المنان، ذي العطاء والإحسان، خلق الخلق ليعبده، وأجزل عليهم النعم ليشكروه، وأنار قلوب المؤمنين بالقرآن، فسبحانه من إله عظيم، ومنعم كريم، أشهد أن لا إله إلا هو الواحد الديان، تبارك بمجده وعلياه، وتقدس بجبروته وكبريائه، وهو الكريم الرحمن، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد ولد عدنان، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

أيها المؤمنون: إن السعادة هدف منشود، ومطلب جميل محمود، يسعى إليه البشر جميعًا، بل كل مخلوق يسعى لما فيه راحته وأنسه، وللسعادة أبواب ومفاتيح تستجلب بها، إلا أن هناك بابًا من أبواب السعادة وتحصيل الأُنس، يغفل عنه كثيرٌ من الناس، وهو سهل المنال، قريب المأخذ، وعاقبته جميلة، وأثره سريع، فما هو يا تُرى؟

إنه الإحسان إلى الناس، وتقديم الخدمة لهم بما يُستطاع، فالخلق عيالٌ الله، وأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، والإحسان إلى الخلق من تمام الإحسان في عبادة الله؛ قال الله سبحانه

(١) لم تتمكن من معرفة صاحب الخطبة، وهي من أفضل الخطب في هذا الباب.



عن قوم تنكبوا عن طريق الإحسان: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالَُوا لَمْ نَمُكِّنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۚ أَفَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمُسْكِينِ ۚ﴾ [المدر: ٤٢-٤٤]. فسبب دخولهم سقر، هو تركهم الصلاة وتركهم الإحسان إلى الخلق بإطعام المسكين، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تنوعت أرزاق العباد واختلقت، والناس متفاوتون من حيث الغنى والفقير؛ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته»^(١)، هذا الحديث فيه ذكر قاعدة الإحسان، والتعامل به مع كل شيء، وفيه فضيلة الإحسان حتى إلى البهائم المأكولة في حال ذبحها، وهذا شيء يغفل عنه بعض الناس، فيسيئون إلى البهائم في كيفية ذبحها.

عباد الله: إنَّ للفقير لوعته وللغوز حُرقتة، وكم هي مُرَّة تلك الآلام والحسرات التي يشعر بها ذلك الفقير المعدم، حين يرمي بطرفه صوب بيته المتواضع المملوء بالرعيَّة والعيال، وهم جِياع لا يجدون ما يسدُّ جوعتهم، أو مَرَضَى لا يجدون مَنْ يعالجهم، كم من مَدِين أَرْهَقَ ظَهْرَهُ ثِقْلُ الدَّيْنِ، وناء جسده عن تحمُّل هذا الهمِّ المؤرِّق، كم من فقير ضاقت به الدنيا وانسدَّت في وجهه أبواب الرزق، لولا بقية باقية من الأمل والرجاء فيما عند الله، فيأتي من يسد تلك اللوعة، ويطفئ ما يعانيه من الحرقة، إنهم أهل الإحسان في الدنيا؛ لأنَّ أحدهم يعلم أنه إذا أحسن إلى الآخرين في هذه الدنيا، كانت النتيجة إحسان الله إليه في الدنيا والآخرة.

عباد الله: إن أول المستفيدين من الإحسان هم المحسنون أنفسهم، إذ فتح الله لهم باباً من أبواب الخير والبر يمنون ثمراته عاجلاً في نفوسهم وأخلاقهم وضائرهم؛ فيجدون الانشراح والسكينة والطمأنينة.

جرب أيها الأخ الحبيب.. إذا طاف بك طائف من هم أو ألم بك غم فامنح غيرك معروفاً وأسد له جميلاً؛ تجد السرور والراحة، أعط محروماً، انصر مظلوماً، أنقذ مكروباً، أعن منكوباً، عد مريضاً، أطعم جائعاً؛ تجد السعادة تغمرك من بين يديك ومن خلفك.

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).



أما الثمرة في الآخرة، فتأمل معي هذه القصة العجيبة:

ومن عجائب أخبار السلف الصالح ما روى أهل السير عن أحمد بن مسكين أحد علماء القرن الثالث الهجري في البصرة، قال: (امتحنْتُ بالفقر سنة تسع عشرة ومائتين، فلم يكن عندنا شيء، ولي امرأة وطفلها، وقد طويينا على جوع يخسف بالجوف خسفاً، فجمعت نيتي على بيع الدار والتحوّل عنها، فخرجت أتسبب لبيعها فلقيني أبو نصر، فأخبرته بنيتي لبيع الدار فدفعت إلي رُقاقتين من الخبز بينها حلوى، وقال أطمعها أهلك. ومضيت إلى داري فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي، فنظرت إلى الرقاقتين وقالت: يا سيدي، هذا طفل يتيم جائع، ولا صبر له على الجوع، فأطعمه شيئاً يرحمك الله، ونظر إليّ الطفل نظرة لا أنساها، وخيل إليّ حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه، فدفعت ما في يدي للمرأة، وقلت لها: خذي وأطعمي ابنك. والله ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام، فدمعت عيناها، وأشرق وجه الصبي، ومشيت وأنا مهموم، وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار وإذ أنا كذلك إذ مرّ أبو نصر - وكأنه يطير فرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يجلسك ها هنا وفي دارك الخير والغنى؟! قلت: سبحان الله! ومن أين يا أبا نصر؟! قال: جاء رجل من خراسان يسأل الناس عن أبيك أو أحدٍ من أهلنا، ومعه أثقال وأحمال من الخير والأموال، فقلت: ما خبره؟ قال: إنه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودعه مالاً من ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال، ثم ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التجارة هناك، وأيسر بعد المحنة، وأقبل بالشراء والغنى، فعاد إلى البصرة وأراد أن يتحلل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في ثلاثين سنة. يقول أحمد بن مسكين: فحمدت الله وشكرته، وبحثت عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتها وأجريت عليهما رزقا، ثم التجرت في المال، وجعلت أربُّهُ بالمعروف والصنعة والإحسان وهو مقبل يزداد ولا ينقص، وكأني قد أعجبتني نفسي وسرّني أني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كتبت عند الله في الصالحين، فتمت ليلة فرأيتني في يوم القيامة، والخلق يموج بعضهم في بعض، ورأيت الناس وقد وسّعت أبدانهم، فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسّمة، حتى لكان الفاسق على ظهره مدينة كلها مخزيات، ثم وُضعت الموازين، وجيء بي لوزن أعمالي،



فجعلت سيئاتي في كفة وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السجلات، ورجحت السيئات، ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه، فإذا تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس، كالرياء والغرور وحب المحمدة عند الناس، فلم يسلم لي شيء، وهلكت عن حجتي وسمعت صوتاً: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا، وأنا أنظر لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنت بهما على المرأة وابنها، فأيقنت أني هالك، فلقد كنت أحسنُ بمائة دينارٍ ضربةً واحدةً فما أغتت عني، فانخذلت انخذلاً شديداً، فوضعت الرقاقتان في الميزان، فإذا بكفة الحسنات تنزل قليلاً ورجحت بعض الرجحان، ثم وضعت دموع المرأة المسكينة التي بكت من أثر المعروف في نفسها، ومن إثاري إياها وابنها على أهلي، وإذا بالكفة ترجح، ولا تزال ترجح حتى سمعت صوتاً يقول: قد نجا). وصدق رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١).

عباد الله: إن الإحسان كالمسك ينفع حامله وبائعه ومشتريه، وقد ثبت في الحديث أن امرأة كانت عاصية بعيدة عن الله سبحانه وتعالى خرجت ذات يوم، فبينما هي تسير في الطريق إذ رأته ذلك الكلب الذي اكتوى بحرّ الهجير، قد أنهكه العطش والظمأ، وقد وقف على بئر ذات ماء، لا يدري كيف يشرب، فهو يلهث الثرى من شدة الظمأ، فلما رأته تلك المرأة العاصية، أشفقت عليه ورحمته، فنزلت إلى البئر وملاّت خفها من الماء، ثم سقت ذلك الكلب، وأطفأت ظمأه وعطشه، في لحظة صدق ورأفة ورجاء لرحمة الله، فنظر الله إلى رحمتهما بهذا المخلوق، فشكرها معروفاً، فغفر ذنوبها، وبشرة ماء غفرت ذنوبها، وبشرة ماء سترت عيوبها، وبشرة ماء رضي عنها ربها، إنها الرحمة التي أسكنها الله القلوب، إنها الرحمة التي يرحم الله بها الرّحماء، ويفتح بها أبواب البركات والخيرات من السماء، بعث بها سيّد الأولين والآخرين؛ كما قال ربنا في كتابه المبين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنها يرحم الله من عباده الرّحماء.

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦).



الإحسان إلى الآخرين، والرحمة والرفق بهم؛ شعار المسلمين وِدثار الأخيار والصالحين، وشأن الموقنين المُسدِّدين، كم فرَجَ اللهُ بها من هموم، وكم أزال اللهُ بها من غموم، إذا أسكنها اللهُ في قلبك فتَحَ بها أبواب الخير في وجهك، وسَدَّدَكَ وأهَمَّكَ، وأرَشَدَكَ وكنْتَ من المحسنين.

عباد الله: من شعائر الإسلام العظيمة إطعامُ الطعام، والإحسان إلى الأرامل والأيتام، والتوسيع عليهم؛ طلبًا لرحمة الله الملك العلام، قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»؛^(١).

الذي يُطعم الأرملة، ويُدخل السرور عليها - إحسانًا ورحمة - كالصائم الذي لا يُفطر من صيامه، والقائم الذي لا يفتر من قيامه، فهنيئًا ثم هنيئًا لأمثال هؤلاء الرُّحماء.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمةً، فأسبغها عليه، ثم جعل من حوائج الناس إليه، ففترم، فقد عرَّضَ تلك النعمة للزوال»؛^(٢).

وعن أبي هريرة أن رجلاً شكَا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»؛^(٣).

فيا مَنْ رام محبةَ الله ورجا رحمته، ارحم الضُّعفاء، وأحسن إلى المساكين، وأعط المحتاجين، وأعِن العاجزين، ولا تبخل بشيء من البر، ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وإن كان يسيرًا فإنه صدقة تؤجر عليها؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا نبي الله، علمني شيئًا أتنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»^(٤). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا رجلٌ يمشي بطريقٍ وجد غصن شوكٍ على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له»^(٥).

(١) رواه البخاري (٦٠٠٧) ومسلم (٢٩٨٢).

(٢) حسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦١٨).

(٣) حسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٤٥).

(٤) رواه مسلم (٢٦١٨).

(٥) رواه مسلم (١٩١٤).



وفي الصحيحين قال ﷺ: «كل سُلامى - أي: مفصل - من الناس عليه صدقة، كل يوم تَطْلُع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتُعِين الرجل في دابَّته، فتَحْمِله عليها، أو تَرَفَع له عليها متاعه صدقة»، قال: «والكلمة الطيِّبة صدقة، وكل خُطوة تَمْشِيها إلى الصلاة صدقة، وتُطِيط الأذى عن الطريق صدقة..»^(١).

اللهمَّ اجْعَلنا من المحسنين لعبادك، المُخلصين لوجهك، اللهمَّ اجْعَلنا من مفاتيح الخير، ومغاليق الشر، يا كريم يا رحمن.

(١) البخاري ومسلم.



الخطبة الثانية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

أيها الإخوة: لقد جعل الله نفع الناس والإحسان إليهم عبادةً عظيمة؛ فأمر سبحانه بالإحسان في آيات كثيرة، وأخبر أنه يحبُّ المحسنين، وأنه مع المحسنين، وأنه يجزي المحسن بالإحسان، وأنه يجزي المحسنين بالحسنى وزيادة، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولقد ورد ذكرُ الإحسان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ تارة مقروناً بالإيمان، وتارة مقروناً بالتقوى أو بالعمل الصالح، وكلُّ ذلك مما يدلُّ على فضل الإحسان وعظيم ثوابه عند الله تعالى.

ومن المعاني التي يشملها الإحسان أنه يكون فيما بين العبد وبين ربه، وهو أعلى مراتب الدين، وقد فسره النبي ﷺ بأن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومعنى ذلك أن العبد يعبد الله تعالى على استحضار قلبه منه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والتعظيم، ويوجب النصح في العبادة وتحسينها وإتمامها.

أما الإحسان إلى الغير، وهو بمعنى الإنعام عليهم، وإعانتهم والرفق بهم، فمن ذلك: خدمتهم وقضاء حوائجهم، والسعي في تنفيس كربهم، وأولى الناس بالخدمة والرعاية الأهل والأقرباء، ولذلك جاء عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» أخرجه الترمذي، عن الأسود قال: سألت السيدة عائشة رضي الله عنها: عن ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة).

ومن منا لا يبالي بكسب قلوب أقرب الناس إليه كالوالدين، والزوجة والأقرباء، وترى بعض الناس لا يراعي مكارم الأخلاق ولا يراعي القريب وذا الرحم، ولا يستطيع أن يكسب وده أبيه وأمه، وقلب زوجته أو أخته، بل قد تجده في خصام دائم معهم، نظرًا لقلّة التغاضي ودقة ملاحظة الأخطاء وغياب العفو والحرم والتغافل عن حياة كثير من الناس.



ومن يجب أن نحسن إليهم ونكسب قلوبهم وودهم وثقتهم الجيران، جاء في الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره و من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه و من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، وأي إكرام يقدم إلى الجار أكبر من نصحه بالحكمة والموعظة الحسنة ودعوته إلى الهدى والتقى، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى مساواة الجار بالنفس، فقد جاء عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ - أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، فما ينبغي التحبب إلى الجار، وعيادته إذا مرض، وتعزيته عند المصيبة، وتهنئته بالفرح، والصفح عن زلته، وعدم التطلع إلى عوراته، وستر ما انكشف من عيوبه، والاهتمام بالإهداء إليه وزيارته وصنع المعروف إليه، وعدم أذيته، فعن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه». ومعنى بوائقه غشه، وشره، خيائته. فالذي لا يطمئن منه جاره، ولا بأمنه على بيته و أهله، في حال غيبته حضرته، ليس بمؤمن. لأن المؤمن هو من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم، ونسائهم والبوائق الشرور والأذى.

ومن الإحسان كذلك أن نكسب الذين نعمل معهم أو يعملون معنا، فالطيب يكسب المرضى، والأستاذ يكسب التلاميذ، والموظف يكسب المراجعين، وكم سمعنا عن طيب طيب لا يتبرم من المرضى بل يحسن إليهم بالكلمة والنظرة حتى يحسن نفسياتهم ويكون عوناً على شفائهم، وكم من معلم رغب تلاميذه في التعليم برفقه وتشجيعه وحسن تدبيره، وكم من موظف يبادر في إنجاز معاملات الناس فيكون بذلك محسناً محبوباً عند الله وعند خلقه، مثاباً حتى ولو كان ذلك عمله ووظيفته، أما عندما يُشاع عكس هذه التعاملات بين الناس فحينئذ يغيب الإحسان ويظهر الفساد وتكثر المظالم، وهنا يدعو المظلوم على الظالم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب وقد جاء عن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال سمعت رَسُولَ اللهِ يقول: «من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلفتهم و فقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته و فقره يوم القيامة».

أَحْسِنَ إِلَى النَّاسِ تَسْتَأْسِرُ قُلُوبَهُمْ
فَطَامَأ اسْتَأْسَرَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانٌ
وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ
يَرْجُونَ نَدَاكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانٌ

ومن الوسائل في كسب قلوب الناس: حسن الخلق والحلم وكظم الغيظ، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقد كان سيدنا محمد ﷺ القدوة الحسنة، والمثل في كظم
الغيظ والصفح عن المسيء، والعفو والصفح هو أولى درجات الإحسان، فإن من لم يحتمل
الأذى، لا يستطيع أن يحسن إلى هؤلاء الناس ولا أن يكف عنهم الأذى، وإن من أحسن إلى
الناس ليقال: أحسن، أو ليُشكر، أو ليرد له الجميل، فسيأتي يوم يتوقف فيه عن الإحسان؛
ذلك لأنه إنما فعل ذلك ليلقى الجزاء من الناس، وليعاملوه بالمثل، فلا بد أن يجد من يجحد
معروفه وينسى جميله، أو يرد الإحسان بالإساءة، وحينئذ لا يحتمل، مع أن أعظم الثواب
والأجر إنما يكون مع من لا يعترف بإحسانك ولا يكف عن الإساءة إليك، عن عقبة بن
عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله: «يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق الدنيا والآخرة؟ تصل
من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»^(١) وهنا تكون التجارة الحقة مع الله.

أيها الإخوة: إن الله وصف عباده المؤمنين الذين يحسنون إلى الناس فقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ
رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٠]. فلم ينتظروا من الناس جزاءً على معروفهم، بل ولا
كلمة شكر منهم؛ لأنهم إنما أحسنوا إليهم لوجه الله وخوفًا من لقائه، ومن هنا كان كثير
من الصالحين إذا أحسن إلى أحد أو أعطى مسكينًا فإنه لا يطلب منه حتى أن يدعو له، بل
إذا دعا له المسكين قابله بدعوة مماثلة لثلاث تكون تلك جزاءً لمعرفه فلا يثاب عليه بعد
ذلك عند الله تعالى.

(١) رواه أحمد (١٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٣٦).



أخي الحبيب: هل تريد أن تُنفس كربتك ويزول همك؟ فرج كربات للمساكين.. هل تريد التيسير على نفسك؟ يسر على المعسرين.. هل تريد أن يستر الله عليك؟ استر عباد الله، وكما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل.

قال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (من رفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه).

أخي الكريم: تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن الإحسان إلى الخلق سيعود إليك صداه ولو بعد حين، وأن الصدقة ولو بالقليل تفعل الشيء الكثير إذا وافقت إخلاصاً من المتصدق وحاجة عند الفقير، والبحث عن صاحب الحاجة اليوم أمر مطلوب، إذ اختلط الحابل بالنابل، وأفسد الكاذب على الصادق، فينبغي للمتصدق أن يتحرى في صدقته المحتاجين دون المحتالين، لكن دون إفراط أو مبالغة وإساءة الظن بالآخرين. وقد يقول قائل ويسأل سائل: أين نجد هؤلاء المحتاجين؟! وكيف السبيل إليهم؟! فأقول: اجتهد في البحث تجدهم، ومن يتحر الخير يوفق إليه.

إنَّ الإحسان كالمسك؛ يَنْفَعُ حَامِلَهُ وَبَائِعَهُ وَمَشْتَرِيَهُ، شَرْبَةُ مَاءٍ مِنْ بَغْيِي لِكَلْبٍ أَثْمَرَتْ دُخُولَ جَنَّةٍ عَرَضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الثَّوَابِ غَفُورٌ شَكُورٌ، غَنِيٌّ حَمِيدٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، فَلَا تَحْتَقِرْ إِحْسَانَكَ وَجُودَكَ وَعَطَاءَكَ، مَهْمَا قَلَّ.

اللهم أعنا على ذكرك، اللهم فرِّج همَّ المهمومين، ونفس كَرْبِ المكروبين، واقضِ الدَّيْنَ عن المدينين، اللهم اغفر لنا ذنبا كلَّه؛ دِقَّةً وَجِلَّةً، علانيته وسرَّه، أوَّله وآخره.

